نيقولاي غوغول

قصص

دار التقدم
موسكو

أعلام الأدب الروسي

ترجمة جليل كمال الدين

НИКОЛАЙ ГОГОЛЬ

ПОВЕСТИ

На арабском языке



ليلة نوّارية* او غريقة

الشيطان يعرف ما الذى يجرى !
يبدأ عباد الله بعمل شيء ما فيعانون من العذاب والمرارة وكأنهم يصطادون الارانب بمجرد أيديهم ولكن ما من فائدة وما أن يتدخل الشيطان في الامر ويلوح بذنبه حتى لا تعرف من اين يأتي كل شيء وكأنما هبط من السماء ذاتها

— ١ —

غالا

تدفّقت الأغنية الرنانة نهراً في شوارع القرية كان ذلك الوقت الذي كان فيه الفتيات والفتيان المرهقون باعمال اليوم ومتاعبه يجتمعون ضاجين في حلقات ، في ألق المساء الرائق ويصبّون مرحهم في أصوات ليست منفصلة دائماً عن الشجون كان المساء المتأمل يعانق ، على نحو حالم السماء الزرقاء ، محوّلاً كل شيء الى آفاق قصية والى مجهول ها هو السحر بيد ان الاغاني لا تزال معقودة أواصرها وها قد انسلّ ، وآلة الباندورا الموسيقية بيديه ، الشاب القوزاقي ،

---

*نسبة الى شهر نوار (مايو — ايار) — مايس المترجم

ليفكو ، ابن عمدة القرية ، مفلتاً من صفوف القرويين . وكان يعتمر بقبعة من فرو الضأن تغطي اذنيه يمضي القوزاقي هذا في الشارع وهو يضرب بيديه على الاوتار ويرقص وها هو يتوقف بهدوء امام باب احد البيوت ، الذي كانت تغطّيه اشجار كرز غير عالية . لمن هذا البيت ؟ باب من هذا ؟ صمت شيئاً ، وضرب بالاوتار ، وغنى

الشمس تأفل ، والمساء أسداله يسدل
فاخرجي الي يا حبيبتي

ــ كلا ، يبدو ان حسنائي الرائعة تغطّ في نوم عميق ! ــ قال القوزاقي ، وقد أنهى اغنيته ، مقترباً من الشباك . ــ غالا ، يا غالا ! أأنت نائمة ، ام لا تودّين الخروج اليّ ؟ لعلك تخشين ان يرانا احد ، او ربما لا تريدين ان تكشفي وجهك الابيض للبرد ! لا تخافي لا أحد هنا إنه مساء دافئ وحتى إذا ظهر أحد ، فاني ساغطّيك بملفّي ، وأمنطقك بحزامي ، وأغطّيك بيديّ ــ ولن يرانا أحد وحتى إذا كان البرد مؤذياً ، فاني سأشدّك قريباً الى القلب ، وأدفؤك بالقبل ، وأضع قبعتي على ساقيك البيضاوين يا قلبي ، يا سمكتي ،

يا عقدي ! تطلّعي للحظة ومدّي عبر الشباك ولو يدك البيضاء كلا ، إنك لا تنامين ، أيتها الفتاة الابيّة ! ـ قال هذا بصوتٍ أعلى ، وبنبرة تعبّر عن خجله من الاتّضاع العابر . ـ لا شيء سوى انك ترومين السخرية بي ، وداعا !

وهنا التفت هو ، ورمى عمرته على جانب رأسه وانفصل بأنفة عن الشباك ، ماساً برفق أوتار الباندورا وكان المقبض الخشبي للباب قد ادير في هذا الوقت ، واصطفقت الباب بصريف ، وتطلّعت فتاة في ربيعها السابع عشر ، وقد التفحت بالغسَق ، تطلّعت وتلفتت بوجل ودون ان تفلت المقبض الخشبي وخرجت مجتازة العتبة وفي الظلمة المنورة شيئا تألقت على نحو ودود ، عينان صافيتان ساطعتان كما لو انهما نجمتان ، وتألّق العقد المرجاني الاحمر ولم تستطع الاختفاء امام عينَي الفتى الحادتي البصر حتى صبغة الخجل الملتهبة على خديها

ـ يا لك من عديم الصبر ، ـ خاطبته بصوت خافت ـ ها هو قد زعل ! قل لي لماذا اخترت مثل هذا الوقت ان جموع الناس تتسكع أغلب الوقت في الشوارع ... وأنا ارتجف بكلّيتي

— هيه لا تزعجني زهرتي الجميلة ! التصقي بي أقوى ! — قال الفتى معانقاً إياها ، راميا بالباندورا ، المعلقة بالحزام الطويل، على رقبته ، وجالسا معها سوية عند باب البيت — ولو تعلمين كم هو شاق على ان لا أراك ولو ساعة واحدة

— اتدري بماذا افكر ؟ — قاطعته الفتاة وفي نظرتها تأمل . — لكأن أحداً يهمس في اذني طوال الوقت ، فيقول انه لن يتاح لنا الالتقاء بهذه الكثرة إن الناس لديكم غير طيّبين ان الفتيات تنظرن طول الوقت بحسد ناهيك عن الفتيان بل اني الاحظ ان امي جعلت منذ وقت غير طويل تتعقّب خطواتي بصرامة وإني لأعترف انني اشعر بالراحة حينما اكون لدى الغير

وظهرت على وجهها كآبة عند تفوّهها بالكلمات الاخيرة

— كل ما لك شهران في طرفنا ، وها انك قد سئمت ! لعلي قد اضجرتك ايضا ؟

— اوه ، إنك لم تضجرني ، — نطقت بهذا ضاحكة . — إني أحبك ، ايها القوزاقي الاسود الحاجبين ! أحبك لأن لديك عينين عسليتين ، ما أن تنظر بهما —

حتى لكأن قلبي يمتلىء مرحاً وغبطة ؛ وانه لمن المسر والممتع لي ، انك ترف بشاربك الاسود وانك تسير في الشارع ، وتغني وتضرب بالباندورا ، وإنه ليطيب لي أن أسمعك.

— آه ، يا غالتي — صرخ الفتى ، وهو يغمرها بألقبل ، ويشدها على نحو أقوى إلى صدره

— مهلاً ! كفاك ، يا ليفكو ! قل لي قبل كل شيء ، أتحدثت مع أبيك ؟

— بماذا ؟ — قال هو ، وكأنه قد صحا لفوره . — أبأني أبغي الزواج ، وانك تريدين الزواج مني ؟ — بهذا تحدثت .

ولكن كأن هذه الكلمة « تحدثت » قد صوّتت على نحو محزن باعث على الالتياع ، في شفتيه

— ثم ماذا ؟

— ماذا بوسعي أن أفعل معه ؟ لقد تظاهر عجوز النحس ، كعادته ، بأنه أصم لا يسمع شيئاً ، بل وانهدّ يعذلني ويوبّخني لأني اتسكّع في كل مكان ، وأطيش واعبث مع الفتيان في الشوارع ولكن لا تحزني ، ياغالتي ! اقولها كلمة قوزاقية بأني سأجعله يعدل عن رأيه .

ـ حسبك ، يا لفكو ، ان تقول كلمة ـ وسيكون كل شيء كما تريد إني لأعرف هذا قياساً على نفسي ، والا لما سوّغت لنفسي أن أسمعك ؛ قل انت كلمة ، وسافعل عفو البديهة ، ما تريده انظر ، انظر ! ـ استمرت هي ، واضعة رأسها على كتفه ، ورافعةً عينيها الى أعلى ، حيث ازرقت دون حدود السماء الاوكرانية ، المستورة من الاسفل بالاغصان الملتفّة لاشجار الكرز الشاخصة امامهما . ـ انظر ها هي النجوم تخر واحدة ، فثانية ، فثالثة ، فرابعة ، فخامسة أليس حقاً ان هذه إنما هي ملائكة السماء قد اشرعت نوافذ بيوتها المشرقة في السماء وجعلت تتطلّع إلينا ؟ نعم ، يالفكو ؟ فانها هي التي تتطلّع إلى ارضنا ؟ ماذا لو كان لدى الناس أجنحة ، كما لدى الطيور ـ إذن لطاروا إلى هناك ، عالياً ، فعالياً اوه ما أرهب ذلك ! ليس هناك ولا شجرة حور واحدة يمكن ان تبلغ السماء ومع ذلك يقولون انه توجد في مكان ما ، في ارض ما قصيّة ، مثل تلك الشجرة ، التي تضجّ أعاليها في السماء ذاتها ، وان الالهة تهبط الى الارض عبرها ليلاً قبيل العيد البهيج

ـ كلا ياغالا ، إن لدى الالهة سلماً طويلاً

من السماء حتى الأرض ذاتها وقبيل عيد الفصح يضع الملائكة الصالحون هذا السلم ، وما إن يهبط الالهة على الدرجة الاولى ، حتى تطير كافة الارواح الشريرة مندفعة كالسهم وتهوي طوابير حاشدة في قاع جهنم ، ومن هنا فانه لا توجد ، في عيد المسيحيين ، ولا روح شريرة واحدة في الأرض

ـ ما أهدأ ما يتماوج الماء ، لكأنه الطفل في مهده ! ـ واصلت كلامها غالا ، مشيرةً الى البركة ، المطوقة على نحو متجهّم بغابة اشجار الاسفندان ، وباشجار الصفصاف تنعاه وقد أغرقت في مائها اغصانها الشاكية ومثل شيخ ضعيف لا حول له ولا قوة امسكت هي في احضانها الباردة بالسماء القاتمة ، البعيدة ، ناثرة قبلها الثلجية على النجوم النارية ، التي تخفق على نحو كالح وسط النسيم الليلي الدافىء ، كما لو انها تتحسّس الظهور القريب لملك الليل الساطع البهي وعلى مقربة من الغابة ، وعلى الجبل ، كان البيت الخشبي العتيق يهوّم بدرف النوافذ المغلقة ، وكان الطحلب والحشائش البرية تغطّي سقفه ، واشجار التفاح الكثيفة الاوراق قد ترعرعت امام شبابيكه ، اما الغابة ، فقد رمت معانقة إياه بظلها ، القتامة الرهيبة

عليه ، كما انبسطت أحراش الجوز التى انحدرت الى البركة عند قاعدته

– أتذكّر ذلك كما لو كان عبر حلم – قالت غالا دون ان تحول طرفها عنه منذ فترة طويلة طويلة ، حين كنت لا أزال صغيرة ، وكنت وقتها اعيش لدى أمي كانوا يتحدثون بشيء ما رهيب عن هذا البيت يالفكو لعلك تدري بالأمر – فتحدث !

– دعك من كل ذلك يا حسنائي ! أمهم حقاً ما تتحدث به العجائز والحمقى ! إنك ستقلقين نفسك لا اكثر ، وسيغشاك الرعب ، ولن ترقدي متطامنة البال

– تحدث تحدث ايها الحبيب ، ايها الفتى الاسود العينين ! – قالت هي ، ملصقة وجهها بخدّه ، ومعانقة إياه . – كلا ! إنك ، كما يبدو ، لا تحبني ، إن لديك فتاة اخرى ولكن سوف لن أغفو وإن لم تحدثني سأتعذب وسأكون نهبةً للهواجس فتحدث ، يا لفكو !

– الظاهر ، انه حق ما يقوله الناس من ان الشيطان يجلس لدى الفتيات يستحثّ فضولهن حسناً ، اسمعي ، انت يا حبيبة قلبي . لقد عاش في هذا البيت ، منذ أمد طويل ملازم القطعات العسكرية في الدائرة

القوزاقية وكانت لدى هذا الآمر ابنة آنسة رائعة ، بيضاء ، كالثلج ، مثل وجهك وكانت زوجة هذا الملازم قد توفيت منذ أمد بعيد فاعمل هذا فكره للزواج من اخرى « هل ستدلّلني ياأبتاه، كالسابق ، حين ستتزوّج من امرأة اخرى ؟ » — « اجل ، سأفعل ذلك ، يا ابنتي ، ساشدك أقوى من السابق الى قلبي ! اجل ، سافعل ذلك ، يا ابنتي وسأهديك اكثر مما كان الامر قبلا ، الاقراط والعقود ! وأتى الملازم بزوجة شابة الى بيته الجديد وكانت الزوجة الشابة رائعة وكانت كاعبا بيضاء متورّدة فقط ما ارهب كانت نظرتها الى ابنة الزوج بحيث ان هذه كانت تصرخ عندما تراها ولم تكن زوجة الأب الصارمة لتفوه بكلمة طوال اليوم وحين الليل ومضى الملازم مع زوجته الى المخدع واغلقت الابنة على نفسها الأبواب في غرفتها الصغيرة في طابق البيت الاعلى وأضحى الأمر مريراً عليها ، فجعلت تبكي ونظرت ، فاذا بقطة سوداء رهيبة تنسل اليها ، وقد قفّ واضاء شعرها ، وجعلت مخالبها الحديدية تنكش الارض فوثبت الابنة من فرط رعبها الى الدكة ، فتبعتها القطة على الاثر. فقفزت الى السرير واذا بالقطة تثب ايضاً الى هناك ثم انقضّت

على رقبتها وجعلت تخنقها فقذفت الابنة بالقطة وهي تصرخ ، وألقت بها الى الارض غير ان القطة انسلّت إليها مرة اخرى فاستحوذ الرعب على الابنة وكان سيف الأب معلّقاً على الحائط فاختطفته واسقطته على الارض بقعقعة — فانفصلت احدى قوائم القطة ، واختفت القطة بزعيق في الزاوية المظلمة. ولم تبارح الزوجة الشابة مخدعها يوماً كاملاً ، وفي اليوم الثالث خرجت بيد ملفوفة فحزرت ابنة الملازم المسكينة ان زوجة الاب انما هي ساحرة ، وانها هي التي قطعت الابنة يدها وفي اليوم الرابع أمر الملازم ابنته بجلب الماء ، وتنظيف البيت ، مثلما يأمر أيما فلاحة بسيطة ، وعدم الظهور في مخدع الزوجة وبات الأمر صعباً على البائسة ، ولكن لم يكن في الامكان عمل شيء غير ذلك وانصاعت تنفذ ارادة الأب غير ان الملازم طرد ، في اليوم الخامس ابنته حافية من البيت ولم يعطها حتى كسرة خبز للطريق واذ ذاك أعولت الابنة بالبكاء مغطية وجهها الابيض بيديها ، وهي تقول «لقد قضيت ، يا أبتاه ، على ابنتك ! لقد اجهزت الساحرة على روحك الاثمة ! فليسامحك الله ، اما بالنسبة لي انا التاعسة ، فكما يبدو ، لا يريدني ان أعيش على وجه

البسيطة ! » وها انك ترين ، – التفت لفكو الى غالا مشيراً باصبعه الى البيت – انظري الى هناك هناك على مبعدة من البيت ، اعلى نقطة في الجرف ، من هناك رمَت الفتاة بنفسها الى الماء ، ولم يعد لها أثر في هذه الدنيا ، منذ ذلك الوقت

– والساحرة ؟ – قاطعته غالا بوَجَل ، مسمّرة فيه عينَين دامعتين

– الساحرة ؟ لقد ابتدعت العجائز اسطورة تقول انه منذ ذلك الوقت جعلت كافة الغريقات تخرج في الليلة المقمرة الى حديقة ربّ البيت تتدفأ بنور القمر ، وغدت ابنة الملازم رئيستهنّ وذات ليلة رأت هذه زوجة أبيها بجانب البركة ، فانقضّت عليها وجرّتها بصراخ الى الماء غير ان الساحرة استحالت هنا ايضا ، وتحت الماء ، الى واحدة من الغريقات ، وعن طريق ذلك تملّصت من سوط القصب الأخضر التي أرادت الغريقات ان يضربنها به وصدّق أحاديث العجائز ! ويحكين ايضا ان ابنة الملازم الغريقة طفقت تجمع الغريقات كل ليلة ، وتحدّق في وجه كل واحدة على انفراد ، علّها تعرف مَن منهنّ الساحرة ، ولكنها لحدّ الآن لم تعرفها وإنْ ظهر أحد

من الناس هنا فهي ترغمه على تمييز الساحرة والا فالغرق في الماء يتهدّده هذا هو ، ياغالتي ، ما يتحدّث به المسنّون ! لا ويريد السيد الحالي ان يشيد في ذلك المكان مخمرة ، وقد أرسل عمداً الى هنا مقطّر مسكّرات غير اني الآن اسمع لغطا إنهم ذوونا يعودون من لهوهم واغانيهم وداعاً يا غالا ! ارقدي مطمئنة ، ولا تلقي بالاً الى بدع العجائز هذه !

وإذ نطق بهذه الكلمات عانَقها بقوة وقبّلها ومضى

وداعاً يا لفكو ! — ردت غالا متأملة ، محدقة بعينيها في الغابة المظلمة

وفي هذا الوقت انفصل من الافق بدر منير ضخم بجلال مهيب وكان نصفه لا يزال غاطاً في صفحة الافق . ولكن العالم كله قد أفعم بنور بهيج . وتألّقت البركة بالشرر وجعل ظلّ الاشجار يتميّز بوضوح في الخضرة القاتمة

— وداعاً ياغالا ! — دوت وراءها كلمات مصحوبة بقبلة

— هل رجعت ؟ — قالت هي ملتفتة ، ولكنها رأت أمامها فتى لا تعرفه فانتحت جانبا

ــ وداعاً   يا غالا ! ــ ترددت هذه الكلمات من جديد ، ومن جديد قبّلها أحدهم في خدّها

ــ رماني القدر بآخر ! ــ تمتمت هي بغضب

ــ وداعاً يا غالا اللطيفة !

ــ هل من ثالث ايضا !

ــ وداعاً   وداعاً ، وداعاً يا غالا ! ــ وانهالت عليها القبل من كل جانب

ــ انهم هنا سرب كامل ! ــ صرخت هي ، متملّصة من حشد الفتيان   المسرعين لقطع الطريق عليها ومعانقتها ــ كيف لا يضجرون من التقبيل المستمر ! اقسم بالله   انه قريباً سيغدو الظهور في الشارع أمراً غير ممكن !

واصطفقت الباب اثر كلماتها هذه ، ولم يُسمع الا كيف تحرك المزلاج الحديدي بزعيق

ــ ٢ ــ

العهدة

اتعرفون ما هو الليل في اوكرانيا ؟ اوه   انكم لا تعرفون الليل الاوكراني ! اذن تفرّسوا فيه   يتطلّع القمر من كبد السماء . وتنشق قبة السماء الفسيحة وتمتدّ ،

وترتمي اى ما لا تطاله العين ويتألق القمر ويتنفس ان الارض كلها تستحمّ في نوره الفضي والنسيم العذب والبارد العبق ، المفعم بطيِّب الروائح يا لليل الالهي ! يا لليل الساحر ! واصبحت الغابات الممتلئة بالظلمة ، دون حراك ، وبشكل ملهم ومدّت ظلاً ضخماً ان هذه البرك هادئة وساكنة وينحصر البرد وظلمة المياه ، على نحو متجهـّم في حيطان الحدائق القاتمة الخضرة ومدّت الاجمات العذراء لاشجار بطمة الشمال والكرز بشكل وجل جذورها في برد الينابيع ، ونادراً ما تحفّ بأوراقها لكأنها تغضب وتسخط إذ يتسلّل النسيم الليلي الطائش الرائع اليها فجأة ويقبّلها ان ما على الارض كله ساكن ، هاجع اما في الاعلى فكل شيء يتنفّس وكل شيء ساحر وكل شيء مفعم بالبهجة والاحتفال اما القلب فيعمر بالرحابة ، والسحر والروعة وتطلع في اعماقه برشاقة ولدونة حشود الرؤى والاشباح الفضية ياالليل الالهي ! الليل الساحر ! وانتعش كل شيء فجأة الغابات والبرك والسهوب وينثال الصداح المهيب للبلبل الاوكراني ويلوح ان القمر يرهف السمع اليه ، وهو في كبد السماء ... وها هناك وعلى مرتفع تنام

كالهيمان قرية وعلى نحو أشد بياضا ، وبشكل أروع تتألق في نور القمر حشود البيوت ، تطلع جدرانها الدنيا من الظلمة على نحو أشد القا وخطفاً للابصار وهدأت الاغاني وهدأ كل شيء ورقد الناس الاتقياء الورعون وفي بعض البيوت فقط تنوّر النوافذ الضيقة وعلى عتبات البيوت الاخرى كانت العوائل التي تأخرت في قدومها الى البيت تنجز عشاءها المتأخر

– كلا ان رقصة الهوباك لا ترقص بهذا الشكل ! تلك هي المسألة أنظر الى رقصي طول الوقت فلا اجده يجري في المجرى المرغوب بماذا يتحدّث هذا الاشبين ؟ حسناً هوب ترالا هوب ترالا ! هوب ، هوب هوب ! – هكذا كان يحاور نفسه رجل كهل مخمور وهو يرقص في الشارع ، وقد عاد لتوّه من قصف ولهو – اقسم بالله ليس بهذا الشكل ترقص الهوباك ! لماذا أكذب ! اقسم بالله ، ليس بهذا الشكل ! حسناً هوب ترالا ! هوب ترالا ! هوب ، هوب هوب !

– ها قد خبل انسان ! لا ضير لو كان فتى شابا ، لكن هذا الخنزير العجوز لا يصلح الا ان يكون مسخرةً للأطفال برقصه هذا في الليل في الشارع ! –

هتفت امرأة مسنّة مارّة ، وهي تحمل في يديها قشّاً وأردفت تقول — امضي الى بيتك ! لقد آن الأوان للنوم منذ وقت طويل !

— سأمضي ! — قال الرجل ، متوقفا — سامضي انا لا أنظر الى أيما عمدة بماذا يفكر هو سحقاً له فليذهب الى الشيطان ! انه عمدة ويسكب في الصقيع الماء البارد على الناس ، مشمخراً بأنفه ! ايه ، ايها العمدة الرئيس انا رئيس نفسي فليقتلني الاله ! فليقتلني الاله ! انا رئيس نفسي وليست كبعضهم يقوله الغير ... — استمرّ هو متوجهاً الى أول بيت صادفه ، وتوقف امام النافذة ، زالقاً باصبعه على الزجاج ، ومحاولاً العثور على المقبض الخشبي — ايتها المرأة افتحي ! ايتها المرأة يقولون لك اسرعي ، افتحي ! لقد آن للقوزاقي أن ينام !

— الى اين آنت يا كالينيك ! لقد جئت بيتاً غير بيتك ! — هتفت البنات وراءه ضاحكات عائدات من اغانيهن المرحة — أندلّك على بيتك ؟

— أرينني ، أيتها الفتيات الغضّات المؤدبات !

— الغضّات ؟ اتسمعن ، — بادرت احداهن — أي متبصّر هو كالينيك ! لقاء ذلك ينبغي ان نريه بيته ، ولكن لا ، ارقص اولا !

– أرقص ؟   آه منكن ، ايتها الفتيات المفكرات ! – نطق كالينيك بهذا متمطّطاً ، ضاحكاً ، مهدّداً باصبعه ومراوحاً قدميه ، ذلك لأن قدميه لم تعودا قادرتين على حمله . – ولكن هل تدعنني اقبلكن ؟ سأقبل الجميع – الجميع !   – وبخطى منحرفة انهدّ يعدو وراءهن

وأطلقت الفتيات صراخاً ، وتبعثّرن ، ولكنهن عدن ، وقد تنشطن فيما بعد ، الى الاتجاه الآخر ، إذ لمحن ان كالينيك لم يكن بالغ السرعة في جريه

– ها هو بيتك ! – صرخن به ، طالعات من الطريق ومشيرات الى بيت اكبر من البقية ، يعود الى عمدة القرية   واتجه كالينيك ، مطيعاً ، الى ذلك الجانب حيث أشرن ، منخرطاً من جديد بسبّ العمدة

ولكن من هو هذا العمدة ، رئيس القرية هذا الذي كان قد أثار كل هذا اللغط والأحاديث وذكر غير الحميد حول شخصه ؟ اوه   ان هذا العمدة هو شخصية هامة في القرية   والى ان يبلغ كالينيك نهاية طريقه ، فاننا سنفلح ، دون شك   في ان نقول شيئاً عنه . إن اهل القرية جميعاً يرفعون قبعاتهم ، اذ يرونه، اما الفتيات الصغيرات جداً فيؤدين التحية ومراسيم

التمنيات الطيبة أي من الفتيان لم يرد أن يصبح عمدة !
إن الطريق مفتوح امام العمدة الى كافة المساعط ويقف الريفي القوي الاصلاب باحترام ، نازعاً قبعته طوال الوقت فيما يدس هذا اصابعه الغليظة الخشنة ، في مسعطه الرخيص المنقوش وفي الاجتماع العام ، وجلسات جمعيات الاراضي ، ودون النظر الى ان سلطته محدودة ببضعة أصوات ، فان العمدة يتفوّق دائماً ، وبمشيئته الخاصة تقريبا ، يرسل من يشاء لتسوية واصلاح الطريق او لاحتفار الخنادق إن العمدة متجهّم ، وصارم في منظره ، ولا يحب الكلام الكثير والثرثرة ومنذ وقت طويل ، طويل جداً ، حين كانت القيصرة العظيمة كاترين طيبة الذكر قد ارتحلت الى القرم ، كان هو قد انتخب ليكون في معيّتها وليومين كاملين وجد هو في هذا المنصب ، بل حتى استحقّ الجلوس بجنب الحوذي في عربة القيصرة ومنذ هذا الوقت تعلّم العمدة إطراق الرأس بمهابة وتروّ ، ومسح الشاربين الطويلين المعقوفين الى أسفل والقاء نظرة صقر متشامخة ومنذ ذلك الوقت ، فمهما تحدثوا معه ، فانه يُحسن دائماً الانعطاف بالحديث الى أمر كيف انه قد نقل القيصرة وجلس على مقعد

الحوذي في العربة القيصرية ويحب العمدة ان يتظاهر بالصمم ، خصوصاً اذا سمع ما لا يريد سماعه ولا يصطبر العمدة على الغندرة وهو يحمل دائماً لفافة من الجوخ الاسود ، ويتنطّق بحزام صوفي ملون ولم يره أحد قطّ في بدلة اخرى اللهم الا اذا احتسبنا وقت قدوم القيصرة الى القرم ، فقد كان إذ ذاك يرتدي ثوباً خفيفاً قوزاقياً ازرق ولكن هذا الوقت من الصعب على أيما احد في القرية تذكّره ، اما هذا الثوب فيختزنه هو في صندوق مقفول والرئيس أرمل ، ولكن تعيش لديه عديلته ، التي تعدّ له الغداء والعشاء ، تغسل المقاعد وتنظف البيت وتجلوه ، وتحيك له قمصانه ، وتدبر كل شؤون البيت ويقولون في القرية انها لا تمت بأيّما صلة قرابة له ، ولكن ها قد رأينا ان لدى العمدة كثيراً من الخصوم الذين يسرهم اطلاق أيّما فرية وعلى كل حال ، فلربما كان سبب ذلك ان العديلة ما كانت لترتاح قطّ إذا ما مضى العمدة الى الحقل الملئ بالحاصدات ، او الى أيما قوزاقي كانت لديه ابنة شابة والعمدة أعور ، ولكن في مقابل ذلك فان عينه الوحيدة الشريرة كانت تستطيع ان تلمح من بعيد القروية الحسناء وعلى أية حال ، فانه لن

ينظر الى الوجه المليح ، قبل ان يتأكد جيداً ما اذا كانت عديلته تنظر من جهة ما ولكننا قد تحدثنا بكل ما يلزم تقريباً عن العمدة ، اما كالينيك المخمور فلم يفلح بعد في بلوغ منتصف الطريق حتى كان قد اشبع العمدة طويلاً ، كافة الكلمات المنتقاة في السب والشتم والتوبيخ ، مما امكن ان يقع على لسانه المتذمر الشاتم بتراخ ودون اتساق

— ٣ —

الغريم غير المتوقع . المؤامرة

— كلا ايها الفتيان ، كلا ، لا أريد ! أية عربدة هذه ! كيف لا يضجركم الطيش والرعونة ! فمن دون هذا قد ذاع صيتنا كمعربدين لا يعرف الا الله من أمثالنا الأفضل ان ترقدوا ! — هكذا قال لفكو لصحابه المعربدين ، الذين كانوا يحرضونه على القيام بمختلف الالاعيب . — وداعاً ، ايها الاخوة ! ليلتكم سعيدة ! — وانفصل عنهم بخطىً سريعة في الشارع

« أتنام غالتي ذات العيون الرائعة ؟ » — فكّر هو ، مقترباً من البيت ذي اشجار الكرز ، الذي مرّ

بنا ذكره وفي وسط الصمت ترامى الى الاسماع لغط هادئ فتوقف لفكو وقد تراءى بلونه الابيض من بين اشجار قميص ما «ماذا يعني هذا ؟» ــ فكر لفكو ، متسللاً أقرب فاقرب واختفى وراء شجرة وفي نور القمر تألق وجه الفتاة الواقفة أمامه هذه هي غالا ! ولكن مَن هذا الشخص الطوال ، الواقف وظهره اليه ؟ عبثاً حدق هو فقد غطّاه الظلّ من أخمص القدمين الى قمة الرأس وفقط من الأمام كان الضوء ينوشه قليلا بيد ان أتفه خطوة الى الامام من جانب لفكو كانت تعرّضه لمغبّة أن يكون مكشوفاً واتّكأ برفق الى الشجرة ، وقرّر ان يبقى في مكانه وكانت الفتاة قد نطقت باسمه بوضوح

ــ لفكو ؟ لفكو هذا لا يزال رضيعا ! ــ قال الرجل الطوال بملء صوته الأجشّ ــ إن التقيته يوماً ما لديك فاني سأجز ناصيته

ــ وددت ان أعرف أي ماكر هذا الذي يفتخر بجز ناصيتي ! ــ تمتم لفكو بهدوء واشرأب برقبته ، محاولاً أن لا يتغافل ولو عن كلمة واحدة ولكن الرجل الغريب واصل كلامه بهدوء بحيث لم يعد ممكناً سماعه .

ــ كيف لا تخجل ! ــ قالت غالا عند نهاية حديثه ــ إنك تكذب إنك تخدعني ، إنك لا تحبّني ! انني لا أصدق قط أنك تحبّني !

ــ أعرف ! ــ واصل الرجل الطويل ــ لقد حدّثك لفكو بالسفاسف وأدار رأسك (وهنا لاح للفتى ان صوت الغريب ليس غير معروف تماماً ، وكما لو انه قد سمعه وقتاً من الاوقات) ولكنني سأجعل لفكو يعرفني ، سألقنه درساً ــ واصل الرجل الغريب كلامه بمثل ما جرى عليه ــ إنه يعتقد انني لا أرى كل دسائسه ومكائده الغرامية ! فليجرّب ، ابن الكلب ، أية لكمات لديّ !

وعند هذه الكلمات لم يعد لفكو يستطيع كبح جماح غضبه واهوى بيده بكل قوته ، مقترباً ثلاث خطوات منه ليكيل للغريب صفعة ، لن يستطيع هذا معها برغم قوته الظاهرية الصمود في مكانه ، ولكن في هذا الوقت سقط النور على وجه الغريب ، فتخشّب لفكو إذ رأى أمامه أنما قد وقف أبوه ذاته فلم يكن الهزّ غير الارادي لرأسه والصفير الخافت من خلال الاسنان ، لم يكن الا هذا تعبير لفكو عن دهشته وانبهاته وسُمع جانباً حفيف وخشخشة وطارت غالا الى البيت عجلة وصفقت الباب وراءها .

ــ وداعاً ، يا غالا ! ــ صرخ في هذا الوقت أحد الفتيان ، متسللاً الى العمدة ومعانقاً اياه ، غير انه انتكص الى الوراء مرتعباً ، إذ اصطدم بالشوارب الجاسية

ــ وداعاً ، أيتها الحسناء ! ــ صرخ آخر ، ولكنه طار في هذه المرة مندفعاً الى الخلف كالسهم ، جرّاء الدفعة الثقيلة للعمدة

ــ وداعاً ، وداعاً ، يا غالا ! ــ صرخ عدة فتيان ، متعلقين برقبته

ــ اغربوا ، أيها الاشقياء اللعناء ! ــ صرخ العمدة ، متملصاً ، وضاربا الارض بقدميه . ــ أية غالا يمكن ان أكون انا لكم ! اذهبوا الى المشنقة فى اثار ابائكم ، يا ابناء الشياطين ! لقد انقضّوا كالذباب على العسل ! سألقنكم درساً ، وسترون ما انا من غالا !

ــ العمدة ! العمدة ! إنه العمدة ! ــ صرخ الفتيان ، وعدوا في كل ناحية

ــ هكذا إذن هو أبي ! ــ قال لفكو ، صاحيا من ذهوله ، ومتطلّعاً في اثر العمدة الماضي ، وهو يدمدم بالسباب . ــ ها هي اذن الاعيبك ! رائع ! اما

انا فأسير العجب والدهشة   وأقتل الوقت تفكيراً ، ماذا يعني كونه يتظاهر بالصمم   حين أتحدث عن القضية   مهلاً اذن   ايها العجوز ، ستعرف ماذا يعني التسكع تحت نوافذ الفتيات الشابات وستعرف ماذا يعني اصطياد خطيبات الآخرين ! هيه ، ايها الفتيان   تعالوا هنا   هنا ! ـ صرخ هو ، ملوّحاً بيده الى الفتيان ، الذين اجتمعوا في حشدهم من جديد . ـ اخطوا الى هنا ! لقد نصحتكم بالمضيّ للنوم   اما الآن فقد غيرت رأيي   ومستعدّ الآن ان أقضي الليلة بطولها لاهياً معكم

ـ هذا أمر لا بأس به ! ـ قال فتى بدين عريض الكتفين ، يعد اللاهي والطائش الأول في القرية . ـ طوال الوقت يبدو لي أمراً لا يطاق   حين لا يقدر لي اللهو كما ينبغي ، وحين لا يقيظ لي تدبير المقالب طول الوقت يظلّ الأمر في حال كأنه شيء ما لا يكفي هنا   كانني أضعت قبعتي أو غليوني   وبكلمة كانني غير قوزاقي   اجل هكذا ، والا فلا

ـ أموافقون أنتم على إغاضة العمدة كما يجب ، اليوم ؟

ـ العمدة ؟

ــ اجل ، العمدة والا فماذا يفكر هو في الواقع ؟ إنه يقودنا كما لو انه قائد واكثر من أنه يهتضمنا كخدّام وأدهى من هذا فانه يغازل فتياتنا فاني اعتقد انه لا توجد في القرية كلها فتاة جميلة لم يحم العمدة حولها

ــ الأمر كذلك كذلك ــ صرخ كافة الفتيان بصوت واحد

ــ أي خدّام نحن ، ايها الاخوة ؟ ألسنا من ذات السلالة ، كما هو ؟ اننا ، والحمد لله ، قوزاق أحرار ! سنريه ايها الفتيان ، اننا قوزاق أحرار !

ــ سنريه ! ــ صرخ الفتيان ــ ما دمنا قد اخترنا العمدة فدعونا اذن لا نخطىء الكاتب أيضاً !

ــ لن نخطىء الكاتب ! اما لدي فكأن ذلك عمداً نشأت في رأسي أغنية مجيدة عن العمدة هلمّوا بنا ، سأعلمكم إياها ، ــ واصل لفكو ، ضارباً بيده على اوتار الباندورا ــ اجل اسمعوا ، تنكّروا ، كل بما يستطيع !

ــ لك اللهو ، أيها القوزاقي ! ــ قال الشقي القويّ الاصلاب ضارباً قدميه واحدة بأخرى ومصفقاً بيديه . ــ أي رخاء ! أية حرية ! ما إن تبدأ

العبث — حتى يلوح ، كأنك تتذكّر الأعوام الماضية الحب والحرية في القلب ، اما الروح فكأنها في الجنّة . هيا ، ايها الفتيان ، هيا ، فَلْنَلهُ !

ومرق الحشد صاخبا في الشوارع ورفعت العجائز الورعات، الموقظات بالصراخ ، الشبابيك ورسمن علامة الصليب بأيد نعسة، قائلات : «حسنا، الآن يلهو الفتيان !»

— ٤ —

الفتيان يلهون

كان بيت واحد فقط يضوّئ في نهاية الشارع كان هذا هو بيت العمدة وكان العمدة قد أنهى منذ أمد طويل عشاءه ، ولكان بلا شك قد غفا منذ زمن طويل ، لو لا ان لديه ضيفاً في هذا الوقت — هو مقطّر مسكّرات ارسله الملاك الذي يملك قطاعا غير كبير من الأرض بين القوزاق الأحرار لاجل بناء منشآت لتقطير الخمر وفي أوقر مكان في البيت في الزاوية تحت الايقونات جلس الضيف — قصير القامة ، بديناً بعينين صغيرتين ضاحكتين أبداً يلوح ، انه قد كُتب فيهما ذلك السرور ، الذي كان يدخن

به غليونه القصير ، باصقاً في كل دقيقة وضاغطاً باصبعه على ما يتطاير من التبغ من الغليون ، متحولاً الى رماد وتعاظمت سحب الدخان فوقه بسرعة، مغطيةً إياه بضباب أزرق ولاح كما لو ان مدخنة عريضة لمنشأة تقطير خمور ، قد سئمت الجلوس على سطحها ، وقرّرت التنزه ، فجلست بوقار إزاء المنضدة في بيت العمدة وقد انتفش تحت أنفه شاربان كثان ، قصيران ولكنهما لمعا بخفوت ، عبر دخان التبغ ، فبديا كما لو انهما فأرة اصطادها المقطّر وأمسك بها في فمه ، مقوضاً بذلك احتكار قط العنبر وجلس العمدة ، كمضيف ، في قميصه وحده وسراويله من التيل. وبدأت عينه النسرية ، مثل شمس غاربة ، تضيق شيئاً فشيئاً وتطرف وعند نهاية المنضدة كان أحد القرويين يدخن غليوناً وهذا هو واحد من افراد البوليس الريفي « ديسياتسكي »* الذين يكونون فرقة الرئيس وقد جلس في ردائه الطويل اجلالاً للمضيف.

ــ أقريباً ، تعتقد ، ــ قال العمدة مخاطباً

* ديسياتسكي هو الفلاح المنتخب للقيام بوظائف البوليس في الريف ، في العهد القيصرى المترجم .

المقطر ، وراسما علامة الصليب على فمه المتثائب ، — انك ستقيم مقطرتك ؟

— لعلنا بعون الله سنقطر في هذا الخريف . أراهن اننا سنقوم بذلك في عيد بكروف في الخريف ، وبحيث ان السيد العمدة سيترنّح من السكر في الطريق

وعند تفوهه بهذه الكلمات ، اختفت عيناه ، وبدلاً منهما امتدت خطوط بلغت الآذان نفسها ، وجعل الجذع كله يهتز من الضحك ، وتركت شفتاه المبتهجتان ، للحظة الغليون الداخن

— فليقدر الله ، — قال الرئيس ، معبراً في وجهه عن شيء يشبه الابتسامة . — والآن والحمد لله ، انتشرت مقاطر الخمور قليلا اما في الزمن القديم ، وحين ودعت انا القيصرة في طريق بيرياسلافسكايا ولا زال المرحوم بيزبورودكو

— طيب يا نسيبي ، تذكرت ذلك الوقت ! فآنذاك في المسافة ما بين كريمينتشوغ حتى رومني نفسها لم تكن الا مقطرتان اما الآن بالمناسبة هل سمعت انت بما ابتدعه الالمان الملاعين ؟ يقولون قريباً سيقطرون ليس بالأحطاب ، مثل كل عباد الله

الشرفاء وإنما ببخار شيطاني ما . — وتطلع المقطر قائلا هذه الكلمات في تأمل الى المنضدة والى يديه معقودتين عليها — كيف بالبخار اقسم بالله لا أفهم !

— أيّ حمقى ، عفوك يا رب ، هؤلاء الالمان ! — قال العمدة . — لَكُنت قد جلدتهم بالمقرعة ابناء الكلاب ! هل سُمع يوماً ما انه بالبخار يمكن غلي شيء ما ! ولذلك فمن غير الممكن رفع ملعقة بحساء البورش الى الفم دون احراق الشفة ، وهذا بدلا من فرخ خنزير

— وأنت أيها النسيب ، — تكلمت العديلة الجالسة على الاريكة واللامة قدميها — أستظلّ طوال الوقت تعيش لدينا دون زوجة ؟

— لأي شيء تلزمني ؟ قضية اخرى لو كان أمر ما ذو جدوى

— أتريد ان تقول انها ليست جميلة ؟ — سأله العمدة مسمّراً فيه عينيه

— أي جمال فيها ! شمطاء كالشيطان الوجه كله في الغضون ، كما لو انه حافظة نقود مجعّدة تماماً — واهتزّت هيئة المقطّر القصيرة من الضحك المدوّي .

وفي هذا الوقت جعل شيء ما يعيّث وراء الباب وما لبث الباب ان انفتح ودلف قروي ، لم ينزع قبعته ، وجعل يتطلع الى السقف في وسط البيت فاغراً فاه ، كما لو انه يتأمّل كان هذا هو من عرفناه سابقاً ، كالينيك

ـ ها اني عدت الى البيت ! ـ قال هو جالساً على الدكة لدى الباب ، دون ان يعير انتباهاً الى الجالسين . ـ أترى كيف مَدّ الشيطان ابن الشيطان ، الطريق ! تسير وتسير ولا نهاية ! وكأن قدميك قد حطمهما أحد ناوليني ، ايتها المرأة ، المعطف من صوف الضأن لن آتي اليك الى المدفأة أقسم بالله ، لن آتي قدماي توجعانني ! اجلبيه ، انه هناك بالقرب من زاوية الايقونات ؛ فقط حاظري أن تقلبي البرمة بالتبغ المفروم أو لا ، لا تلمسيه ، لا تلمسيه ! لعلك اليوم مخمورة دعيه ساجلبه بنفسي

ونهض كالينيك شيئاً ولكن قوة لا تُقهر سمرته الى الدكة

ـ لهذا أحبه ، ـ قال الرئيس ، ـ جاء الى بيت الغير ، وجعل يتصرّف به ، كما لو انه في بيته ! فلنودعه بالتي هي احسن !

ــ دعه ، أيها النسيب ، يرتاح ! ــ قال المقطّر ، ممسكاً به من يده . ــ إنه إنسان نافع فليزدد عدد هؤلاء ــ إذن لمضت أمور مقطرتنا على نحو رائع...

وعلى أية حال فليست طيبة القلب هي التي استلّت منه هذه الكلمات انما المقطّر كان يؤمن بكل فأل ، والآن فان طرد شخص كان قد جلس على الدكة ، كان يعني لديه استحضار مصيبة

ــ كما لو ان الشيخوخة تقترب ! ــ جعل كالينيك يدمدم ، مضطجعاً على الدكة . ــ لا ضير حتى لوقيل مخمور ، ولكن لا ، إني غير مخمور قسماً بالله ، غير مخمور ! لماذا عليّ ان اكذب ! اني لمستعد ان أعلن ذلك حتى للعمدة نفسه ثم مَن هو العمدة بالنسبة لي ؟ ليته هلك ، ابن الكلب ! بصاقي عليه ! ليت عربة داست على احشائه ، هو الشيطان الأعور ! لماذا هو يسكب الماء البارد على الناس في الصقيع

ــ عجيب ! لم يكتف الخنزير باقتحام البيت بل وجعل ينكش المنضدة بأظافره ، ــ قال العمدة ناهضاً بحنق من مكانه ، ولكن طار ، في هذا الوقت ، تحت قدميه ، حجر ثقيل كان قد كسر زجاج الشباك ،

وهشمه تهشيماً فتوقف العمدة عن الكلام — لو عرفت — قال هو رافعاً الحجر ، — أي احمق جدير المشنقة قذفه إذن لعلّمته كيف يكون الرمي ! يا للألاعيب ! — استمر هو ناظراً الى الحجر الذي في يده نظرة ملتهبة — ليته اختنق بهذا الحجر...

— مهلا ، مهلا ! فليحرسك الله أيها النسيب !

- أمسك به المقطّر شاحباً — فليحرسك الله في هذا العالم وفي العالم الآخر اياك ان تبارك أحداً ما بمثل هذا الكلام !

— ها قد ظهر محام ! دعه يهلك !

— لا يا ايها النسيب حتى لا تفكر بذلك ! لعلك لا تعرف ما الذي دهى حماتي ؟

— دهى حماتك ؟

— اجل ، دهى حماتي مساء ، لعله قبل هذا الوقت ببعض الشيء ، جلسنا للعشاء الحماة المرحومة ، والحمو المرحوم ، وشغيل مستأجَر ، وشغيلة مستأجَرة ، واطفال لعلهم خمسة وصبّت الحماة بعضاً من الغالوشكي من قِدر كبير في صحن كيلا يكون حاراً جداً وكانوا جميعاً قد جاءوا بعد العمل ، ولم يريدوا الانتظار ريثما تبرد الغالوشكي فتناولوها بواسطة

عيدان خشبية طويلة ، وابتدأوا يأكلون وفجأة ، جاء شخص لا يعرف سوى الله من أين هبط ، يلتمس أن يسمحوا له بالجلوس الى مائدة الطعام كيف لا يطعم إنسان جائع ! فاعطوه ايضاً عوداً للأكل شي ء واحد — ان الضيف جعل يلتهم الطعام مثلما تلتهم البقرة العلف وريثما تناول أهل البيت غالوشكة واحدة ، وأفرغوا العيدان لتناول أخرى كان قعر الصحن صقيلا مثل سقالة سيد غني فصبّت الحماة مرة اخرى، متصورةً ان الضيف قد شبع ، وانه سيأكل أقلّ ولكن شيئاً من قبيل ذلك لم يحدث فان الضيف جعل يأكل بسرعة وشهية متزايدة فاقت ما سبق ، وافرغ صحناً آخر « ليتك غصصت بهذه الغالوشكي ! »

— فكّرت الحماة الجائعة ، وما إنْ فكّرت الحماة بهذا الشكل ، حتى غص الضيف فجأة واختنق فاندفعوا اليه — فاذا به قد أسلم الروح

— هذا ما يستحقّه النهم اللعين ! — قال العمدة

— ليت الامر كان كذلك ، لكن الأمر لم ينته بالشكل المطلوب فان الحماة لم تعرف الطمأنينة منذ ذلك الوقت . فما إن يجنّ الليل ، حتى يمثل الميت

ينجر اللعين فيقعد على المدخنة ويمسك بالغالوشكة بأسنانه في النهار هدوء وسكينة وما مِن معكّر ، ولكن ما إن يهبط الظلام ـ وتنظر الى السطح حتى تجده قد امتطى المدخنة ، ابن الكلب

ـ والغالوشكة بأسنانه ؟

ـ الغالوشكة بأسنانه

ـ غريب ، أيها النسيب ! لقد سمعت بشيء ما يماثل هذا حدث مع المرحومة القيصرة

وهنا توقف الرئيس فقد ترامت الى الآذان دبكة الراقصين ، وضجّة تحت الشباك وفي البداية كانت أوتار الباندورا تدوي بهدوء وتوحّد صوت المغني معها وما لبثت الأوتار ان دوّت على نحو أقوى ، وجعلت بعض الأصوات تشتد وضجّت الاغنية كالاعصار

أيها الفتيان ، هل سمعتم
ان رؤوسنا فذة !
ففي رأس الرئيس الأعور
قد تفككت الاوصال
فطوق ، يا صانع البراميل هذا الرأس
بالاطارات الفولاذية !
وسلط ، يا صانع البراميل ، عليه

مطارقك ! مطارقك
ان رئيسنا أشيب وأعور
عجوز مثل الشيطان ، لكن أى أحمق هو !
نزواني وشبق !
يحوم وراء الفتيات الاحمق ، الاحمق
كيف تجرؤ على منافسة الفتيان !
انه ليلزمك ان تلقى في التابوت
والضرب في الشاربين ، وفي الرقبة !
وفي الناصية ! في الناصية !

ـ اغنية رائعة أيها النسيب ! ـ قال المقطر حانياً رأسه جانباً بعض الشيء وملتفتاً الى الرئيس ، المتخشّب من فرط عجبه واندهاشه بمرأى مثل هذه الجسارة . ـ رائعة ! السيئ فقط هو انهم يذكرون الرئيس بكلمات ليست حميدة ـ ووضع ثانية يديه على المائدة بنوع من الاستلطاف الحلو في العينين ، مستعداً لسماع المزيد ، فقد كانت قد دوت تحت النافذة قهقهة وصراخ «من جديد ! أعد ! » بـيد ان بمكنة العين الثاقبة ان ترى الآن انه ليس الاندهاش هو الذي سمّر الرئيس طويلاً في مكان واحد فليس الا القطّ العجوز المجرّب يسمح أحياناً للفأرة غير المجرّبة بالعدو حول ذيله ، فيما يضع اثناء ذلك ، خطّته

سريعاً ، ليقطع عليها الطريق الى جحرها ففيما كانت العين الوحيدة للرئيس لا تزال مسمرة على الشباك ، كانت يده ، وقد اعطت إشارة لرجل البوليس الريفي ، قد ظلّت ممسكة بالمقبض الخشبي للباب ، وفجأة علا صراخ في الشارع وكان المقطّر ، الذي بالاضافة الى الكثير من صفاته الحسنة قد اضاف صفة الفضول ايضاً ، قد ملأ بالتبغ غليونه ، وعدا الى الشارع غير ان العابثين تفرّقوا

« كلا ، انك لن تُفلت مني ! — صرخ الرئيس ، وهو يجرّ بيد شخص في فروة غنم ذات صوف أسود منقلبة ظهرا لبطن اما المقطّر فقد عدا ، منتهزاً الفرصة ، ليتطلع الى وجه معكّر السَكينة هذا لكنه تخلّف في الوراء بسبب التهيّب إذ رأى لحيةً طويلة ووجهاً سمجاً ملطخا بالالوان « كلا إنك لن تُلفت مني ! » — صرخ الرئيس مواصلاً جر أسيره مباشرة في المدخل ، فلم يُبد أية مقاومة ، وتبعه بهدوء ، كما لو انه يمضي الى بيته

— يا كاربو ، افتح العنبر! — قال الرئيس الى رجل البوليس الريفي — سنزجّ به في الحجرة المظلمة! وسنوقظ الكاتب بعدئذ ونجمع رجال البوليس ،

ونصيد كل هؤلاء الاشقياء ، ونتخذ اليوم بالذات اجراءات للتنكيل بهم وتأديبهم

وأخذ رجل البوليس يجلجل بالقفل الصغير المعلق في المدخل ، وفتح الحجرة وفي هذا الوقت بالذات ، تملص الاسير ، منتهزاً ظلمة المدخل ، بقوة خارقة من يديه

ــ الى أين ؟ ــ صرخ الرئيس ، مختطفاً إياه على نحو أقوى من ياقته

ــ دعني ، انه أنا .ــ سُمع صوت رقيق

ــ لن يجدي ! لن يجدي ، أيها الأخ ! بامكانك ان تولول حتى ولو شيطاناً ، وليس امرأة فقط غير انك لن تخدعني ! ــ ودفع به الى الحجرة المظلمة بذلك الشكل ، بحيث جعل الأسير البائس يئن واقعاً على الارض وتوجه الرئيس يصحبه رجل البوليس إلى بيت الكاتب ، وتبعهما المقطّر ، على الاثر ، داخناً مثل باخرة

ومضوا ثلاثتهم جميعاً في تأمل ، مطرقين الرؤوس ، وفجأة في المنعطف ، الى زقاق مظلم ، صرخوا مرة واحدة من ضربة قوية في الجباه ، ودوى مثل هذا الصراخ

جواباً لهم   اما الرئيس الذي كان قد ضيّق عينه ، فقد رأى باندهاش الكاتب مع رجلَي بوليس

ـ انا قادم اليك ، أيها السيد الكاتب

ـ وأنا تحت تصرّفك ، أيها السيد الرئيس

ـ لقد وقعت أعاجيب ، ايها السيد الكاتب

ـ أمور عجيبة ، أيها السيد الرئيس

ـ وماذا ؟

ـ ان الفتيان قد جن جنونهم ! يعيثون فساداً حشوداً كاملة في الشوارع   ينعتون حضرتك بأسوأ الكلمات   وبكلمة ، فالقول مخجل ، فانه لحتى السكّير الثمل يخشى النطق بها بلسانه العديم التقوى (وكان الكاتب النحيف ، في السراويل المبرقشة والصديري بلون حمائر الخمور ، كان يشفع كل ما قاله بمدّ رقبته الى الأمام وارجاعها في الحال الى وضعها السابق)   لقد غفوت قليلاً ، لكن الاشقياء اللعناء نهضوني من الفراش بأغانيهم المشينة وضجّتهم ! وكنت أريد توبيخهم وتأديبهم كما ينبغي ، ولكن ريثما ارتديت السراويل والصديري ، كان الجميع قد فرّوا كيفما اتفق   بيد ان اهم واحد منهم لم يفلت منا إنه الآن يغني في ذلك البيت   حيث يُحتجز الموقوفون .

لقد تاقت روحي أشدّ التوق للتعرّف على هذا الطير ، لكن وجهه البشع مصبوغ بالسخام ، كما لدى ذلك الشيطان الذي يصوغ المسامير للآثمين

– وماذا يرتدي ، أيها السيد الكاتب ؟

– ان ابن الكلب يرتدي فروة غنم سوداء منقلبة ظهراً لبطن أيها السيد الرئيس

– وانت لا تكذب أيها السيد الكاتب ؟ ماذا لو كان هذا الشقي يجلس الآن لديّ في الحجرة المظلمة ؟

– كلا ، أيها السيد الرئيس إنك نفسك – دع هذا الكلام لا يثير غضبك – قد جانبت الحقيقة شيئا

– ضَوِّئ لي ! سنراه !

وجلبوا ما صنعوا به ضوءاً ، وفتحوا الباب ، وتأوّه الرئيس من الدهشة ، إذ رأى أمامه عديلته

– ألا فلتقل لي ، من فضلك ، – بمثل هذه الكلمات بدأت هي مخاطبته – أفلم تفقد رشدك تماماً بعد ؟ هل كان في قحفتك العوراء ولو مثقال واحد من المخ حين دفعتني الى الغرفة المظلمة ؟ ان من حسن الحظ ان رأسي لم يصطدم بالخطاف أفلم أهتف بك ،

حقا ، ان هذا هو انا ؟ اختطفني الدب اللعين ، بمخالبه الحديدية بل وجعل يدفعني ! ليت الشياطين تدفعك في العالم الآخر !

وصرخت بالكلمات الاخيرة وراء الباب في الشارع . حيث انطلقت لبعض أغراضها

اجل ، اني أرى أنك كنتِ أنت ! ــ قال الرئيس وقد صحا . ــ ماذا تقول أيها السيد الكاتب أليس ماكر هذا الشقى اللعين ؟

ــ ماكر ، أيها السيد الرئيس

ــ أفلم يؤن الأوان لتأديب كل هؤلاء الشبان الطائشين جيداً ، واجبارهم على الاشتغال باعمالهم النافعة ؟

ــ آن الأوان لذلك منذ زمن بعيد ، بعيد أيها السيد الرئيس

ــ إنهم حمقى أدخلوا في رؤوسهم باسم أي شيطان ؟ لقد ترامى الي صراخ العديلة في الشارع ... انهم حمقى أدخلوا في رؤوسهم فكرة انني معادل لهم انهم يعتقدون انني أخ لهم انني مجرد قوزاقي بسيط ! ــ ان السعال غير الكبير الذي أعقب هذا الكلام وتسمير العين في نظرة اشمخرار من علٍ

بما حواليه ان هذا قد منح الفرصة للمرء ليحزر ان الرئيس يتهيّأ ليقول شيئاً ما مهماً . — في الف وكذا وكذا من السنين اقتلني ولا اتذكرها بالضبط ، حين أعطي الى القوميسار * أمر بان يُنتخب من القوزاق ذلك الذي هو أفطن الجميع اوه ! — هذه « الاوه ! نطق بها الرئيس رافعاً اصبعه الى اعلى — أذكى الجميع ! لمرافقة القيصرة ، وأنا آنذاك

— علامَ الكلام هنا ! إن هذا ليعرفه كل أحد ، أيها السيد الرئيس ان الجميع يعرفون كيف استحققت انت تكريم القيصرة الا فلتعترف الآن ان كلامي قد صحّ بانك قد أثمت شيئا حين قلت انك قد قبضت على هذا الشقي في الفروة المنقلبة ظهرا ببطن اما بخصوص هذا الشقى فى الفروة المنقلبة ظهرا ببطن ، فينبغي تقييده بالاغلال ، كمثال للجميع ، ومعاقبته بصورة نموذجية فليعرفوا : ماذا تعني السلطة ! من الذي نصب العمدة ، إن لم يكن القيصر ؟ وبعدئذ يأتي دور الفتيان الآخرين إنني لم أنس بعد كيف

---

* القوميسار — الشخص المسؤول عن جمع الضرائب ورعاية البوليس الريفي ، والطرق فى روسيا القيصرية. المترجم

استاق الاشقياء الملاعين الى الحقل قطيعاً من الخنازير ، التي أكلت كرنبي وخياري انني لم أنس بعد كيف رفض ابناء الشياطين درس حبوبي ، انني لم أنس بعد ولكنهم توارروا ، وانه ليلزمني بالتأكيد ان اعرف من هو هذا الماكر في الفروة المنقلبة ظهراً ببطن

– يبدو ان هذا هو طير حثيث نشناش ! – قال المقطّر ، الذي كان خدّاه قد غاصا في الدخان دون انقطاع ، طوال هذا الحديث ، مثل مدفع الحصار ، اما شفتاه ، وقد أمسكتا بالغليون القصير ، فقد نفثتا نافورة كاملة من الدخان . – وعلى أية حال ، فليس سيئاً ، الاحتفاظ بهذا الانسان في المقطرة ، بل الأفضل تعليقه على قمة شجرة حور ، بدلاً من شمعدان المصابيح

ولاح له ان مثل هذا التنكيت ليس غبياً ، فقرّر ، دون ان ينتظر استحسان الآخرين ، أن يكافيء نفسه بضحك أجش

وعند هذا الوقت باتوا قريبين من بيت صغير ، هاوٍ تقريباً في الارض ، وازداد فضولهم جميعاً فاحتشدوا عند الباب واستخرج الكاتب مفتاحاً ، جلجل به حول القفل ، ولكن هذا المفتاح كان مفتاح صندوقه . وتعاظم نفاد الصبر وابتدأ يصبّ الوان

الشتائم والسباب ، داساً يده بعصبية ، دون ان يعثر عليه « هنا ! » ــ قال هو ، أخيراً ، منحنياً ومستخرجاً إياه من أعماق جيبه الواسع ، الذي زوّدت به سراويله الخشنة الملونة وبدا ، عند نطق هذه الكلمة ، كما لو ان قلوب صحبه الابطال قد التحمت في قلب واحد ، وان هذا القلب الكبير كان يخفق بتلك القوة ، بحيث ان خفقه غير المنتظم لم يطغ عليه حتى القفل المقعقع بشدة وانفتحت الابواب ، و... أصبح الرئيس شاحباً كالموت ، أما المقطّر فقد أحسّ بالبرد يسرى فى جسده ، ولاح كما لو ان شعره يريد الطيران نحو السماء ، وتجسّم الرعب في وجه الكاتب ، اما رجال البوليس الريفي فقد التصقوا بالارض ، ولم يعد بوسعهم اغلاق افواهم الفاغرة فقد كانت العديلة بالذات هي التي تقف أمامهم !

وعلى أية حال ، فانها ، هي المندهشة ليس أقل منهم بحال صحت شيئاً ، وقامت بحركة للاقتراب منهم

ـــ قفي ! ــ صرخ العمدة بصوت وحشي ، وأغلق الباب وراءه . ــ أيها السادة ! إن هذا هو الشيطان بعينه ! ــ استمر هو . ــ النار ، أسرعوا بالنار !

لا أبخل حتى بالبيت الحكومى ! احرقها ، احرقها كيلا يبقى شيء من عظامها الشيطانية على وجه الارض !

وصرخت العديلة من فرط رعبها سامعةً هذا الأمر الرهيب

— ما دهاكم ، أيها الاخوة ! — قال المقطّر — ان الشيب ، والحمد لله قد وخطكم — ولكنكم حتى الآن لم تعقلوا ان الساحرة لا تحترق بمجرد النار وحدها ! ان نار الغليون فقط هي التي تستطيع ان تحرق الشيطان مهلاً سأدبّر الآن كل شيء !

ورمى ، إذ قال هذه الكلمات ، بالجمر المحترق من الغليون في حزمة القش ، وجعل ينفخ فيه واستحوذ اليأس في هذا الوقت على روح العديلة البائسة ، وجعلت ترجوهم أحر الرجاء لتصرفهم عن قرارهم هذا

— على مهلكم ايها الاخوة ! لماذا تقترفون الاثم عبثاً ، لعلها ليست بالشيطان ، — قال الكاتب . — اذا كان هو ، اي ذلك الذي يجلس هناك نفسه ، موافقاً على ان يرسم علامة الصليب ، فان ذلك شهادة حقة بانه ليس بالشيطان

وحظى الاقتراح بالتأييد

— حذار ، أيها الشيطان ! — واصل الكاتب

ملصقاً شفتيه بالثقب ما بين الابواب – إن لم تتحرك من مكانك سنفتح الباب

وانفتحت الباب

– ارسمي علامة الصليب ! – قال العمدة ، ناظراً الى وراء وكأنه يختار لنفسه مكاناً أميناً في حالة التقهقر

ورسمت العديلة علامة الصليب

– أي شيطان ! هذه هي العديلة بالذات

– أية قوة شيطانية قذفت بك أيتها العرابة الوقورة ، في هذا البيت الحقير ؟

وحدثت العديلة وهي تنشج كيف اختطفها الفتيان في احضانهم في الشارع وبرغم مقاومتها ، دفعوها الى الشباك العريض للبيت وقفلوه بالمزلاج ونظر الكاتب فاذا بالعروة عند المزلاج العريض مقطوعة وهو مثبت فقط الى الاعلى بعارضة خشبية

– ويحك أيها الشيطان الاعور ! – صرخت هي مقتربة من الرئيس ، الذي انتكص الى الوراء ، وكان لا يزال يواصل قياسها بعينه – إنني أدرك كنه لعبتك لقد أردت وسررت جدا لاحراقي كي يتيسر لك قدر اكبر من الحرية للتحيم وراء الفتيات ،

وكيلا يرى أحد كيف يتحامق الجدّ الأشيب إنك تتصور أنني لا أدري عم تحدّثت أنت هذا المساء مع غالا ؟ اوه ، إنني أعرف كل شيء ان من الصعب خدعي وليس رأسك الأجوف لذلك بأهل انني صابرة منذ زمن طويل ولكن لا تعتب بعد هذا

وإذ نطقت بهذا رفعت قبضة يدها ، ومضت بسرعة ، مخلفةً العمدة في ذهول مطبق كلا ، ليس عبثاً ان الشيطان تدخّل هنا — فالأمر جدّ » — فكر هو ، هارشاً رأسه بقوة

— أمسكناه ! — صرخ رجال البوليس الريفى الذين جاؤوا في هذا الوقت

— من أمسكتم ؟ — سأل العمدة

— الشيطان في فروته المقلوبة على بطانتها

— أروني إياه ! — صرخ العمدة مختطفاً بيدي الأسير المجتلب — لقد جُننتم إن هذا هو كالينيك السكران !

— أي ضياع ! كان في أيدينا أيها السيد العمدة ! — أجاب رجال البوليس — لقد أحاط بنا الفتيان اللعناء في الزقاق وجعلوا يرقصون ، ويتصايحون ، ويتقيأون ، ويخرجون ألسنتهم ،

ويجرونه من ايدينا ــ سحقاً لهم ! اما كيف وقعنا على هذا الغراب بدلاً منه فالله وحده يعلم !

ان كافة الناس وانا سلطتي ويخضعون لها ، ــ قال العمدة ، ــ بأن تمسكوا في هذه اللحظة ذلك الشقي ، والا فامسكوا كل من تجدونه في الشارع واجلبوه اليّ للتنكيل به !

ــ رحمتك ايها السيد العمدة ! ــ صرخ البعض منحنين الى الاقدام ــ لو رأيت أية أبواز ووجوه قبيحة فليمحقنا الله لقد ولدنا وتعمّدنا و لم نر قط مثل هذه الأوجه الدميمة ليس من الصعب ان تحل المصيبة ، ايها السيد العمدة ، فبامكانهم إرعاب الانسان الطيب بشكل لن تقدم بعده حتى النساء على بث الفتنة والرعب والخوف

ــ سألقنكم ما هى الفتنة ! ما دهاكم ؟ ألا تريدون الاطاعة ؟ ام انكم ، بالأحرى ، تؤيدونهم ؟ هل أنتم متمردون ؟ ما هذا ؟ ما هذا ؟ إنكم تقومون بالشغب وقطع الطرق ! أنتم سأبلغ القوميسار ! في هذه الساعة ! أتسمعون في هذه الساعة اجروا ، طيروا كالطير ! ليتني لا أراكم ! ليتني

وتفرق الجميع

الغريقة

اقترب المذنب في كل هذا الهرج والمرج ، غير مهتم في شيء ودون ان يلقي بالاً الى المطاردين اقترب ببطء من البيت القديم والبركة ولا يلزم فيما أعتقد ان يقال ان هذا كان هو لفكو كانت فروته السوداء مفتوحة الازرار اما قبعته فقد امسك بها في يده وكان يتصبب عرقا وبشكل مهيب وكئيب اظلمت غابة اشجار الاسفندان ، الشاخصة بمواجهة القمر وكانت البركة الراكدة قد فاحت بالطراوة على الماشي التعب ، وأرغمته على التوقف والارتياح عند الشاطئ كان كل شيء هادئاً ولم يكن يُسمع شيء من الأجمة العميقة للغابة ما خلا صداح البلابل وجعل سلطان الكرى الذي لا يُقهر يغلق جفنيه وكانت اعضاء جسمه التعبى مستعدة للخدر والتلاشي وأطرق رأسه كلا ، على هذه الشاكلة سأغفو هنا ! »

ــ قال هو ناهضاً على قدميه وفاركاً عينيه وجال ببصره ، ولاح الليل امامه لا يزال منورا أيّ اشراق غريب مُثمل اندمج بألق القمر ولم يحدث قط له

ان يرى شيئاً مماثلاً لقد هبط الضباب الفضي على الاطراف المتاخمة للمكان الذي كان فيه وكانت رائحة اشجار التفاح والازهار الليلية تعبق في الأرض بأسرها وتطلّع بذهول إلى مياه البركة الراكدة كان بيت الملازم العتيق ، المنعكس رأسا على عقب يُرى بجلاء وفي جلال رائع وبدلا من الدرف المظلمة تطلعت الشبابيك والابواب الزجاجية المرحة وعبر الزجاج النظيف لمعت طبقات الطلاء الذهبية وها قد لاح كما لو ان الشباك قد انفتح وحبس انفاسه ، ودون ان يرتعش او ان يحيد النظر عن البركة ، بدا كما لو انه ارتحل الى اعماقها ويرى امامه مرفق ابيض قد اتكأ الى الشباك ، وتطلّع بعدئذ وجه بشوش بعينين متألقتين تنوران بلطف عبر امواج الشعر الشقراء القاتمة ، ثم اعتمدت صاحبة الوجه على المرفق ويرى ايضاً الفتاة تهز رأسها شيئاً وتلوّح وتبتسم بحرارة فخفق قلبه مرة واحدة واهتزّ الماء ، واغلق الشباك من جديد . ومضى هو بلطف من البركة ونظر الى البيت كانت الدرف المظلمة قد انفتحت والزجاج ينوّر في ضوء القمر « ها قد تبين انه لا ينبغي التعويل كثيراً على أقاويل الناس » ــ فكّر هو في سرّه . ــ ان

البيت جديد ، والالوان طازجة كان البيت قد صُبغ بها هذا اليوم هنا يعيش أحد ما » ــ واقترب هو صامتاً منه ولكن كل شيء كان هادئاً فيه وبقوة ، وعلى نحو مدوّ تردّدت الأغاني الصدّاحة لبلابل ، وحين لاح انها تتلاشى في الضّنى والنعيم سُمع حفيف الشجر ، وصرصرة الجنادب ، او زقزقة طائر المستنقع ، الضارب بمنقاره الزلق في المرآة المائية العريضة أي صمت حلو وانطلاق استشعرهما لفكو في قلبه وقوّم هو الباندورا ، وطفق يضرب باوتارها ويغني

آه ، أيها القمر يا قميرى
وانت ايتها النجمة الالقة !
آه نوّرا هنا في البيت ،
حيث الفتاة الرائعة الجمال

وانفتح الشباك بلطف ، وتطلّع ذات الوجه الذي رأى صورته في البركة واستمع بانتباه الى الاغنية وكانت اهدابها شبه مسدلة على العينين كانت كلها شاحبة كالموت ، كألق القمر ، ولكن ما أروعها ، ما أبدعها ! وضحكت فارتعش لفكو

ــ غنّ لي ، أيها الشاب القوزاقي أيما أغنية !
ــ نطقت هي برقة منحنيةً برأسها جانباً ومسبلة تماماً أهدابها الكثيفة

ـــ أي أغنية أغنيها لك يا آنستي الرائعة !
وجرت الدموع بلطف في وجهها الشاحب
ـــ أيها الفتى ، ـــ قالت هي ، وسُمع شيء ما مؤثر ، مبهم في حديثها . ـــ أيها الفتى ، جدْ لي زوجة أبي ! انا لا ابخل بشيء عليك . ـــ سأكافؤك سأجزيك خير الجزاء وأكرمه ! إن لدي تحشية للاكمام ، محيكة بالحرير ، ان لدي مرجاناً ، وعقداً وساهديك حزاماً ، مطعّماً بلؤلؤة إن لديّ ذهباً إيها الفتى جد لي زوجة أبي! إنها ساحرة رهيبة لم تكن لديّ راحة وطمأنينة بسببها في حياتي لقد عذبتني ، وأرغمتني على العمل ، مثل فلاحة عادية انظر الى وجهي لقد استلّت حمرة خدّي بالاعيبها ومفاتنها القذرة انظر الى رقبتي البيضاء انها لا تُغسَل ! لا تُغسَل ! انها لا تزول بأي شيء انها البقع الزرقاء من أظافرها الحديدية انظر الى ساقيّ الابيضين لقد مشَتا كثيراً ، لكن ليس على الاسجاد ، وانما على الرمل الحار ، في الارض الرطبة ، في اشجار العضاة الشائكة . اما عينيّ ، انظر إلى عيني ، انهما لا تريان من كثرة الدموع جد ها ، أيها الفتى ، جد لي زوجة أبي !..
وتوقف صوتها الذي كان مرتفعاً . وجرَت انهار

الدموع فوق وجهها الشاحب وهيمَن على قلب الفتى شعور مفعم بالاشفاق والأسى.

ــ إنني مستعد لبذل كل شيء من أجلك ، يا سيدتي ! ــ قال هو وقلبه مفعم بالانفعال ــ ولكن كيف لي ذلك ، أين أجدها ؟

ــ انظر ! انظر ! ــ قالت هي بسرعة ــ انها هنا ! هنا هي تلعب على الشاطئ في الجوقة ، بين فتياتي ، تتدفّأ تحت نور القمر ولكنها داهية وماكرة وقد اتخذت مظهر الغريقة ولكني أعرف لكني أسمع ، انها هنا إنه ليصعب علي ، إنني لاختنق ، بوجودها انني لا أستطيع بسببها السباحة بحرية وسهولة مثل السمكة إنني أغرق وأهوى الى الأعماق مثل المفتاح فجدها لي أيها الفتى !

ونظر لفكو الى الشاطئ كانت فتيات كاشباح في ثياب بيض كالمرج ، المزين بالسواسن تمضي رقاقاً لطافاً ، في الضباب الفضي الرقيق ، وكانت تتحلّى باطواق وقلائد وعقود تتألق على أعناقها ولكنها كانت شاحبة ، وكأن اجسامها كانت تتألف من سحب شفافة كأنها كانت تتشعّع نوراً في ضوء القمر الفضي كانت الجوقة تقترب لاعبةً لاهية أدنى فأدنى وعلت أصوات

ـ لعبة الغراب ! هلم بنا نلعب لعبة الغراب ! ـ ضججن جميعاً ، كأنهن قصب الشاطئ وقد مسّته نسمات الريح ، في ساعة هادئة من السحَر

ـ أيّنا ستكون الغراب ؟

واقترعن ـ فخرجت فتاة من الجوقة وأقبل لفكو يتملاّها بعينيه كان الوجه ، والثياب ، وكل ما عليها ، هو ذات ما موجود على الأخريات شيء واحد كان يمكن ملاحظته وهو انها كانت تلعب اللعبة دون رغبتها وارتص رتلهنّ وعدا سريعاً امام هجمات العدو الجارح

ـ كلا ، أنا لا أريد ان اكون غراباً ! ـ قالت الفتاة وقد خارت قواها من التعب . ـ إنه ليعز عليّ أن اختطف أفراخ الأم البائسة !

ـ « إنك لست بالساحرة ! » ـ فكّر لفكو

ـ اذن مَن ستكون الغراب ؟

واجتمعت الفتيات ليقترعن من جديد

ـ سأكون أنا الغراب ! ـ قالت ، متحدية ، واحدة من وسطهن

وطفق لفكو يتطلع بثبات وتركيز الى وجهها وجرَت هي سريعاً وبجرأة وراء رتل الفتيات المرصوص ،

وارتمت في كافة الجوانب من أجل أن تصطاد فريستها وهنا جعل لفكو يلاحظ ان جسمها لم يكن متشعّعاً كما لدى الاخريات ففي داخلها كان يُرى شيء ما أسود وفجأة دوى صراخ كان الغراب قد انقض على احدى فتيات الرتل واختطفها ، وخُيل للفكو انه قد نتأت لديها اظافر وان سروراً شريراً قد تألّق في وجهها

– الساحرة ! – قال هو مشيراً فجأة باصبعه اليها وملتفتاً الى البيت

وضحكت الابنة الآنسة الصغيرة واقتادت الفتيات صارخات تلك التي مثّلت دور الغراب

– بأي شيء أجزيك أيها الفتى ؟ إني أعرف أنه ليس الذهب مرادك فانك تحب غالا ، ولكن الأب الصارم يعيق زواجك منها انه بعد الآن لن يعرقل زواجك ، خذ ، أعطه هذه الرسالة

وامتدّت يد بيضاء وكان وجهها قد نوّر وأشرق على نحو سحري وبارتجاف لا يُدرك وخفقات ممض في القلب اختطف هو الرسالة و... صحا .

اليقظة

— أوَحقاً أنني نمت ؟ — قال لفكو في سرّه ، ناهضاً من الرابية الصغيرة — حي ونشيط لكأنني في اليقظة ! شيء غريب ! — اعاد هو متلفتاً

كان القمر المتوقف فوق رأسه يشير الى منتصف الليل وكان صمت في كل مكان ، وفاح البرد المنعش من البركة ، وعليها نهض على نحو يبعث الأسى ، بيت هرم بدرف مغلقة وكان الطحلب والحشائش البرية تُظهر ان الناس قد هجروه منذ زمن طويل وهنا نفض يده التي كانت متوترة بتشنّج طوال وقت الحلم وصرخ من الذهول والدهشة اذ أحس فيها برسالة . « ايه ، لو عرفت القراءة والكتابة! » — فكّر هو ، مقلباً إياها أمامه على كل جانب وفي هذه اللحظة — سُمعت وراءه ضجة

— لا تخف ، ادركه هو مباشرة ! لماذا جبنت ؟ إننا عشرة أراهن ان هذا هو انسان ، وليس بشيطان ! — هكذا صرخ العمدة بمرافقيه وأحسّ لفكو بنفسه وقد أحاطته عدة أيد ، أيدٍ كان البعض منها يرتجف

من الرعب ــ انزع عن وجهك ، أيها الصديق ، القناع الرهيب ! كفاك إزعاجاً للناس ! ــ تمتم العمدة ، ممسكا به من ياقته ، وذهل وتهيّب إذ حملق فيه عينه . ــ لفكو ؟ ولدي ؟ ــ صرخ هو متقهقراً من الذهول ، وباسطاً يديه . ــ إذن هو أنت يا ابن الكلب ! يامن ولدته الشياطين هكذا انت إذن وأنا أفكر من هذا الشيطان ، اي ابليس هذا الذي يدبر هذه المكائد ؟ نكاتا ! اما الآن فيتحصّل ان كل هذا هو انت ، ايها السحلب المتنكر لأبيه تقيم في الشوارع اعمال العربدة والشقاوة ، وتألف الاغاني ! آه آه يالفكو ! وما هذا ؟ واضح ان ظهرك يحككك ! خذوه !

ــ مهلاً يا أبي ! أوصوني بأن أسلمك هذه الرسالة ، ــ قال لفكو

ــ ليس لي وقت للرسائل يا عزيزي ! خذوه !

ــ مهلاً ، أيها السيد الرئيس ! ــ قال الكاتب ، فاتحاً الرسالة ــ إنها بخطّ القوميسار !

ــ القوميسار ؟

ــ القوميسار ؟ كرّر رجال البوليس ، على نحو ميكانيكي

« القوميسار ؟ غريب ! وهذا ما هو اشد استعصاءً على الفهم ! » — فكر لفكو في سرّه

— اقرأ ! اقرأ ! — قال الرئيس — ما الذي يكتبه القوميسار هناك ؟

— فلنسمع ما يكتبه القوميسار ! — قال المقطّر ممسكاً في يده بالغليون وهو يضرم النار

وسعل الكاتب وبدأ القراءة

« أمر الى العمدة يفتوخ ماكاغونينكو بلغنا انك أنت ، الأحمق العجوز ، بدلاً من أن تجمع بقايا الضرائب المتأخرة القديمة ، وتبسط لواء النظام في القرية ، حمقت وصرت توالي الفظائع

— قسماً بالله ! — قاطعه العمدة — لا أسمع أيما شيء !

وابتدأ الكاتب من جديد

« أمر الى العمدة يفتوخ ماكاغونينكو بلغنا انك العجوز الاحم

— مهلاً ، مهلاً ، لا حاجة ! — صرخ العمدة — رغم اني لم أسمع أي شيء لكنني أعرف اننا لم نبلغ بعد القسم الرئيسي اقرأ ما يلي ذلك !

— « ونتيجة لذلك فاني آمرك بأن تزوّج في

هذه الساعة ابنك لفكو ماكاغونينكو على القوزاقية من قريتكم غالا بيتريتشينكوفا وكذلك باصلاح الجسور في طريق السفر ، وبعدم اعطاء الخيول المستأجرة محلياً ، من دون اذني الى الفتيان العاملين في المحكمة ، حتى ولو ارتحلوا مباشرة من بيت الخزينة واذا وجدت عند قدومي أمري هذا غير منفذ ، فاني سأتطلّبك وحدك للمسؤولية امضاء ـ القوميسار الملازم المتقاعد قوزما ديركاج ـ دريشبانوفسكي »

ـ اسمعوا ! ـ قال العمدة ، فاغراً فاه ـ أتسمعون ، أأنتم تسمعون ان العمدة مسؤول عن كل شيء ، ولذلك ينبغي اطاعته ! الاطاعة دونما تحريف ! وإلا

اما انت ، ـ استطرد هو ملتفتاً الى لفكو ، ـ فانصياعاً لارادة القوميسار ، ـ ولو ان ذلك غريب بالنسبة لي ، إذ كيف بلغه هذا الامر ـ فسأزوجك ولكن وقبل كل شيء عليك ان تجرّب الكرابيج ! تعرف ـ ذلك الكرباج المعلق لدي على الحائط بجانب زاوية الايقونات ؟ سأهيئه أنا غداً أين أخذت هذه الرسالة ؟

اما لفكو فرغم ذهوله الناجم عن مثل هذا الانعطاف غير المتوقّع للقضية ، فقد كان له من حسن

الفطانة أن يهيئ في ذهنه جواباً آخر يخفي به واقع طريقة حصوله على الرسالة

ـ ارتحلت بعض الوقت ، ـ قال هو ، ـ مساء أمس في المدينة ، وقابلت القوميسار الذي كان قد هبط من مركبته الخفيفة إذ عرف انني من قريتنا ، أعطاني هذه الرسالة وأوصاني أن أبلغك شفاهاً يا أبي ، انه سيعرج علينا في طريق الأياب لتناول الغداء

ـ أقال هذا ؟

ـ قال

ـ أتسمعون ؟ ـ قال العمدة وقد اكتست ملامحه سيماء الجد والوقار ملتفتاً الى مرافقيه ، ـ ان القوميسار نفسه سيجئ بشخصه الى أخيكم ، أي إلي للغداء أو ! ـ وهنا رفع العمدة اصبعه الى فوق ، واتجه برأسه تلك الوجهة ، كأنه يستمع الى شيء ما . ـ القوميسار ، أتستمعون القوميسار يأتيني لتناول الغداء ! ماذا تتصور ، أيها السيد الكاتب ، وأنت أيها النسيب ، ان هذا ليس بمحض تكريم أجوف ! أليس كذلك ؟

ـ في حدود ما أتذكر ، ـ بادر الكاتب للكلام ، ـ لحد الآن لم يتشرّف ولا عمدة واحد بتناول القوميسار الغداء لديه .

— ليس كل عمدة بندّ لعمدتكم ! — نطق العمدة بذلك بمظهر المعتدّ بنفسه والتوى فمه ، ودوت شفتاه بشيء من قبيل الضحك الصاخب الأجش الذي يشبه هزيم رعد بعيد . — ماذا تعتقد أيها السيد الكاتب ، ألا يلزم من اجل الضيف الرفيع المقام ، تحرير أمر بأن يُؤتى من كل بيت ولو بدجاجة صغيرة ، وقطعة قماش وما شاكل ذلك ها ؟

— يلزم يلزم ايها السيد الرئيس !

— ولكن متى ستكون وليمة العرس ، يا أبي ؟ — سأل لفكو

— الزفاف ؟ كم لي الرغبة في ان القنك الزفاف الذي تحلم به ! ولكن لخاطر الضيف الرفيع المقام غداً سيكللك القس ليأخذك الشيطان ! دع القوميسار يرى ماذا تعني النزاهة والاستقامة ! حسناً ، أيها الفتيان ، الى النوم الآن ! امضوا الى بيوتكم ! لقد ذكرتني واقعة اليوم بذلك الوقت ، حين كنت — وعند هذه الكلمات أطلق الرئيس نظرته الاعتيادية الجادة وذات المغزى الهام ، من عل

— الآن سيروح العمدة يتحدّث ، كيف نقل القيصرة الخ .. ! — قال لفكو واسرع بجذل

وبخطى سريعة الى البيت الذي يعرفه ، والمحاط باشجار الكرز الواطئة «فليسكنك الله فسيح جناته السماوية أيتها الآنسة الطيبة والرائعة ، ـ فكّر هو في سره — ألا فلتضحكي ولتُسَرّي أبدا في العالم الأخر بين الملائكة المقدسين ! سوف لا أتحدث لأحد بخصوص الاعجوبة التي وقعت في هذه الليلة ، فقط لكِ ، أنتِ يا غالا ، سأحكيها فانك وحدك تصدقينني ، وسوف تصلين معي من اجل ان تقر روح الغريقة التاعسة ! »

واقترب هو هنا من البيت كان الشباك مفتوحاً ، وأشعة القمر تنثال عبره ، وتبلغ غالا النائمة أمامه كان رأسها مستنداً الى يدها ، وكان خداها متورّدين بلطف ؛ وشفتاها ترتجفان ، وقد ذكرت اسمه على نحو مبهم ، مشوش «نامي ، يا حسنائي ! فلتحلمي بكل ما هو طيب في الارض ، غير ان ذلك لن يكون أفضل مما سيكون ند استيقاظنا ! » واغلق الشباك راسماً اشارة الصليب ، وابتعد برشاقة وبعد عدة دقائق غفا كل شيء في القرية وليس الا القمر وحده ظل يسبح مشرقاً ، ساحراً في السموات الاوكرانية السخيّة الرحبة التي لا تطالها العين وهكذا ، وعلى هذا النحو

الاحتفالي، المهيب ، كان كل شيء يتنفس في العلاء ، وكان الليل الالهي يتصرّم على نحو مهيب ورائعة كانت الارض في الألق الفضيّ الساحر ولكن لم يعد أحد يرتوي بهذا فقد غط كل شيء في نوم عميق وليس الا نادراً ما كانت هدأة الصمت تُقطع بنباح الكلاب وظل كالينيك السكران يتعثّر طويلاً متسكعا في الشوارع النائمة باحثاً عن بيته

عام ١٨٣١

ليلة عيد الميلاد

تصرّم آخر نهار قبل عيد الميلاد وحلّت ليلة شتائية رائعة طلقة وتطلّعت النجوم وارتفع القمر على نحو مهيب في السماء ينوّر للناس الطيّبين والعالم اجمع ، كي يطيب للجميع اداء طقوس الكولادا *

---

* كولادا – يسمى عندنا الانشاد تحت الشبابيك قبيل عيد الميلاد للاغاني التي تدعى كولادكا » ويرمي ذلك الذي تنشد له الاغاني ، رب البيت أو ربته أو من يبقى في البيت ، يرمي في كيس المنشد المقانق، أو الخبز ، أو قطعة نقد نحاسية ، وباختصار كل بما هو غني به ويقال ، انه في وقت من الاوقات كان صنم كولادا ، الذي اعتبروه الهاً ، وكأنه من هناك انطلقت تسمية «كولادكي» ومن يعرف ؟ على أية حال ، ليس من شأننا ، نحن الناس البسطاء ، مناقشة ذلك وفي العام الماضي كاد الاب يوسف ان يمنع اداء طقوس الكولادا في القرى ، قائلا ، كأن الشعب بذلك يتملق الشيطان غير اننا ، اذا توخينا الحقيقة ، فانه في اغاني الكولادا لا توجد ولا كلمة بخصوص

وتمجيد المسيح واشتدّ الصقيع ، عما كان عليه حاله صبحاً ولكن في المقابل عم الهدوء بحيث ان صرير الثلج تحت الحذاء كان يُسمع لمسافة نصف الفرستا* وحتى ذلك الوقت لم يظهر ولا حشد واحد للفتيان تحت شبابيك البيوت ولم يكن الا القمر وحده يتطلّع فيها خفيةً كأنه يدعو الفتيات المبهرجات للاسراع الى الثلج الصار وهنا ، وعبر مدخنة أحد البيوت تكوّرت سحب الدخان وارتفعت في السماء و ارتفعت معها ساحرة ممتطية مقشّة

ولو جاء محلّف مدينة سوروتشينتسى الصغيرة في عربة تجرها ثلاثة خيول مستأجرة محلياً ، مرتدياً قبعته ذات الاطار من فرو خروف ، والمصنوعة على نسق قبعات ضباط سلاح الخيالة الخفيفة ، ومعطفا من الصوف ازرق اللون مبطّنا بفرو استراخان اسود ، ويحمل سوطه المشبّك بطريقة شيطانية ، والذي هو يستحثّ به عادةً حوذيّه ، لو جاء هذا إذن لكان قد لاحظها ، ذلك لأن محلف سوروتشينتسي لا يُفلت أيّما ساحرة

ذلك الصنم . فالناس يغنون غالبا ميلاد المسيح ، وعند النهاية يتمنون العافية لصاحب البيت وصاحبته وللأولاد ولكل من في البيت
(ملاحظة من غوغول).

* الفرستا تساوي ١٠٦٠ متراً المترجم

في الكون . إنه يعرف من ظهر خاطر كم من خنوص قد وُلد لدى كل خنزيرة عند كل ربة بيت ، وكم من الاقمشة يوجد في الصناديق ، وما الذي رهن الرجل الخير من ثيابه او لوازم بيته في الحانة يوم الأحد ولكن المحلف من سوروتشينتسي لم يجئ ، وما يهمّه من قضايا الغير ، فان لديه قضاياه ومشاغله اما الساحرة فقد كانت ، في هذه الاثناء قد حلّقت عالياً ، بحيث لم تبن منها الا بقعة واحدة سوداء كبيرة تومض في حالق ولكن أينما ظهرت هذه البقعة فان النجوم كانت تتهاوى الواحدة بعد الاخرى من السماء وسرعان ما جمعتها الساحرة بملء كمّها وكانت ثلاث او أربع نجوم ما تزال تأتلق وفجأة ظهرت من الطرف الآخر بقعة اخرى ، وجعلت تتضخّم وتتمطط ، ولم تعد بحجم البقعة ولو وضع قصير النظر على أنفه عوضاً عن النظارات العادية ، إطارات عجلات مركبة القوميسار الخفيفة ، ما كان ليعرف ماذا يعني هذا فمن الامام يبدو تماماً كالماني * بوز ضيّق يدور دونما كلل

* يسمى المانياً لدينا كل من هو من أرض أجنبية حتى ولو كان فرنسياً أو نمساوياً او سويدياً كلهم ألمان . (ملاحظة من غوغول) .

ويتشمّم كل شيء مما يقع أمامه ويتنهي كما لدى الخنزير بالفطيّسة ، وكانت الساقان دقيقتان ، بحيث لو كان مثلهما لدى عمدة قرية يارسكوفسكويه إذن لكان قد حطمهما في أول رقصة قوزاتشوك عنيفة ولكن في مقابل ذلك كان يبدو من الخلف مثل كاتب محكمة مقاطعة حقيقي في سترته الرسمية ذلك انه كان قد تعلّق لديه ذيل ، مدبب وطويل مثل القسم الخلفي من السترة الرسمية الحالية اللهم فقط من لحية العنز تحت بوزه ومن القرون الصغيرة الناتئة على رأسه ومن كونه بكامله لم يكن أقلّ بياضاً من منظّف مداخن فقط من كل هذا كان يمكن الحزر ان هذا ليس بالالماني وليس بكاتب فى محكمة المقاطعة ، وإنما هو ببساطة شيطان بقيت لديه ليلة أخيرة للتسكّع في الكون والوسوسة في صدور الناس الطيّبين ففي الغد بالذات ومع الأجراس الأولى لصلاة الصبح ، سيهرب هو دون ان يلتفت الى وراء خافيا ذيله بين أطرافه ، إلى حيث وجاره

وفي اثناء ذلك تسلّل الشيطان بخفة الى القمر ، وكاد يمدّ إليه يده للأمساك به ولكنه فجأة سحب يده الى الوراء ، كما لو انه قد تشيّط ، ولحس أصابعه ،

وتأرجح بقدميه وكر من الجانب الآخر ، ومن جديد انتكص على عقبيه وسحب يده وعلى أية حال فبصرف النظر عن كل الاخفاقات فان الشيطان الماكر لم يكفّ عن ألاعيبه وفجأة كر بسرعة وهو راكض فقبض على القمر بكلتا يديه زاوياً ما بين حاجبيه ونافخاً عليه مقلباً إياه من يد لاخرى مثل قروي يقبض بيده المجردة على الجمر ليشعل غليونه وأخيراً أخفاه بسرعة في جيبه ، وكأنه لم يقترف إثماً وأوغل هارباً

وفي ديكانكا لم يعرف أحد ، كيف سرق الشيطان القمر صحيح ان كاتب الناحية رأى وهو خارج من الحانة زحفاً على يديه ورجليه من فرط سكره رأى القمر يتأرجح ، دونما سبب ، في السماء ، وأكد ، مقسماً على ذلك لكل أهل القرية غير ان القوم هزّوا رؤوسهم بل سخروا منه والا فأي دافع حدا بالشيطان لاقتراف مثل هذا الأمر المحظور ؟ وها هو السبب فان الشيطان كان قد عرف ان الشماس قد دعا القوزاقي الغني تشوب الى حفلة عيد الميلاد حيث سيحضر الدعوة العمدة وقريب للشماس قدم من فرقة المغنين الابرشية في سترة زرقاء ، والذي قادر على ان

ينشد بارخم الاصوات ، والقوزاقي سفير بيغوز ، واشخاص آخرون أيضاً ، وحيث ستكون ، ما خلا العصيد ، فودكا مقطّرة بالزعفران ، وكثير من صنوف المأكولات الشهيّة وفي اثناء ذلك ستبقى ابنته حسناء القرية في البيت ، وسيأتي اليها، على الا رجح ، الحداد ، ذلك الشاب القوي الضخم المفتول والذي كان الشيطان يمقته أكثر مما يمقت خطب الأب كوندرات وكان الحدّاد ، يشتغل ، في وقت فراغه بالرسم ، وقد اشتهر بانه افضل رسام في المنطقة وكان الملازم ﻟ ... كو الذي كان لا يزال حيا قد دعاه في وقته خصيصاً الى بولتافا لينقش السور الخشبي حول بيته وكانت كل الجفنات التي كان منها قوزاق ديكانكا يحتسون مرقة البورش ، مصوّرة بنقوش الحداد وكان الحداد انساناً تقياً يخاف الله وغالباً ما رسم صور القديسين وحتى الآن لا يزال ممكناً العثور في كنيسة ت على صورة القديس الانجيلي لوقا الذي رسمه ولكن ذروة فنّه كانت لوحة واحدة ، مصوّرة على جدار الكنيسة في قسمها الأيمن ، وهي اللوحة التي صوّر فيها القديس بطرس في يوم القيامة ، وبيده المفاتيح ، طارداً الروح الشريرة من الجحيم كما صوّر فيها الشيطان المرعوب

يحوّم في كافة الاطراف ، محساً بدنو نهايته ، اما الآثمون المحبوسون سابقاً فكانوا يضربونه ويطردونه بأسواطهم ، وقزم الخشب وبكل شيء مما وقع في أيديهم وفي الوقت الذي كان فيه الرسام يعمل في هذه الصورة التي رسمها على لوحة خشبية كبيرة ، كان الشيطان يحاول عرقلته بكل قواه فقد دفعه ، دون ان يُرى ، تحت يده ، ورفع من البوتقة في فرن الحدادة الرماد الحارّ ورش به اللوحة ولكن برغم ذلك ، فان العمل قد انتهى ، وقُدّمت اللوحة الى الكنيسة وعلقت على حائط القسم الأيمن ، ومنذ ذلك الوقت ، فان الشيطان قد أقسم اليمين بأخذ الثأر من الحداد

بقيت له ليلة واحدة يتسكّع في الكون ، ولكنه في هذه الليلة حاول أن يصبّ نار حقده على الحداد بكل وسيلة ولأجل هذا عزم هو على سرقة القمر ، وذلك بأمل ان الكهل تشوب كسلان وغير نشيط في حركته كما ان الطريق من القرية الى الشماس ليست قريبة جداً فقد كانت الطريق تلتفّ حول القرية وتمر بجانب الطواحين ، وبجانب المقبرة ، وتدور حول الوادي الضيق والى ذلك ، فانه حتى في ليلة مقمرة كان العصيد والفودكا المقطّرة بالزعفران ، لتستهويان

تشوب ولكن في مثل هذه الظلمة من الصعب أن يوفّق أحد لانتشاله من الموقد وإخراجه من البيت. اما الحدّاد ، الذي لم يكن في وفاق معه منذ أمد طويل فلن يجرؤ مهما كان الثمن على المضي الى الابنة ، برغم قوته وعلى هذا النحو ما إن أخفى الشيطان القمر في جيبه، حتى استحالت الدنيا إلى ظلام مطبق بحيث لم يكن في مكنة كل أحد أن يجد الطريق إلى الحانة وليس فقط إلى الشمّاس وصرخت الساحرة التي وجَدت نفسها فجأة في الظلام ، مرعوبة وهنا فان الشيطان المتزلّف المتملّق تأبّط يدها وانهدّ يهمس في اذنها بذلك الشيء نفسه الذي يهمسون به عادةً لكل جنس النساء غريبٌ ما يحدث في كوننا هذا! إن كل المخلوقات التي تعيش في الكون تحاول جهدها ان تقلد وتغيظ بعضها بعضاً فسابقاً كان القضاة وحدهم في ميرغورود كما وحاكم المدينة يسيرون شتاءا في معاطف من صوف الضأن مغطاة بالجوخ اما كل الموظفين الصغار فكانوا يحملون فروات من الجلد غير مغطاة من الخارج بشيء اما الآن فان محلف وحاكم البداءة ايضاً جهزّا نفسيهما بمعاطف جديدة من فرو استراخان مغطاة

بالجوخ اما موظف الدائرة وكاتب الناحية فهما منذ ثلاثة اعوام قد اشترا القماش القطني الصيني الازرق بست غريفنات للذراع وقد صنع القندلفت لنفسه ، كلباس للصيف سراويل وصديريا من قماش قطني مخطط وبكلمة فان كلاً يريد ان ينحشر في صف واحد مع الناس الاسوياء ! فمتى اذن سوف لا يتبلبل هؤلاء الناس ! ويمكن ان نراهن انه ليبدو غريباً بالنسبة للكثيرين رؤية الشيطان داساً بنفسه هناك أيضاً وأشدّ الأمور بعثاً على الأسى والأسف انه لربما يتصور نفسه جميلاً ، ـ ويكن إذا نظرت اليه كفرد تشعر بوخز الضمير وكما يقول فوما غريغوروفيتش فان خلقته هي الدناءة بعينها وعلى اية حال فهو أيضاً يمارس ألاعيبه الحبية معها ويغازلها ولكن ها قد اظلم السماء وما تحتها بحيث انه لم يعد ممكناً رؤية شيء مما جرى بعدئذ بينهما

ـ وهكذا اذن لم تكن بعد أيها العراب لدى الشماس في البيت الجديد ؟ ـ قال القوزاقي تشوب خارجاً من باب بيته لرجل نحيل طويل في فروة قصيرة ولحية طليقة لم يمسّها لاكثر من اسبوعين نصل المنجل الذي يحلق به الفلاحون لحاهم

عادة حين لا يكون موسى الحلاقة . ــ هناك سيكون حفل شرب رائع ! ــ واصل تشوب ، مكشراً عند هذا . ــ فقط ليتنا لا نتأخر

وعند هذا سوّى تشوب من حزامه ، شاداً من فروته على نفسه ، وأمال قبعته على جبينه لحدّ اكبر من ذي قبل ، ووتّر في يديه السوط ــ مثار الرعب والخطر على الكلاب اللجوجة ، ولكنه إذ نظر لأعلى ، توقف

ــ أي شيطان ! انظر ، انظر يا باناس !

ــ ماذا ؟ ــ نطق العراب ، ورفع رأسه الى الأعلى أيضاً

ــ كيف ماذا ؟ لا يوجد قمر !

ــ اي ضياع ؟ في الواقع لا يوجد قمر

ــ تلك هي المسألة انه لا يوجد ، ــ نطق تشوب بهذا ببعض الاسى تجاه لا أبالية العراب المستمرة.

ــ لعل هذا لا يمسّك او يهمّك

ــ ولكن ماذا ينبغي عليّ أن أعمل ؟

ــ واعجبا ، أكان هذا لازماً ، ــ استطرد تشوب ماسحاً شاربيه بكمّه ، لشيطان ما ليته لا يوفق ، هذا الكلب ، شرب قدح من الفودكا في الصباح ،

التدخل بهذا الشكل ! حقاً ، لكأن الأمر سخرية حين كنت قاعداً في البيت نظرت خصيصاً من الشباك الى السماء ليلة ــ رائعة ! منورة ، الثلج يتراقص في ضوء القمر كان كل شيء واضحاً ، مرئياً لكأنه النهار ! حتى اذا خرجت من الباب ــ وجدت هذا الظلام الدامس !

دمدم تشوب وسبّ طويلاً ولكنه في ذات الوقت فكر علام يجب أن يعزم لقد رغب منتهى الرغبة وأراد الحديث والثرثرة تجاه كل تفصيل تافه ، لدى الشماس ، حيث ، دون شك ، كان قد جلس العمدة ، والمنشد بالصوت الرخم الذي قدم خصيصاً ، وميكيتا تاجر القطرات ، الذي يرتحل كل اسبوعين الى بولتافا للتجارة ، والمطلق تلك النكات اللاذعة ، التي كان الناس يضحكون منها ملء نواجزهم بل كادت جنوبهم تتمزق منها وتراءت لتشوب في خواطره الفودكا والعصيد الآخذة مكانها على المائدة وكان كل هذا مغرياً حقاً ، ولكن ظلمة الليل ذكّرته بذلك الكسل اللذيذ جداً بالنسبة لكافة القوزاق فالآن ما أحلى الرقود على الاريكة ولمّ القدمين وتدخين الغليون بهدوء والسماع عبر التهويم المثمل الكولادا وأغاني الفتيات والفتيان المرحين ،

المحتشدين حشوداً تحت الشبابيك لو كان وحده لأقدم ، دون شك ، على كل شيء ، ولكنهما الآن اثنان ، وليس من المسئم والرهيب جداً عليهما معاً المضي في ظلام الليل ، وهو لم يُرد ان يظهر أمام الآخرين كسولاً أو جباناً واذ أنهى السب والشتم توجّه من جديد مخاطباً العراب

— وهكذا لا يوجد قمر أيها العراب ؟

— كلا

— غريب أليس كذلك ! ناولني مسعطك لأتنشّق تبغك إن لديك أيها العراب ، تبغاً ممتازاً ! أين تحصل عليه ؟

— ممتاز ، باسم أي شيطان ! — اجاب العراب ، مغلقاً علبة النشوق المطعّمة بالنقوش — إن الدجاجة العجوز لن تعطس منه !

أتذكر ، — واصل تشوب كلامه على ذات المنوال — لقد جلب لي المرحوم زوزوليا صاحب الحانة تبغاً من مدينة نيجين ايه اي تبغ كان ! تبغاً رائعاً على أية حال كيف سيكون أمرنا أيها العراب ؟ لقد ضرب الظلام أطنابه في الفناء

ـ لعلنا بهذا الشكل ، سنبقى في البيت ، ـ نطق العراب ، متشبثاً بمقبض الباب

ولو لم يكن العراب قد فاه بهذا لكان تشوب ربما قد قرر البقاء ، و لكنه الآن يحس كما لو ان شيئاً ما يدفعه للمضي بعكس ذلك تماماً

ـ كلّا ، ايها العراب ، نمضي ! غير ممكن ، ينبغي المضي !

وإذ نطق هذا سخط على نفسه انه قال ذلك . إذ لم يكن من المريح جداً له الانجرار في مثل هذا الليل ، ولكن ما عزّاه هو انه نفسه أراد ذلك عمداً ، وانه لم يعمل بذلك الشكل الذي نصحوه به

اما العراب فنظر ، دون ان يعبّر في وجهه عن أي تعبير من تعابير الأسى ، وكشخص بالنسبة له الأمر سيّان القعود في البيت أم مبارحته نظر جلياً الى ما حواليه ، وهرش كتفه بعصا السوط ، وانطلق العرابان سوية في طريقهما

ولننظر الآن ، ما الذي تصنعه الابنة الحسناء ، وقد بقيت لوحدها في البيت لم يتصرّم على اوكسانا ربيعها السابع عشر حتى كانت الأحاديث في الكون كله تقريباً ، وفي جانبي ديكانكا ايضاً ، لا تدور الا

عنها لقد أجمع الفتيان جميعاً انه لم ولا ولن توجد فتاة أفضل منها حسناً في القرية وعرفت اوكسانا ، واستمعت الى كل شيء مما كان يقال عنها وكانت دلعة مثل أي حسناء ولو سارت لا في فستان بسيط ، بل في فاخر الثياب وأبدالها لكانت قد تغطرست على الفتيات جميعاً وقد طاردها الفتيان حشوداً ، ولكنهم وقد فقدوا الصبر ، قلّ عددهم وجعلوا يتوجهون الى الاخريات ، غير الدلعات جداً وليس الا الفتى الحداد وحده كان عنوداً ولم يكفّ عن التحويم حولها بالرغم من أن الذي حصل معه ليس بأفضل بمثقال ذرة مما حصل مع الآخرين

وعند خروج أبيها ، ظلّت هي أمداً طويلاً تتجمّل ، و تتزين أمام مرآة غير كبيرة في إطار من القصدير ، ولم تستطع ان تشبع من الاعجاب بنفسها « لماذا قرّر الناس التقول كما لو انني جميلة ؟ — قالت هي ، بشيء من الذهول وشرود الفكر ، لا لشيء إلا لتثرثر بشيء متحدثة مع نفسها . — الناس يكذبون ، لست أبداً بالجميلة » ولكن الوجه الوامض في المرآة على نحو اكثر طراوة والحيّ في شباب الطفولة ، بالعينين السوداوين المتألقتين والابتسامة الحلوة ، الحارقة

الروح ، أثبت فجأة ان الأمر بالعكس «أو حقاً يكون الحاجبان الاسودان والعينان السوداوان ، ـ واصلت الحسناء كلامها ، دون ان تُفلت المرآة ، ـ جميلة جداً ، بحيث انه لا يوجد ضريبها في الكون ؟ ما الجميل هنا فى هذا الانف الشامخ الى اعلى ؟ وفي الخدّين ؟ وفي الشفتين ؟ ام كأن ضفيرتيّ السوداوين جميلتان ؟ أوه ! إنهما لتستطيعان أن ترعبا الناس ليلا فانهما مثل حيّتين طويلتين تتنقلان وتتطويان حول رأسي إنني الآن أرى ، انني قطعاً لست بالجميلة ! ـ وهتفت مبعِدةً المرآة شيئاً عنها ، تقول ـ كلا ، جميلة انا ! اه ، كم جميلة أنا ! يا للروعة ! أية سعادة سأجلبها الى من سأكون خليلته ! كم سيتغزل بجمالى زوجي ! انه سوف لا يتذكر نفسه ، وسيظلّ يقبّلني الى الأبد »

ـ فتاة غريبة الاطوار ! ـ همس الحدّاد الداخل بلطف ـ وتبجّحها قليل ! إنها تجلس حوالي الساعة متطلعة في المرآة ولا تشبع من التطلع الى نفسها ، واكثر من ذلك تمتدح نفسها جهراً !

« أجل ، أيها الفتيان ، أند انا لكم ؟ انظروا الي ، ـ استطردت المغناج الرائعة : ـ انظروا : أي

حال فاخرة أنا فيها ! إن لدي قميصاً مطرزاً بالحرير الاحمر وأية أشرطة على الرأس ! إنكم عمركم لن تروا حلى جميلة أثرى ! إن كل هذا قد ابتاعه لي والدي كي يتزوّجني أمجد فتى في الدنيا ! » — واستدارت ، ضاحكةً ، الى الناحية الاخرى ، ورأت الحداد

فصرخت ، ووقفت مقطبة أمامه

وأسبل الحداد يديه متحيّرا

إن من الصعب التحدّث بماذا عبّر عنه الوجه الأسمر للفتاة الساحرة فقد كان فيه الصرامة ، وكان يتخلّل الصرامة نوع من السخرية من الحداد المرتبك ، والسمة التي لا تكاد تلحظ من الاسى والمنتشرة بلطف في الوجه ، لقد امتزج كل هذا ، على نحو رائع ، لا يمكن وصفه وتصويره ، بحيث ان تقبيلها مليون مرة — هو أفضل ما كان ممكناً عمله آنذاك

— علامَ جئت الى هنا ؟ — هكذا ابتدأت اوكسانا كلامها . — أفحقاً تريدني أن أقذف بك وراء الباب بالرفش ؟ إنكم جميعاً أساتذة في فنّ التقرب إلينا فحين لا يكون الآباء في البيوت ، تشمون ذلك في لحظة ، في الحال اوه ، إني أعرفك . ماذا ، أصندوقي جاهز ؟

– سيكون جاهزاً يا قلبي ، بعد العيد سيكون جاهزاً ! لو علمتِ كم تعبت فيه وكم درت حوله ليلتين بطولهما لم أخرج من دكان الحدادة وفي مقابل ذلك لن يكون ولا عند ابنة قس مثل هذا الصندوق لقد وضعت من الحديد في تكسيته ، ما لم أضعه على عربة الملازم ، حين مضيتُ للعمل في بولتافا وأية نقوش ستكون فيه ! لو طفتي ياعزيزتى فى الضاحية كلها بساقيك البيضاوين ، فلن تجدى مثيله ! في كل سطحه زهور حمر وزرق سيتألّق كلهب لا تغضبي مني ! اسمحي لي ولو بالحديث معك ، ولو بالنظر اليك

– من يمنعك ، تحدث وأنظر !

وهنا جلست هي على الدكة ، وجعلت تنظر من جديد الى المرآة ، وتصلح من شأن ظفائرها على رأسها نظرت الى الرقبة ، والى بلوزة جديدة مقصّبة بالحرير ، فارتسم على شفتيها وعلى الخدين النضرين شعور لطيف بالرضا عن النفس ، وضوءاً في العينين

– اسمحي لي أيضاً بالجلوس الى جانبك ! – قال الحدّاد .

– اجلس ، – تمتمت اوكسانا ، مُبقيةً في الشفتين وفي العينين الراضيتين ذات الشعور

– يا اوكسانا الساحرة ، يا غاليتي ، اسمحي لي بتقبيلك ! – نطق الحداد المبتهج وجذبها الى نفسه ، بنيّة اختطاف قبلة ولكن اوكسانا أبعدت خدّيها ، الموجودين في مسافة بالغة القرب من شفتي الحداد ، ودفعته

– ما سيكون مطلبك التالي ؟ حين يكون العسل جاهزاً ، تلزمه الملعقة أيضاً ! ابتعد ، إن يديك أقسى من الحديد وانت نفسك تفوح برائحة الدخان بل إني لأعتقد انك لوثتني بالسخام

وهنا أتت بالمرآة ، وطفقت من جديد تتزّين امامها

« انها لا تحبني ، – جعل الحدّاد يفكّر في سره ، ناكساً رأسه . – ان كل ما يلزمها هو اللعب ، أما أنا فأقف أمامها مثل أحمق ، ولا أحوّل عينيّ عنها ! فتاة غريبة ! ما الذي لا أعطيه من أجل أن أعرف ما في قلبها ، ومن تحب ! ولكن لا ، لا يلزمها أحد إنها مجنونة في حبّ نفسها ، تعذبني انا البائس ؛

اما انا فمن الحزن لا أرى الدنيا ، وانا أحبّها بتلك الدرجة التي لم ولن يحبّها بها قطّ أي إنسان »

ــ أحقاً ، أن أملك ساحرة ؟ ــ نطقت اوكسانا بهذا وضحكت ، وأحسّ الحدّاد أن في داخله قد ضحك كل شيء وكما لو ان هذا الضحك قد تردّد مرة واحدة في قلبه ، وفي عروقه المختلجة ومن كلّ هذا هبط الأسى في قلبه ، لكونه ليس بوسعه ان يقبّل هذا الوجه الضاحك بعذوبة

ــ ما علاقتي بأمي ؟ إنك لي أم وأب وكل ما هو غالٍ في الكون : لو دعاني القيصر نفسه وقال لي : « ايها الحدّاد فاكولا ، اطلب أفضل ما لديّ في مملكتي ، وسأعطيك كل طِلبَتك سآمرك بأن تصنع ورشة حدادة ذهبية ، وستطرق بمطارق من فضة » لو قال لي ذلك لَتَمَلْت له « لا أريد ، لا الأحجار الثمينة ، ولا الورشة الذهبية ولا كل مملكتك الأفضل من كل ذلك ان تعطيني اوكساني ! »

ــ أترى ، أي إنسان أنت ! ولكن ابي لن يخطئ الاختيار ابدا سترى ذلك عندما سيرفض الزواج من أمك ، ــ تمتمت هي ، مبتسمة بمكر . ــ وعلى أية حال ، فان البنات لم يجئن بعد ... ماذا يعني هذا ؟

لقد حان الحين منذ زمن للطواف وغناء الكولادا بدأت أضجر

– اتركهن لله ، يا حسنائي !

– فقط ليس كذلك ! فالحق انه سيأتي معهن الفتيان وهنا ستكون حفلات الرقص أستطيع أن أصوّر لنفسي أية وقائع مضحكة يحكين !

– أوَ هكذا أنت مرحة معهن ؟

– بالطبع ، أمرح من أن أكون معك هس ! طرق على الباب لعلهن الفتيات مع الفتيان

– أيّ مزيد أنتظر ؟ – قال الحداد يحاور نفسه . – إنها تهزأ بي وحاجتها بي كحاجة الفرس بالحدوة الصدئة ليس إلا وما دام الأمر كذلك ، فعلى الأقل لن أدع إنساناً آخر يضحك مني فقط دعني ألحظ هذا الذي يعجبها اكثر مني ، سأريه من أنا

طرق على الباب ، وصوت دوى بحدة في الصقيع « افتحي ! » – قطع عليه حبل تفكيره

– مهلاً ، سأنظر بنفسي ! – قال الحداد وخرج الى المدخل ، بنيّة ان يحطّم ، من شدة الأسى ، جنب أول إنسان يقع بين يديه

اشتدّ الصقيع ، وصار البرد في اعالي السماء من الشدة بحيث ان الشيطان جعل يقفز من ظلف الى آخر ، وينفخ في جميع يديه ، محاولاً أن يدفئ بأيما شكل يديه المتجمدتين من البرد وعلى أية حال ، فليس من الصعب تجمّد ذلك الذي كان يركض من الصبح حتى الصبح في الجحيم ، حيث ، كما هو معلوم ، ليس بارداً بذلك الشكل كما لدينا في الشتاء ، وحيث كان يقف ، معتمراً بطرطور ، أمام الموقد ، كأنه ، في واقع الأمر ، طباخ ماهر ، وذلك ليقلي الآثمين ، وهو مفعم بذلك السرور الذي تعمر به ربّة البيت عادة وهي تقلي السجق في عيد الميلاد

وأحسّت الساحرة نفسها ان الجو بارد ، رغم انها اكثرت من الملابس الدافئة ، ولذلك فانها ، أخّرت إحدى قدميها ، وهي ترفع يديها الى أعلى ، وانتقلت بنفسها الى ذلك الوضع ، مثل إنسان طائر على المزالج ، غير محرّك أي مفصل من مفاصله ، هبطت في الهواء ، كما لو انها انحدرت متزحلقةً على سفح جبل ثلجي ، ودخلت رأساً في المدخنة

وبهذا الشكل أيضاً انطلق الشيطان في اثرها ولكن بما ان هذا الحيوان أشدّ حركة ومرونة من أيما

غندورة في جوارب طويلة ، فليس من الصعب عليه ، اذن ، انه امتطى عند المدخل ذاته المؤدي الى المدخنة رقبة عشيقته ، وتكشّفا معاً في ساح الفرن الفسيحة بين أوعية الطبخ

وأبعدت المرتحلة برفق باب الفرن لتتبيّن ما إذا دعا ابنها فاكولا ضيوفاً الى البيت ، ولكنها إذ رآت انه لم يكن أحد موجوداً ، ما عدا الاكياس التي كانت ترقد وسط البيت ، فانها خرجت من المدفأة ورمت بالمعطف الشتائي الدافئ ، وأصلحت من شأنها ، ولم يكن أحد ليعرف ، والحال هذه ، انها قبل دقيقة فحسب كانت قد امتطت المكنسة

لم يكن لأم الحدّاد فاكولا منذ ولادتها سوى اربعين عاماً ولم تكن هي لا بالجميلة ولا بالدميمة فان من الصعب ان يكون المرء جميلاً في مثل هذه السن غير انها ، على أية حال ، كانت تحسن سلب الباب أرهَن القوزاق (الذين لا يهمّهم ، بالمناسبة ، ملاحظة الجمال ، فما كان هذا يلزمهم) ، بحيث كان يتردد عليها عمدة القرية ، والشماس اوسيب نيكيفوروفيتش (طبعا إن لم تكن زوجة الشماس في البيت) ، والقوزاقي كورني تشوب والقوزاقي كاسيان

سفيربيغوز ومن الانصاف لها ان نقول انها كانت تتقن فنّ مداراتهم جميعاً فلم يكن ليخطر على بال أحد منهم ، انه يوجد له غريم فسواء جاء فلاح ورع ، او جاء نبيل ، كما يحبّ القوزاق ان يسموا أنفسهم ، مرتدياً معطفاً من الجوخ مزوداً بقلنسوة ، في يوم الاحد الى الكنيسة ، او إذا كان الطقس سيئاً ، فالى الحانة — فما ألذّ العروج على صولوخا ، وتناول الفارينيكى الدسمة بالقشدة ، وتجاذب اطراف الحديث في البيت الدافئ مع ربّته الثرثارة ، والتي تُحسن الأرضاء وكان النبيل يقوم ، لذلك خصيصاً ، بانعطافة كبيرة في الطريق ، قبل ان يبلغ الحانة — وكان يُسمي ذلك العروج في الطريق اما اذا مضت صولوخا في العيد الى الكنيسة ، كعادتها ، مرتدية ثوباً زاهياً ، ألقت فوقه تنورة زرقاء ، حيكت عليها من الخلف عرانيس ذهبية ، ووقفت قريبة جدا من الجانب الايمن مكان وجد الخوروس الكنائسي ، فان الشماس كان يسعل ، ويحوّل ، عفو ارادته ، عينيه اليها ، ويفتل العمدة شاربيه ، ويطوي خصلة الشعر الطويلة على اذنيه ، ويقول لجاره الواقف ازاءه « اوه ، يالها من امرأة رائعة ! امرأة ساحرة ! »

وكانت صولوخا تحيي الجميع ، وكان كل يفكّر كما لو انها حيّته هو وحده بيد ان بمكنة محبّ التدخل في شؤون الغير ان يلاحظ في الحال ، ان صولوخا كانت تخصّ القوزاقي تشوب باكبر قدر من ترحيبها وكان تشوب أرملاً وكانت ثمانية أكداس من الحبوب تقف دائماً أمام بيته كما كان أربعة من الثيران المخصيّة القوية الاصلاب تُطلِع رؤوسها من السقيفة المشبّكة الى الشارع وتخور ، ما إن رأت البقرة العرابة ، او عمّها الثور البدين وكان عنز ملتح يصعد الى السطح ذاته ويطلق صوتاً مرتجاً من هناك بشكل حادّ ، مثل حاكم مدينة ، مهارشاً الديكة الهندية الماشية في الفناء ، ومستديراً بظهره ، حين يرى خصومه الصبيان ، الساخرين من لحيته وفي صناديق تشوب كانت اقمشة كثيرة ، وكثير من البدلات ، والاثواب الخارجية القديمة المحلاّة بالأشرطة المقصّبة الذهبية فقد كانت المرحومة زوجته غندورة متأنقة وكان يزرع كل عام في حاكورته ، ما عدا الخشخاش ، والكرنب ، وعباد الشمس ، حوضين من التبغ وقد اعتبرت صولوخا مناسباً جدا ضمّ كل هذا الى ثروتها ، متأملة مقدماً في النظام الذي سيتخذه حين

سينتقل الى يديها ، وضاعفت من انجذابها الى تشوب الكهل ولكي لا يتقرب ابنها فاكولا الى ابنته وكيلا يفلح في الاستحواذ على كل شيء ، من المرجح ، آنذاك ، ان لا يسمح لها بالتدخل في أيما أمر ، لكل ذلك التجأت صولوخا الى وسيلة اعتيادية مما تتوسّل به كافة النمّامات في سن الأربعين تأليب تشوب على الحداد وايقاد نار الخصومة بينهما ولعل ذات الوان مكرها ودهائها هذا كانت الحجة لأن تتقوّل العجائز ، وخصوصاً حين يفرطن شيئاً في الشراب ، ان صولوخا هذه ساحرة بالضبط ، وان الفتى كيزياكولوبنكو رأى لديها من الخلف ذيلاً لا يزيد في حجمه على مغزل المرأة ، وانها في الخميس الذي سبق الخميس الماضي جرت قطةً سوداء عبر الطريق ، وركضت خنزيراً إلى زوجة القسيس ، وصاحت مثل ديك ، واعتمرت بقبعة الأب كوندرات ، وعدت راجعة

وحدث ذات مرة ، ان جاء أحد رعاة البقر ، تيميش كوروستيافي ، الى العجائز حين كنّ يتحدّثن في أمر صولوخا فلم يتورّع هذا من القول انه ذات مرة في الصيف ، قبيل عيد القديس بيوتر ، حين كان راقداً في الزريبة ، متوسداً القشّ ، رأى بأم عينيه

الساحرة وكانت مهلولة الشعر في القميص وحده وقد ابتدأت تحلب الابقار ، غير انه لم يستطع التحرّك ، فقد سحرته ؛ وإذ حلبت الأبقار ، جاءته ودهنت شفتيه بشيء ما كريه ، بحيث انه ظلّ يبصق طوال يوم كامل بعد هذا غير ان كل هذا مشكوك فيه بعض الشيء ، ذلك لأن محلف مدينة سوروتشينتسي وحدَه يستطيع أن يرى السواحر وبسبب هذا كان كل القوزاق الوجهاء يهزّون بأيديهم ، حين كانوا يسمعون مثل هذه الاحاديث «تهذر هذه العجائز الكلاب ! » — كان جوابهم الاعتيادي

واذ خرجت صولوخا زحفاً من المدفأة ، اصلحت من شانها وابتدأت ، كأية ربة بيت طيبة ، تنظم وتضع كل شيء في مكانه؛ بيد انها لم تمسّ الأكياس «لقد أتى فاكولا بها ، فدعه اذن يحملها بنفسه ! » اما الشيطان فأثناء ما كان طائراً في المدخنة ، التفت بشكل ما صدفة ، فرأى تشوب آخذاً بيد العرّاب ، على مبعدة من البيت فطار في لحظة من المدفأة ، وقطع عليهما الطريق ، وابتدأ يثير من كل الانحاء اكوام الثلج المتجلّد وثارت عاصفة ثلجية وابيضّ الجو كان الثلج يتقذف محوّماً الى الوراء والى الامام مثل شبكة

ويهدّد بصمّ العيون والافواه والآذان لدى المشاة اما الشيطان فقد طار من جديد الى المدخنة ، بثقة اكيدة ، ان تشوب سيعود مع العرّاب مَن حيث أتيا ، وانه سيعثر على الحدّاد هناك فيناوله علقة ساخنة بذلك الشكل الذي سيظلّ الحدّاد معه أمداً طويلاً من الدهر لا يقوى على ان يأخذ بيديه الفرشة ليرسم الصور المهينة

وفي الواقع ، ما كادت العاصفة تثور والريح تخز العيون ، حتى أظهر تشوب ندامته ، وأحكم من اعتماره بالقبعة الواسعة التي تغطي اذنيه ، وأكرم بألوان الشتائم نفسه ، والعرّاب ، والشيطان وعلى أية حال ، فان هذه الندامة كانت متصنّعة فقد كان تشوب مسروراً غاية السرور من العاصفة الثائرة فما بقي من مسافة الطريق الى بيت الشماس لا يزال يفوق بثماني مرّات المسافة التي قطَعاها وقفل المرتحلان راجعين وكانت الريح تهبّ في القفا ، ولكن لم يكن ليرى شيء عبر الثلج العاصف

– قف ، ايها العرّاب ! اننا ، فيما يبدو ، لا نمضي الى حيث ينبغي ، – قال تشوب ، المتقهقر

شيئاً ، ــ فانا لا أرى أيما بيت ايه ، اية عاصفة ! مِلْ جانباً ، ايها العرّاب ، لعلك تجد الطريق ، وسأبحث أنا في هذا الوقت عنه ، هنا لقد غرّنا الشيطان ، فمضينا نتسكّع في مثل هذه الزوبعة الثلجية! لا تنس الصراخ ، حين تجد الطريق أية كومة من الثلج قذف بها الشيطان في عينيّ !

بيد ان الطريق لم تكن مرئية ، على اية الحال وجال العرّاب ، المتقهقر في الطريق ، في حذائه الطويل ذهاباً وإياباً ، وأخيراً اتخذ وجهته رأساً الى الحانة إن هذه اللقطة قد افرحته للغاية ، لدرجة انه نسى كل شيء ، فدلف الى المدخل ، نافضاً الثلج عن نفسه ، غير قلق ولو مثقال ذرة على رفيقه المتبقّي في الشارع وفي هذه الاثناء تراءى لتشوب انه وجد الطريق ، فأقبل يصرخ بملء حنجرته ، متوقفاً حيث هو ، ولكنه ، إذ رأى ان العرّاب غير موجود عزم على المضيّ وحده وسار شيئاً ، فرأى بيته كانت تلال الثلج ترقد حوله وعلى سطحه فانخرط ، صافقاً بيديه المتجمدتين من البرد ، يطرق الباب ويهتف بلهجة آمرة بابنته لتفتح الباب

ــ ما الذي يلزمك ؟ ــ صرخ متوعداً الحداد الماضي لفتح الباب .

وإذ تميز تشوب صوت الحدّاد ، انتكص شيئاً الى الوراء «ايه ، كلا ، ليس هذا بيتي ، ــ قال هو مخاطباً نفسه ــ فالى بيتي لن يجرؤ الحدّاد أن يأتي ولكن من جهة اخرى ، ان اجتلى ببصره هو البيت جيداً ، فانه ليس بيت الحدّاد أيضاً إذن ، بيت مَن هذا ؟ يا لها من مفاجأة ! كيف لم اعرف ! انه بيت ليفتشنكو الأعرج ، الذي تزوج قبل أمد قصير من فتاة شابة فان لديه وحده بيتاً شبيهاً ببيتي لقد لاح لي غريباً بعض الشيء ، منذ البداية ، انني بمثل هذه السرعة وصلت الى البيت وعلى أية حال فان ليفتشنكو هذا قد اتخذ مكانه الآن لدى الشماس ، اني أعرف هذا فلماذا الحدّاد هنا اذن ! ايه هـ ــ هه ! إنه يأتي الى زوجة لفتشنكو الشابة ها هو بيت القصيد اذن ! حسناً ! الآن فهمت كل شيء» .

ــ من أنت ولماذا تتسكّع عند الابواب ؟ ــ نطق الحدّاد بصوت أجسى من ذي قبل ، وقد بات اكثر اقتراباً منه

«كلا ، لن اقول له من انا ، ــ فكّر تشوب :

أيّ خيرٍ هنا ، فلعله سيقتلني ، هو الحرضة اللعين ! — وأجاب ، مغيراً صوته

— انه أنا ، انسان طيب! جئتكم لانشد الكولادا ، قليلاً ، تحت النوافذ

— فلتذهب الى الشيطان انت واناشيدك هذه ! — صرخ فاكولا بغضب. — لماذا تقف ، أتسمع ، انصرف الآن !

كان تشوب ذاته قد اقتنع وتملّكته هذه النية الحكيمة في الانصراف فعلاً ولكن لاح له مؤسفاً جداً ان يكون مضطراً للانصياع لأوامر الحدّاد وبدا ، كما لو ان روحاً ما شريرة قد لزّته تحت مرفقه فاضطرته الى ان يقول شيئاً ما على العكس تماماً

— لماذا انت ، قد ملأت الدنيا صراخاً ، في الواقع ؟ — نطق هو بذات الصوت ، — كل ما اريد هو انشاد الكولادا ، وكفى

— أهه ! من الكلمات فقط لن تثوب الى رشدك !.. — وعلى اثر هذه الكلمات أحسّ تشوب بضربة مؤلمة في كتفه

— ها أنك انت ، كما أرى ، تبدأ العراك ! — نطق بهذا متقهقراً شيئاً

ــ وَلّ ! وَلّ ! ــ صرخ الحدّاد ، مانحاً تشوب ضربة اخرى

ــ ما دهاك ! ــ نطق تشوب بهذا بصوت انعكس فيه الألم والأسى ، والتهيب . ــ انت كما أرى لا تمزح في عراكك ، والى ذلك فانت تعارك بشراسة !

ــ وَلّ ! وَلّ ! ــ صرخ الحدّاد وصفق الباب

ــ انظر ، كيف تشجّع ! ــ قال تشوب ، باقياً لوحده في الشارع . ــ حاول ان تقترب ! انظر ، أيّ إنسان هذا ! سترى أمري ! أتعتقد انني لن أجد محكمة تدينك ؟ كلا ، يا صاحبي ، سأمضي ، سأمضي رأساً الى القوميسار ستعرف مَن أنا ! انا لا انظر الى أنك حدّاد ونقّاش غير أنه لو نُظِر الى ظهري وكتفيّ ، فاني لأعتقد انه توجد كدمات زرق . يُحتَمل ، انك ضربت بقوة يا ابن اللعين ! أسفاً ، أن الدنيا باردة ، كما ليس بودّي ان اطرح المعطف الدافئ ! مهلاً ، ايها الحدّاد الكلب ، ليت الشيطان يعصف بك ، وبدكان حدادتك ! سأرقصك امامي ! أترى أيها الوغد اللعين ! ومهما كان الامر ، فانه غير موجود في البيت أعتقد ان صولوخا تقعد لوحدها هم انها غير بعيدة من هنا ، فلو مضيت اليها ! إنه لوقت

لن يستطيع فيه أحد العثور علينا لعلي ساستطيع ان أدرك بغيتي أترى ، كيف اوجعني الحداد اللعين ضرباً !

وهنا ، اتجه تشوب ، وقد حكّ ظهره ، الى جانب آخر لقد هوّنت المتعة التي تنتظره في الالتقاء بصولوخا ، من شأن الألم الذي لحق به ، وجعلته لا يحسّ حتى بالصقيع ، الذي كان يئزّ في كافة الشوارع ، بصفير عاصف لا يهدأ ومن وقت لآخر كانت تلوح على وجهه ، الذي نثرت عليه العاصفة رذاذ الثلج ، الذي غمرت به لحيته وشاربيه ، بشكل أشد سرعة ونشاطاً من أيما حلاق ، يستعين في حلاقة وجه ضحيته بامساكه من أنفه ، كانت تلوح على وجهه هذا سيماء الرضا والقناعة غير انه ، لو لم يكن الثلج يعصف بكل شيء امام العينين ، اذن لكان ممكناً لأمد طويل رؤية كيف توقّف تشوب ، وحك ظهره ، ليقول « لقد أوجع الحدّاد اللعين في ضربي ! » وانطلق من جديد في الطريق

وفي الوقت الذي كان فيه الغندور النشناش ذو الذيل واللحية المعزية قد طار من المدخنة ، وعاد اليها

بعد ذلك ، فان الحقيبة التي كانت معلقة على جنبه والتي أخفى فيها القمر السليب ، قد علقت صدفة بالموقد في المدفأة ، فانفتحت ، وطار القمر ، منتهزاً هذه الفرصة ، عبر مدخنة بيت صولوخا ، وارتفع معوّما في السماء ونوّر كل شيء وكأن العاصفة لم تكن وتكدّس الثلج حقلاً فضياً واسعاً وانتثر نجوماً بلورية وكأن الصقيع قد فتر ، فدفأ الجو وظهرت حشود الفتيان والفتيات مع الاكياس ودوّت الاغاني ، وقلما كان هناك بيت لم تحتشد حشود المغنين حوله وهم ينشدون اناشيد الكولادا

كان القمر يتألق على نحو ساحر ! وانه ليصعب وصف مدى روعة التدافع في مثل هذه الليلة بين حشود الفتيات الضاحكات ، المغنّيات وبين الفتيان المستعدين لكافة النكات والابتكارات، التي لا يمكن لليلة الضاحكة الجذلة ان توحي بسواها ويستشعر المرء الدفء تحت المعطف السميك ، من فرو الضأن ، فيما تلتهب الخدود التهاباً من الصقيع اما على العبث ، فالشيطان وحده هو الذي يدفع الانسان

واقتحمت حشود الفتيات باكياسهن بيت تشوب ، وتكأكأت على اوكسانا وأصم الحدّاد الصراخ ،

والضحك ، والاقاصيص كن يسرعن لمقاطعة بعضهن بعضاً في تحديث الحسناء بشيء ما جديد ، وافرغن الاكياس ، وجعلن يتفاخرن بصنوف الخبز الرقيق المستوي ، والسجق ، والفارينيكي ، التي أفلحن في جمعها اثناء الانشاد وبدا ، ان اوكسانا كانت في ذروة البهجة والسرور ، فكانت تثرثر تارةً مع هذه وتارةً مع تلك ، وتضحك دون انقطاع وتطلّع الحدّاد الى مثل هذا الجذل بشيء من الحسد والأسى ولعن هو ، في هذه المرة ، انشاد الكولادا ، ولو انه نفسه كان يجنّ سروراً بها سابقاً

ــ أي ، يا اوداركا ! ــ قالت الحسناء المرحة ، ملتفتة إلى إحدى الفتيات ، ــ إن لديك خفّين جديدين ! آه ، ما أروعهما ! وبالذهب ! ما افضل حالك ، يا اوداركا ، فان لديك ذلك الانسان الذي يبتاع من اجلك كل شيء ، اما انا فلا أجد أحداً يحصل لي على امثال هذين الخفّين الجديدين

ــ لا تحزني ، يا غاليتي اوكسانا ! ــ بادر الحدّاد ــ سأجدنّ لك ذنيك الخفّين ، اللذين قلّما تحملهما قدما آنسة

ــ انت ؟ ــ قالت هي بسرعة ، وقد نظرت

اليه بتعالٍ . — سأرى ، أين ستجد لي الخفّين اللذين تستطيع قدماي حملهما أفحقاً ستأتيني بذات الخفّين اللذين تنتعلهما القيصرة

— أترين ، ما اعظم طلبتك ! — ضجّ بالضحك حشد الفتيات

— أجل ، — واصلت الحسناء متشامخة ، — ستكونن جميعاً شاهدات إذا ما أتاني الحدّاد فاكولا بذات الخفّين اللذين تنتعلهما القيصرة ، فهاكنّ كلمتي سأتزوجنّ منه في الحال

ومضت الفتيات بالحسناء الدلعة

— اضحكن ! اضحكن ! — قال الحدّاد ، خارجاً في اثرهن . — إنني ذاتي أضحك من نفسي ! كلما أعملت فكري لا استطيع أن أدرك إلى أين مضى عقلي إنها لا تحبّني ! — حسناً ، فليكن ! لكأن الكون خلا إلا من اوكسانا ! الحمد لله ، انه يوجد سواها الكثير من الفتيات الرائعات في القرية ومَن تكن اوكسانا ؟ لن تكون ربّة بيت طيبة قط ، انها استاذة فقط في التأنق كلا ، كفى ، لقد آن الأوان للكفّ عن التحامق

ولكن في ذات الوقت الذي استعدّ فيه الحدّاد

ليحزم أمره ، كانت روح شريرة قد خفقَت أمامه بالصورة الضاحكة لاوكسانا ، القائلة بضحك واستهزاء « ايتيني، يا ايها الحدّاد، بخفّي القيصرة وسأتزوجك ! » وهاجَت كل جارحة فيه ، وفكّر هو فقط باوكسانا وحدها

كانت حشود المنشدين ، الفتيان والفتيات ، كلاً ، على انفراد ، تنتقل بسرعة من شارع لآخر ولكن الحدّاد مضى ولم ير شيئاً ولم يشارك في هذه المباهج ، التي احبها اكثر الجميع ، وقتاً من الأوقات

إلا أن الشيطان في هذه الاثناء قد تمادى في ملاطفة صولوخا كان يقبل يدها بتلك الامائر والاشارات ، على نحو ما يفعل محلف القضاء عند زوجة القسّ ؛ كما أشار الى حبّه لها ، وتأوّه ، وقال بصراحة ، انها إن لم توافق على إرضاء شهواته ، واجازته بما ينبغي ، كما ينبغي لدى المتحابّين، فانه مستعد لكل شيء رمي نفسه في الماء اما الروح فتوجيهها مباشرة الى الجحيم ولم تكن صولوخا قاسية الى هذا الحد ، والى ذلك ، فان الشيطان ، كما هو معلوم ، قد عمل معها سوية وهي كانت تحب

ان ترى الجمع الملتفّ المحوّم حولها ، وقلّما كانت دون صحاب وعلى اية حال ، فانها ارتأت ان تقضي هذه الأمسية وحدها ، وذلك لان كل وجهاء القرية قد دعوا الى بيت الشماس لاكل عصيد الحنطة والتسلي لكن كل شيء مضى على نحو آخر فما إنْ قدم الشيطان مطلبه لتوّه ، حتى سُمع فجأة صوت العمدة ، القويّ الأصلاب ، ومضت صولوخا لتفتح الباب، اما الشيطان النشناش فقد انسلّ الى أحد الاكياس واختفى فيه

وحدّث العمدة ، نافضاً عن نفسه ذرات الثلج ، وشارباً قدحاً من الفودكا قدمته له صولوخا ، حدثها بأنه لم يمض الى الشماس ، لأن العاصفة الثلجية ثارت ، وانه إذ رأى النور في بيتها ، عرج عليه ، بغية قضاء الامسية معها

وما كاد العمدة ينهي كلامه ، حتى سمع في الباب طرق ، وصوت الشماس

ـ اخفيني في مكان ما ، ـ همس العمدة . ـ لا اريد الآن الالتقاء بالشماس

وفكّرت صولوخا طويلاً بالمكان الذي تخفي فيه مثل هذا الضيف البدين ، وأخيراً اختارت اكبر

اكياس الفحم ، ونثرت الفحم في البرميل ، اما العمدة القويّ الأصلاب فقد أنسلّ بشاربيه ورأسه وقبعته الواسعة التي تغطي الاذنين ، الى الكيس

دخل الشماس ، متنحنحا ، فاركا يديه ، وقال انه لم يأته أحد ، وانه جدّ مسرور لهذه المناسبة السعيدة لكي يلهو قليلاً عندها ، وانه قد قدم دون ان يرتعب من العاصفة الثلجية وهنا أوغل هو في الاقتراب منها ، وسعل ، وضحك ، ولمس باصابعه الطويلة يدها المكتنزة العارية ، وقال على نحو ارتسم فيه كل من الدهاء والرضا عن النفس معاً

ـ ما هذا الذي لديك ، يا صولوخا الرائعة ؟

ـ وانفصل ، اذ قال هذا ، قليلاً الى الوراء

ـ كيف ماذا ؟ إنها يد، يا أوسيب نيكيفوروفيتش!

ـ أجابت صولوخا

ـ هم ! يد ! هه ! ـ نطق ، برضا خالص عن بدايته هذه ، ومضى ينقّل خطاه في الغرفة

ـ وما هذا ، يا صولوخا الغالية ؟ ـ قال هذا بذات الشكل السابق، مقترباً منها من جديد ، ومحتضناً رقبتها بلطف ، ومبتعداً بذات الطريقة الى الوراء .

ـ كأنك لا ترى ، يا اوسيب نيكيفوروفيتش !
ـ أجابت صولوخا ـ انها الرقبة ، وعلى الرقبة عقد
ـ هم ! على الرقبة عقد ! هه ! هه ! هه ! ـ وخطا الشماس من جديد في الغرفة ، فاركاً يديه
ـ وما هذا لديك ، يا صولوخا الفريدة ؟ . . ـ لم يكن معلوماً ما الذي كاد الشماس يمسّه بأصابعه الطويلة ، حين سُمع فجأة طرق في الباب وصوت القوزاقي تشوب
ـ آه ، يا إلهي ، وجه غريب ! ـ صرخ الشماس في رعب . ـ ماذا سيحدث معي لو ادركوني بمقامي هنا الآن ؟ سيبلغ الأمر الأب كوندرات !
لكن مخاوف الشماس كانت من نوع آخر فقد خاف اشد الخوف ان تعرف قرينته ، التي كانت ، أصلاً ، ومن دون هذا و ذاك ، قد صيّرت جديلته الثخينة في غاية النحافة
ـ لخاطر الله ، يا صولوخا الفاضلة ، ـ قال هو مرتجفاً بكامل بدنه . ـ إن طيبتك ، كما يقول الرسول لوكا في الانجيل ، الفصل الثالث عش
عش إنهم يطرقون ، قسماً بالله يطرقون ! أوه ! اخفيني في مكان ما !

رمت صولوخا الفحم في البرميل من كيس آخر ، وانسلّ جسم الشماس غير البدين اليه ، وجلس في اعماق قعره ، بحيث كان يمكن معه ان يُرمى حوالي نصف كيس من الفحم فوقه

ـ مرحباً ، يا صولوخا ! ـ قال تشوب ، دالفاً الى البيت لعلك لم تنتظريني ، ها ؟ أحقاً ، لم تنتظري ؟ لعلي ضايقتك ؟ . ـ استطرد تشوب ، كاشفاً في وجهه عن سيماء مرحة ، معبّرة ، ألمحت الى ان رأسه الاخرق قد كدّ واستعدّ لاطلاق نكتة لاذعة ، خفيّة المغزى . ـ لعلك هنا قد تسلّيت مع أحد ما؟ لعلك قد أخفيت أحداً ؟ ـ وضحك تشوب ، معجباً بملاحظته ، فرحاً في سرّه ، أنه هو وحده فقط يتمتع بعطف صولوخا . ـ حسناً ، يا صولوخا ، هلمّ بنا نشرب شيئاً من الفودكا أعتقد ان حنجرتي قد تجمدت من الصقيع اللعين واعجبا أرسل الله الينا مثل هذه الليلة في عيد الميلاد بالذات ! كيف اجتاحتني ، اتسمعين ، يا صولوخا ، كيف اجتاحتني العاصفة ايه ، لقد تخشّبت يداي من البرد لا استطيع ان افتح ازرار فروتي ! اوه ، كيف ثارت العاصفة . . .

– افتحي ! – دوى في الشارع صوت ، مشفوع بدفعة في الباب

– أحدهم يطرق – قال تشوب متوقفاً

– افتحي ! – صرخ بصوت أعلى من السابق

– إنه الحدّاد ! – قال تشوب ، وأمسك بقبعته العريضة التي تغطي الاذنين . – صولوخا ، اتسمعين خبئيني اينما تريدين لست أريد ، مهما كان الثمن ، أن أظهر امام هذا الحرض اللعين ، ليت الدواهي تدهاه ، ابن الشيطان ، ليت كلتا عينيه تنتفخان ويُمحق بصره !

اما صولوخا ، المرتعبة هي نفسها ، فقد جعلت تدور كالمجنونة ، ولنسيانها وذهولها التام ، المحت الى تشوب أن ينسلّ الى ذات الكيس الذي كان الشماس قد جلس فيه ولم يجروء الشماس المسكين حتى على أن يسعل ، او يظهر الألم الممضّ بانين حين اتخذ مقعده على رأسه تقريبا رجل غليظ ثقيل ، ووضع حذائيه الطويلين المتجلّدين من الصقيع على كلا صدغيه

دخل الحدّاد ، دون ان يتفوّه بكلمة ، ودون ان يطرح قبعته ، وارتمى على الدكة تقريباً وكان بالامكان ملاحظة ان مزاجه في غاية السوء

وفي ذات الوقت نفسه ، حين كانت صولوخا قد اغلقت الباب وراءه ، طرق أحدهم من جديد كان هذا هو القوزاقي سفيربيغوز ولم يكن ممكناً إخفاء هذا في كيس ، ذلك لأنه من الصعب العثور على مثل هذا الكيس فقد كان أثقل بدناً من العمدة ذاته ، وأطول قامة من العرّاب تشوب ولذلك فان صولوخا مضَت به الى الحاكورة ، كي تسمع منه كل ما جاء يريد إعلانه

جال الحدّاد ببصره ، ذاهلاً ، زوايا بيته ، مستمعاً ، من وقت لآخر ، الى اغاني الكولادا المترددة بعيداً ؛ وأخيراً سمّر بصره على الاكياس « لماذا ترقد هنا هذه الاكياس ؟ كان يلزم منذ أمد طويل إخراجها من هنا لقد تبلّدت تماماً بسبب هذا الحبّ الغبي غداً عيد ، ولكن في البيت حتى الآن كل سقط متاع فلأنقلها الى دكان الحدادة ! »

وهنا قعد الحدّاد الى الاكياس الضخمة ، وشدّها وثيقاً ، واستعد لالقائها على كتفيه ولكن كان واضحاً ان افكاره كانت تجول مضطربة ، لا يعلم الا الله أين مستقرّها ، وإلا لكان قد سمع الصوت الذي أطلقه تشوب ، حين لوى بشعر رأسه الحبل الذي رُبط به

الكيس ، وكيف استبدّ بالعمدة القوي الاصلاب الفواق فجعل يشهق بصوت واضح تماماً

– افحقاً لا تبارح ذهني هذه اوكسانا الخبيثة هذه ، – قال الحدّاد ، – إني لا أريد التفكير فيها ، ومع ذلك فاني افكر فيها طوال الوقت ، وكما لو ان الأمر عمد ، فاني افكر فيها وحدها من اين يحدث هذا ؟ كيف تزحف الفكرة رغم الارادة الى الذهن ؟ سحقاً للشيطان ، لقد صارت الأكياس أثقل من السابق ! لعلّه قد وضع هنا شيء آخر ما خلا الفحم أحمق انا ! لقد نسيت أيضاً ، ان كل شيء يبدو لي الآن أثقل من السابق . سابقاً كنت أستطيع بيد واحدة لوي وتقويم قطعة نقد نحاسية صلبة وحدوة فرس ، اما الآن فلا استطيع رفع اكياس الفحم قريباً سأهوى من الريح وحدها كلا ، – صرخ هو ، صامتاً ومتنشطاً ، – أية امرأة أنا ! لن أتيح لأحد الضحك مني ! ولو عشرة اكياس مثل هذه ، سأرفعها ، سأرفع كل شيء . – وألقى بهمة على كتفيه الأكياس التي لم يكن ليستطيع حملها رجلان قويا الأصلاب . – فلآخذ هذا أيضاً ، – واصل هو ، رافعاً كيساً صغيراً ، كان قد جلس في قعره الشيطان الذي كان قد تقرفص. – يبدو لي انني

قد وضعت هنا أدواتي . ــ قال هذا ، وخرج من البيت ، صافراً بأغنية

لا يهمّني أمر زوجتي ، فلن أتعرض لها

وتردّدت الاغاني والصراخ في الشوارع أقوى فأقوى كانت حشود الناس المتدافعة قد تعاظمت عدداً باولئك الذين جاءوا من القرى المجاورة أيضاً وعبث الفتيان وتسلوا بملء حريتهم وغالباً ما كانت تُسمع بين اناشيد الكولادا أغنية مرحة ، أفلح في تأليفها ، في الحال ، احد الفتيان القوزاق وفجأة اطلق أحد الماضين في الحشد ، بدلاً من الكولادا ، اغنية « شيدروفكا » ، وزأر يغنّيها بكل قوته

ايها السخي ايها الكريم
اعطنا الفارينيكي
اعطنا قليلا من العصيد
وطوقا من السجق

وأجيز المبتكر بقهقهة وانفتحت الشبابيك الصغيرة وظهرت أيدي العجائز النحيفة ، التي بقيت وحدها مع الآباء الوقورين في البيوت ، ظهرت من النوافذ الايدي وفيها شيئاً من السجق او قطعاً من الفطائر اما الفتيان والفتيات فقد تلقّوها بالاكياس متنافسين لاصطياد

الغنيمة وفي مكان ما كان الفتيان الذين جاءوا من كل الانحاء قد طوقوا حشداً للفتيات فكان ضجيج ، وكان صراخ ، ورمى أحدهم بحفنة من الثلج ، اختطف آخر الكيس المملوء باشياء متنوعة وفي مكان آخر اصطادت الفتيات فتى ، كعبلن قدمه ، فطار هو سوية مع الكيس كالسهم متهاوياً على الأرض وبدا ، كما لو ان الفتيان والفتيات كانوا مستعدين لقضاء الليلة بكاملها في المرح واللهو وضاء الليل بسخاء ، كأن الامر عمد ! وتراءى أشد ألقاً وسطوعاً نور القمر بسبب لمعان الثلج

وتوقّف الحداد مع اكياسه فقد خُيّل اليه ، انه سمع في حشد صوت اوكسانا وضحكها الرقيق فاختلجت كل عروقه ، ومشى ، رامياً بالاكياس على الارض بحيث ان الشمّاس الموجود في قعر أحدها أنّ من الصدمة ، وشهق العمدة بكل قوته ، مشى متثاقلاً ، بكيسه الصغير على كتفه سوية مع حشد الفتيان ، الماضين في اثر حشد الفتيات ، الذي سمع فيه صوت اوكسانا

« إذن ، انها هي ! تقف مثل قيصرة ، وتتألق بعينيها السوداوين ! يتحدث اليها فتى جميل القامة

والطلعة ، والظاهر بشيء مسلٍ ، ولذلك فهي تضحك غير انها تضحك دائماً » وشقّ طريقه بصعوبة ، وكأن الامر قد جرى دون ارادته ، دون ان يفهم هو نفسه كيف جرى ، شق طريقه عبر الحشد وصار ازاءها

ــ آ ، فاكولا ، أنت هنا ، مرحباً ! ــ قالت الحسناء بذات الابتسامة التي كادت ان تخرجه من طوره . ــ هل غنمت في انشادك شيئاً كثيراً ؟ ايه ، ياله من كيس صغير! وأين الخفّان اللذان تحملهما القيصرة ، هل أتيتني بهما ؟ ايتيني بهما ، وسأتزوجك ! ــ وجرَت مع الحشد ضاحكة

وقف الحدّاد في ذات المكان مثل عمود مسمّر الى الارض . « كلا ، لا استطيع ، لم تعد لدي قوة ... ــ نطق هو أخيراً . ــ ولكن يا إلهي ، لم هي جميلة بهذه الدرجة الشيطانية ؟ نظرتها ، وأحاديثها ، وكل شيء فيها يحرقني بهذا الشكل ، الجنوني ، يحرقني تماما كلا ، لم أعد اقوى على الصراع مع نفسي ! لقد حان الحين لوضع حدّ لكل شيء ــ فلتهوين أيها الروح سأرمى بنفسي في الثغرة التي في الجليد واغرقها ولن يعود لي أثر ! »

وهنا مضى هو بخطوة واثقة إلى أمام ، ولحق بالحشد ، وحاذى اوكسانا وقال بصوت حازم

ـ وداعاً ، يا اوكسانا ! ابحثي لنفسك عن أي خطيب تريدين ، عن أيما أحمق تبغين ، أما إياي فلن تري بعد الآن في هذه الدنيا

ولاحت على الحسناء دهشة، وأرادت ان تقول شيئاً ما ، ولكن الحدّاد لوّح بيده وجرى

ـ الى أين ، فاكولا ؟ ـ هتف الفتيان ، اذ رأوا الحدّاد الراكض

ـ وداعاً أيتها الاخوة ! ـ صرخ الحدّاد جواباً

ـ فليستمح لنا الله بلقاء في العالم الآخر ، اما في هذا العالم فلم يَعُد لنا ممكناً اللهو سوية، ودائماً، لا تذكروني بسوء ! قولوا للأب كوندرات كي يقيم قداساً على روحي الآثمة انني لم الوّن شموع ايقونات المسيح وأمه بسبب أمور هذه الدنيا كل ما لديّ ، وكل ما يوجد في صندوقي أهبه للكنيسة ! وداعاً !

وإذ فاه الحدّاد بهذا، أقبل يجري من جديد والكيس على ظهره

ـ لقد جن ! ـ قال الفتيان

ـ روح ضالة ! ـ تمتمت بورع عجوز مارة .

ـ سامضي لأحدث الناس كيف شنق الحدّاد نفسه

توقف فاكولا ، الذي كان قد اجتاز عدة شوارع ، توقّف لالتقاط انفاسه «الى أين أمضي انا في واقع الأمر ؟ـ طفق هو يفكر ـ كأن كل شيء قد ضاع سأجرّب وسيلة أخرى سأمضي الى القوزاقي من مدينة زابوروجيه باتسيوك «البطين» إنه كما يقال ، يعرف كافة الشياطين وهو يعمل كل ما يشتهي ويريد سأمضي اليه فان روحي سيان كان الأمر ، محتم عليها الهلاك !

عند ذلك بدأ الشيطان ، الذي كان قد رقد طويلا بلا حراك بالقفز من فرط فرحه الا أن الحدّاد الذي اعتقد ان يده قد علقت عفوا بالكيس واذا فهو نفسه الذي أحدث تلك الحركة فيه ، ضرب الكيس شديداً بقبضته ونفضه فوق كتفيه ومضى الى باتسيوك البطين.

لقد كان باتسيوك «البطين» هذا فعلاً وقتاً من الاوقات ، زابوروجياً * اما كونه طُرد من هناك أو انه نفسه قد فرّ من زابوروجيه ـ فهذا أمر لم يعرفه

---

* زابوروجي ـ يعني قوزاقي من زابورجيسكايا سيج (هي في الاصل منظمة ذات حكم ذاتي للقوزاق الاوكرانيين في القرنين ١٦ ـ ١٨) . الواقعة في منطقة زابوروجيه المترجم

أحد   ومنذ زمن بعيد ، قبل عشرة أعوام ، أو لعله خمسة عشر عاماً ، كان قد عاش هو في ديكانكا وفي البداية عاش هو مثل زابوروجيّ حقيقي   لم يكن يعمل شيئا ، كان ينام ثلاثة أرباع اليوم   ويأكل ما يأكله ستة حاصدين ، ويشرب في المرة الواحدة ملء سطل تقريباً   وعلى أية حال ، كان لديه مستقرّه ، ذلك لأن باتسيوك ، رغم قامته غير الطويلة ، كان من حيث العرض ما فيه كفاية. والى ذلك فان سراويله ، التي كان يحملها ، كانت فضفاضة ، بحيث انه مهما كانت سعة خطوته ، فان قدميه لم يكن بالامكان ملاحظتهما أبداً ، وكان يبدو كما لو انه برميل خمر يتحرك في الشارع   ولعلّ هذا نفسه هو الذي منح الأساس لتسميته « البطين »   ولم تمض عدة أيام بعد وصوله الى القرية حتى عرف الجميع انه حكيم   فما إنّ يتمرّض أحد بمرض حتى كانوا يدعون في الحال باتسيوك   وكان َحسبُ باتسيوك هذا أن يهمس ببضع كلمات حتى يزول الوجع ، كأنه محي   وحدث ان نبيلاً جائعاً اختنق بعظم سمكة   وكان باتسيوك يتقن فن ضرب الظهر بجمع يده لدرجة ان العظم قد خرج إلى حيث ينبغي   دون أن يسبّب أيّما أذى

لحنجرة النبيل وفي الآونة الأخيرة قلما شوهد في مكان ما ولعل سبب ذلك كان الكسل أو لعل المرور عبر الباب كان يزداد صعوبة عليه مع كل عام وإذ ذاك كان على الناس ان يتوجّهوا إليه بانفسهم ، إن كانت بهم حاجة إليه

ولم يفتح الحدّاد الباب دون تهيّب ورأى باتسيوك متربعاً على الأرض ازاء برميل غير كبير كانت عليه آنية خشبية تحتوي الغالوشكي * وكانت هذه الآنية تقف ، خصيصاً ، في مستوى فمه فكان يحني رأسه برفق الى الآنية ، دون ان يحرك ولا اصبعاً واحدة ، ويحتسي الحساء بفمه مباشرة ، مختطفاً بين الفينة والاخرى الغالوشكي باسنانه

« كلا ، إن هذا ، — فكرّ فاكولا في سرّه — لأكسل من تشوب فان ذلك على الأقل يتناول طعامه بالملعقة ، اما هذا فحتى لا يريد أن يرفع يديه !

ولعل باتسيوك كان بالأحرى ، منشغلا جداً بالغالوشكي ، فقد بدا ، انه لم يلاحظ البتّة قدوم

---

*غالوشكي – انها قطع من العجين مسلوقة في الحساء او الحليب وهي أكلة اوكرانية شعبية معروفة المترجم

الحدّاد ، الذي ما إن تجاوز العتبة حتى انحنى له انحناءة احترام كبيرة

— لقد جئت طمعا في لطفك ، يا باتسيوك !

— قال فاكولا ، منحنياً من جديد

ورفع باتسيوك « البطين » رأسه ، وابتدأ من جديد احتساء حساء الغالوشكي

— يقال ، ولا أقول ذلك لأثير غضبك . — قال الحدّاد لامّاً أطراف شجاعته — فاني اتحدث عن ذلك ليس لالحق بك أيما إساءة ، — يقال عنك ، انك كأنما تمتّ للشيطان بصلة ما

وارتعب فاكولا ، إذ قال هذه الكلمات ، متصوراً انه لا زال يعبر عن افكاره بلهجة خشنة وبلطف قليل فى كلماته الحادة ولانه توقّع ان باتسيوك عند هذا قد يختطف البرميل سوية مع الآنية ، سيرميه به مباشرة في رأسه ، ابتعد قليلاً واحتمى بكمّه ، كيلا يرشّه بالحساء الحار مع الغالوشكي في وجهه

غير ان باتسيوك نظر اليه وابتدأ احتساء الغالوشكي من جديد وقرّر الحدّاد المتشجّع الاستمرار

— لقد جئت اليك يا باتسيوك ، وليمنحك الله كل شيء ، وليعطك الوفر من كل الخيرات ، ومن

الزاد بقدر ما تريد ! ـ وكان الحداد يحسن قول الكلمة المناسبة ، الأمر الذي تعلمه حين عمل وعاش في بولتافا، في فترة نقشه سياج الملازم الخشبي . ـ يتولاّني ، انا الآثم ، الهلاك لا محالة ! لا شيء يجديني في هذه الدنيا ! فليكن ما يكون ، فان عليّ أن ألتمس العون لدى الشيطان نفسه ماذا يا باتسيوك ؟ ـ نطق الحدّاد بهذا ملاحظاً صمته

ـ كيف لي ما العمل ؟ "

ـ ما دمت محتاجاً إلى الشيطان ، اذن فامض اليه ! ـ أجاب باتسيوك دون ان يرفع عينيه إليه ، مواصلاً الاجهاز على الغالوشكي

ـ لأجل هذا جئت إليك ، ـ أجاب الحدّاد ، منحنيا ـ فاني لاعتقد انه لا يوجد سواك في الكون ، مَن يعرف الطريق إليه

ولم يفه باتسيوك بكلمة وأتى على ما تبقّى من الغالوشكي

ـ اصنع معروفا أيها الانسان الطيب ، لا ترفض ! ـ انطلق الحدّاد لن أبخل بلحم الخنزير ، أو السجق أو دقيق الحنطة السوداء أو الاقمشة ، أو جريش الدخن ، او اي شيء أخر إذا ما تطلّب

الأمر كما هو العرف عادة لدى الناس الاخيار لن أبخل حدثني ، ولو بصورة تقريبية ، كما يقال كيف لي الوقوع على الطريق اليه ؟

– إن من يقف الشيطان على كتفيه ، لن يلزمه المضي بعيداً ، – نطق باتسيوك بعدم اكتراث ، دون أن يغيّر من وضعه

وسمّر فاكولا عينيه عليه ، كما لو انه قد كُتب على جبهته تفسير هاتين الكلمتين « ماذا يقول ؟ » – كانت سيماؤه تسأل بصمت ، اما فمه نصف المفغور فكان مستعداً لان يبتلع ، كما تُبتلع الغالوشكي ، اول كلمة يقولها باتسيوك غير ان هذا صمت

وهنا لاحظ فاكولا ، انه لم يتبّق امامه لا البرميل ولا الغالوشكي ولكن عوضاً عن هذا كانت آنيتان خشبيتان على الارض ، احداهما مُلئت بالفارينيكي ، والأخرى بالقشدة الرائبة وتسمّرت أفكاره وعيناه ، عفو ارادته ، على هذه المآكل « سننظر – قال هو لنفسه ، – كيف سيأكل باتسيوك الفارينيكي انه ، بالاحرى لن يريد الانحناء ، لاجل الاحتساء ، كما كان الأمر مع الغالوشكي ثم ان ذلك غير ممكن الفارينيكي يلزم تغطيتها بالقشدة الرائبة » .

وما كاد ينهي تأمّله ، حتى كان باتسيوك قد فغَر فاه ، تطلّع الى الفارينيكي ، وعلى نحو أقوى فغر فاه وفي هذا الوقت كانت احدى الفارينيكي قد وثبت بنفسها من آنيتها لتنقذف في القشدة الرائبة ، وتنقلب على جانبها الآخر ، ولتثب الى الاعلى لتقع بالضبط في فمه مضغ باتسيوك ما تلقّاه ، وفغر فاه من جديد ، وانطلقت الفارينيكي على هذه الشاكلة من جديد واذن فهو لم يكلّف نفسه سوى عناء المضغ والبلع

« أترى — أية أعجوبة ! » — طفق الحدّاد يفكر ، فاغراً فاه من فرط ذهوله ، ولاحظ في الحال ان احدى الفارينيكي وثبت لتلتصق بفمه هو ، وقد دهنت شفتيه بالقشدة الرائبة وإذ دفع الحدّاد احدى الفارينيكي عنه ، ومسح شفتيه ، شرع يتأمل أية أعاجيب تقع في الكون ، والى أية ابتكارات تبلغ القوة الشريرة بالانسان ، ملاحظاً ، الى ذلك ، ان باتسيوك لوحده هو الذي يستطيع مساعدته «سألتمسه من جديد ، دعه يفسّر لي الأمر جيداً وعلى أية حال ، أي شيطان هذا ! فان اليوم هو صوم ، اما هو فيأكل الفارينيكي وفارينيكي دسمة ! أيّ أحمق انا ، في واقع

الامر ، أقف هنا واجمع الآثام على نفسي ! عد ادراجك ! » ـــ وفرّ الحدّاد التقي من البيت في لمح البصر

وعلى أية حال ، فان الشيطان الذي كان جالساً في الكيس والمسرور مقدماً ، لم يعد يستطيع الصبر ، كيلا تفلت من يده مثل هذه الفريسة الدسمة. وما إن وضع الحداد الكيس ، حتى طار الشيطان منه ، وحطّ على رقبته

نفذ الصقيع الى عظام الحدّاد ، فارتعب وشحب ، غير عارف ما كان ينبغي عليه عمله ، وقد أراد ان يرسم علامة الصليب غير ان الشيطان انحنى بفطيسته الكلبية على اذنه اليمنى وقال

ـــ هذا أنا ـــ صديقك ، سأعمل كل شيء لصاحبي وصديقي ! ان لدينا من النقود بقدر ما تريد ، صوصأ له بصوت عال بسرعة في اذنه اليسرى . ـــ ستكون اوكسانا اليوم لنا، همس له ، منقلباً بفطيسته على الاذن اليمنى

ووقف الحدّاد متأملاً

ـــ تكرم ، ـــ قال هو اخيراً ، ـــ بمثل هذا الثمن ، انا مستعد ان اكون صاحبك !

وصفق الشيطان بيديه ، وابتدأ من السعادة يقفز على رقبة الحدّاد «آه ! سقطت الآن في قبضتي يا حدّاد ! — فكر هو في سره . — الآن سأسوّى الحساب معك ، أيها العزيز عن كل نقوشك وأساطيرك التي دبرتها عن الشياطين ماذا سيقول الآن صحابي إن علموا ان أتقى إنسان في القرية قد بات في يديّ» ؟ وهنا ضحك الشيطان من السعادة ، متذكراً كيف سيهارش في الجحيم كل زملاءه الشياطين ، وكيف سيجنّ جنون الشيطان الأعرج ، الذي يعتبره الجميع الاول في الابتكارات . — حسناً ، يا فاكولا ! — صوصأ الشيطان ، دون ان يبارح رقبته ، كأنه يخشى أن يفر منه ، — اتدرى ، انه من دون اتفاق لا يتمّ شيء

— أنا مستعد ! — قال الحداد . — لديكم ، كما سمعت يوقّعون بالدم ؛ مهلاً ، ساستخرج من جيبي مسماراً ! — وهنا مدّ يده الى الخلف — وأمسك بالشيطان من ذيله

— أترى ، أي منكّت أنت ! — صرخ الشيطان ، ضاحكاً — حسناً ، كفى كفاك عبثاً ! — مهلاً أيها العزيز ! — صرخ الحداد ، — كيف يبدو هذا بالنسبة لك ؟ — وعند هذه الكلمة رسم علامة الصليب ،

اما الشيطان فاستحال وديعاً ، مثل حمل . — مهلاً ، — قال الحداد ، ملقياً إياه من ذيله على الارض — ستعرف لديّ كيف تدفع الى الآثام الناس الطيبين المسيحيين الشرفاء ! وهنا وثب عليه الحداد ، دون ان يُفلت الذيل ، وثب عليه من اعلى ممتطياً إياه ، ورفع يده ليرسم علامة الصليب

— ارحم ، يا فاكولا ! — أنّ الشيطان شاكياً

— سأصنع كل ما يلزمك ، فقط أبق روحي في سكينتها لا ترسم الصليب الرهيب !

— هنا هو ، اذن ، الصوت الذي غنىّ به الألماني اللعين ! إنني الآن أعرف ما العمل احملني في هذه الساعة على جسمك ! أتسمع ، احملني مثل طير !

— إلى أين ؟ — نطق الشيطان بلهجة حزينة

— الى بطرسبورغ ، الى القيصرة ، رأسا !

وصعق الحداد من الرعب ، وقد أحسّ بنفسه يعوّم محلقاً في الهواء

وقفت اوكسانا أمداً طويلاً ، تتأمل أحاديث الحداد الغريبة . لقد تحدّث في داخلها شيء ما ،

بانها عاملته بمنتهى القسوة فكيف ، إذا كان هو ، في واقع الأمر ، قد اعتزم شيئا ما رهيبا «يا للرهبة ! لعله سيحبّ اخرى ، بسبب حزنه ، بسبب اساه سيسمّيها الفتاة الأولى في القرية ؟ ولكن كلا ، انه يحبني إني لرائعة جداً ! إنه لن يبدّلني بأخرى بأيّما ثمن انه يعبث ، يتظاهر لن تمرّ عشر دقائق ، حتى يأتيني ليراني أنا في واقع الأمر قاسية ينبغي ان أسمح له ، وكما لو اني لا أريد ذلك ، بتقبيلي هنا بيت قصيده ، ومنبع سروره ! » وجعلت الحسناء المتقلبة الاطوار تمزح مع صديقاتها

— مهلا ، — قالت إحداهن ، — لقد نسى الحداد أكياسه انظرن أية أكياس رهيبة ! إنه لم يُؤدّ الكولادا بطريقتنا فانا أعتقد ، انهم رموا له بمعدل ربع جثة خروف ! اما السجق والخبز فبلا حساب ! يا للروعة ! هنا يمكن الاكل اعيادا كاملة

— أهذه أكياس الحداد ؟ — بادرت اوكسانا — فلنأت بها ، بالاحرى اليّ في البيت ، ونتفحّص جيداً ما الذي غنمه في الكولادا

وأقررن جميعهن ضاحكات ، هذا الاقتراح

— ولكننا لن نستطيع حملها ! — صرخ الحشد

كله فجأة ، جاهداً بقوته تحريك الاكياس من مكانها

ــ مهلاً ، ــ قالت اوكسانا ، ــ فلنأت بالمزالق وننقلها عليها !

وعدا الجمع كله ليأتي بالمزالق

اما الأسرى فقد ضجروا وهم في الاكياس ، ولو ان الشماس قد فتح باصبعه ثقباً مناسباً ولو لم يوجد ناس فلعله ، اذن ، قد وجد وسيلة للانسلال ، ولكن كيف يكون الانسلال من الكيس بمرأى الجميع ، ووضع النفس موضع السخرية إن هذا هو الذي صدّه ، وقرّر هو الانتظار ، والاكتفاء بالتزحزح قليلاً تحت حذاء تشوب الفظ ولم يكن تشوب نفسه بأقلّ منه رغبةً في التحرّر ، وهو يحس ان تحته يرقد كائن ما ، يكون الجلوس عليه شيئاً من المخاطرة ولكن ما إنْ سمع بقرار ابنته ، حتى تطامن ولم يعد يريد الخروج ، معتقداً انه يلزمه للمضي إلى بيته حوالي المائة خطوة على الأقل ، او لعله مائتين ثم ان عليه حين يخرج ان يصلح ذات الشأن ، وان يقفل ازرار المعطف الشتائي ، وان يشدّ الحزام ــ أوه ، كم من الاعمال يلزمه ! والى ذلك ، فان القبعة

بقيت عند صولوخا فالافضل ، اذن ، ان يدع الفتيات ينقلنه على المزالق ولكن حدث عكس ما توقّع تشوب ففي ذات الوقت الذي جرت فيه الفتيات سعياً وراء المزالق ، كان العرّاب الضامر قد خرج من الحانة فاتر الهمة فان صاحبة الحانة لم تجرؤ بحال على ان تطعمه خمراً بالنسيئة وأراد ان ينتظر علّ نبيلاً ورعاً فينعم عليه بخمر ولكن ، كأن الأمر عمد ، بقي كافة النبلاء في بيوتهم ، وكمسيحيين شرفاء تناولوا عصيد الحنطة بالعسل ومغليّ الفواكه الجافة بين ذويهم ووقع في غمرة تأملاته حول انحلال المثل والقيم ، وحول القلب المتخشّب لليهودية البخيلة ـ بائعة الخمر ، وقع على الاكياس ، فتوقف في انشداه

ـ أترى ، أية أكياس رماها أحدهم في الطريق !

ـ قال هو ، ناظراً الى ما حواليه ـ ينبغي ان يكون هنا لحم خنزير لقد هبطت السعادة على أحدهم ، فغنم في الكولادا هذه الصنوف المختلفة ! أية أكياس رهيبة ! فلنفترض انها مليئة بخبز الحنطة السوداء او بالخبز الحلو ، فذلك ايضاً خير ومتاع بل حتى اذا كانت مليئة بالخبز الصغير المستوي من القمح ولوحده ، فهذا أيضاً متاع فان بائعة الخمر اليهودية

البخيلة تعطي عن كل رغيف من خبز القمح المستوي جرعة من الفودكا الأرجح ان اختطفها كيلا يراها أحد . ــ وهنا ألقى على كتفه الكيس الذي كان فيه تشوب مع الشماس ولكنه أحسّ بانه ثقيل للغاية . ــ كلا سيكون الحمل ثقيلا جداً علي وحدي ، ــ تمتم هو ، ــ ها ان الحائك شابوفالنكو يسير كأنه جاء خصيصاً مرحباً يا اوستاب

ــ مرحباً ، ــ قال الحائك ، متوقفاً

ــ الى أين تمضي ؟

ــ هكذا ، دون قصد أمضي الى حيث تحملني قدماي

ــ ساعدني ، أيها الرجل الطيب في حمل الاكياس ! لقد غنم أحدهم في الكولادا كل هذا ورماه وسط الطريق سنقتسم المتاع مناصفة

ــ اكياس ؟ أي شيء في هذه الأكياس ؟

ــ إني لأعتقد ان يوجد هنا كل شيء

وهنا ، اقتلعا على عجل ، عصياً من سياج الاغصان المجدولة وضعوا عليها كيساً وحملاه على اكتافهما

ــ الى أين نحمله ؟ أإلى الحانة ؟ ــ سأل الحائك في الطريق .

— هكذا فكرت انا   ان نمضي الى الحانة غير ان اليهودية البخيلة بائعة الخمر اللعينة لن تثق بنا ، ستتصوّر اننا سرقنا هذا في مكان ما   زد على ذلك انني غادرت الحانة لتويّ   سنحمله الى بيتي فهناك لن يضايقنا أحد   فزوجتي ليست في البيت

— امضبوط انها ليست في البيت ؟ — سأل الحائك الحذر

— الحمد لله   اننا لم نفقد رشدنا بعد ، — قال العرّاب   — والا فليس سوى الشيطان كان سيحملني الى حيث هي   انها ، كما أعتقد ، تجول مع النساء حتى يذرذر الفجر نوره

— مَن هناك ؟ — هتفت زوجة العرّاب ، وقد التقطت اذناها ضجيجاً في المدخل ، سبّبه قدوم الصديقين بالكيس ، وفتحت الباب

فتخشّب العرّاب

— هاك خذها ! — نطق الحائك ، مسبلاً يديه

وكانت زوجة العرّاب هذه   كنزاً » يكثر امثاله في الكون   فانها ، شأنها شأن زوجها ، لم تكن تقعد في بيتها قط ، وطوال اليوم تقريباً كانت تطوف لدى

العرّابات والعجائز الثريّات وكانت تمتدح وتأكل بشهية عظيمة ، وكانت لا تشاجر زوجها الا صبحاً ، وذلك لأنه في هذا الوقت فقط كانت تراه احياناً وكان بيتها أعتق بمرتين من سروال كاتب الناحية ، وكان السقف في بعض الأماكن دونما قشّ وكان لا يرى من سياج البيت الا البقايا ، وذلك لأن كل من يخرج من بيته لم يأخذ معه قط عصا يحمي بها نفسَه من الكلاب ، بأمل ، انه سيمرّ بجنب حاكورة العرّاب ويقتلع أيما عود من سياجها ولم توقد نار المدفأة الا كل ثلاثة أيام إن كل شيء مما كانت تسأله الزوجة الرقيقة لدى الناس الطيبين ، كانت تخفيه كلما أمكنها بعيداً عن زوجها ، وغالباً ما كانت تسوّغ لنفسها شخصياً ان تحرمه غنيمته ، إن لم يكن قد أفلح بعد في الأجهاز عليها في الحانة ولم يكن العرّاب رغم لا أباليته الدائمة ، يحب ان يتنازل لها ، وبسبب هذا كان على الدوام تقريباً يخرج من البيت مع بقع زرقاء تحت كلتا عينيه ، اما نصفه اللطيف ، فكانت تجرجر قدميها ، متأوّهة ، تحكي للعجائز عن تعسّف زوجها بها وعن الضرب المبرّح الذي تتلقاه منه

واذن فالآن يمكن للمرء أن يتصوّر كم اغتمّ الحائك والعرّاب بمثل هذه الظاهرة غير المتوقعة وإذ انزلا الكيس ، انهدّا يحمياه بنفسيهما ، وستراه بطرفي ثوبيهما ؛ ولكن فات الوقت فان زوجة العرّاب ، رغم انها كانت لا ترى جيداً بعينيها الهرمتين ، ومع ذلك فقد لاحظت الكيس

– إن هذا لرائع ! . – قالت هذا بشكل كانت تُرى فيه فرحة الصقر إذ يرى فريسته ان هذا لرائع انكم جمعتم في الكولادا مثل هذا المقدار ! هكذا دائماً يصنع الناس الطيبون ؛ فقط ، كلا ، إني أعتقد انكما التقطتماه في مكان ما أرياني إياه على الفور ! اتسمعان ، أرياني كيسكما الآن بالذات !

– لعل الشيطان الأصلع يريك إياه ، لا نحن ! – قال العرّاب ، متخذاً وضعية الوقار والجلال

– ما شأنك بهذا ؟ – قال الحائك ، – نحن جمّعنا هذا ، لا أنتِ

– كلا ، ستريني ، ايها السكير اللئيم ! – صرخت الزوجة ، ضاربة العرّاب الطويل بجمع يدها في ذقنه ، شاقةً طريقها نحو الكيس

بيد ان العرّاب والحائك ذادا عن الكيس

بشجاعة وأرغماها على التقهقر حتى إذا أفلحا في اصلاح شأنهما، ركضت الزوجة الى المدخل ورجعت من هناك مع مسعر في يديها وضربت يدَي الزوج بسرعة بالمسعر ، اما الحائك ففي ظهره ، واتخذت مكانها واقفةً بجنب الكيس

ـ لماذا سمحنا لها ؟ ـ قال الحائك ، وقد صحا على نفسه

ـ ايه ، لماذا سمحنا لها ؟ لكن لماذا أنت سمحت لها ؟ ـ قال العرّاب بعدم اكتراث

ـ الظاهر ان مسعركم حديديّ ! ـ قال الحائك بعد صمت قصير ، هارشاً ظهره . ـ لقد اشترت زوجتي في العام الماضي مسعراً في السوق دفعت ثمناً له خمسة وعشرين كوبكا . ـ ذلك لا شيء . لا يؤلم

وفي هذه الاثناء كانت الزوجة المنتصرة قد فتحت الكيس ، واضعة القنديل على الأرض ، حملقت فيه ولكن لعل عينيها الشائختين ، اللتين رأتا الكيس خير الرؤية ، قد خدعتاها هذه المرة

ـ ايه ، يرقد هنا خنزير كامل ! ـ هتفت هي وصفقت بيديها بسرور

ـ ايه يرقد هنا خنزير كامل ! ـ لزّ الحائك العرّاب ـ تظل أنت المذنب في كل شيء !

ـ ما العمل ! ـ نطق العرّاب ، هازّاً كتفيه

ـ كيف ماذا ؟ لماذا نقف ؟ فلنختطف الكيس ! حسناً ، هيا ، ابدأ !

ـ وَلّي الى سَقَر ! ولّي ! ان هذا خنزيرنا !

ـ صرخ الحائك هاجماً

ـ ولّي ! ولّي ! ايتها المرأة الشيطانة ! ان هذا ليس بمتاعك ! ـ قال العرّاب مقترباً

وهرعت الزوجة ، من جديد ، الى المسعر ، غير ان تشوب انسلّ خارجاً ، في هذا الوقت ، من الكيس ، ووقف وسط المدخل ، متمطياً مثل انسان استيقظ بعد رقود طويل

فصرخت زوجة العرّاب ضاربةً على جانبيها بيديها وفغَر الجميع أفواهم ، دون ارادتهم

ـ لماذا ، تلك الحمقاء ، تقول خنزير ! ان هذا ليس بخنزير ! ـ قال العرّاب محملقا

ـ أترى ، أي إنسان رمَوا في الكيس ! ـ قال الحائك ، متقهقرا من مكانه من فرط رعبه . ـ قل ما شئت ، فعبثاً تحاول الاقناع ، فانهم هنا لم يقدروا

على هذا من دون قوة شريرة فانه لا يدخل حتى في الشباك

— هذا عرّابنا ! — صرخ العرّاب الاول ، جائلا ببصره

— وانت مَن تصورت ؟ — قال تشوب ضاحكاً . — أرائعة نكتتي التي جئتكم بها ؟ اما انتم فعلى الارجح اردتم اكلي بدلا من لحم الخنزير مهلاً ، سأفرحكم ففي الكيس يرقد شيء ما — إن لم يكن خنزيراً ، فهو على الارجح فرخ خنزير ، أو حيوان آخر فقد كان شيء ما يتحرك تحتي طوال الوقت

فاندفع الحائك والعرّاب الى الكيس ، وانقذفت ربّة البيت من الجانب المقابل ، وكان يمكن أن يتجدّد العراك ، لو لا ان الشماس ، وقد رأى الآن انه لم يَعد لديه مكان ما يختفي فيه ، تسلق زاحفاً من الكيس

وأفلتت زوجة العرّاب من يديها ، وقد تخشّبت ، الرجل التي بدأت تسحب بها الشماس من الكيس

— وها هو آخر أيضاً ! — صرخ الحائك برعب — إن الشيطان وحده يعرف ما الذي حلّ بهذا العالم إن رأسي يدور لا بالسجق ولا بالفطائر وإنما بالناس .. جعلوا يقذفون في الأكياس !

ـ إن هذا هو الشماس ! ـ نطق تشوب متعجباً اكثر الجميع . ـ عجائب ! يا لشطارة صولوخا ! ان تضع في الكيس تلك هي المسألة ، وهذا هو سبب أن أرى بيتها مليئاً بالاكياس الآن أفهم كل شيء إذن قد جلس لديها في كل كيس بمعدل شخصين اما انا فقد تصورّت انها لي وحدي هاك خذ ما فعلت صولوخا !

عجبت الفتيات بعض الشيء ، اذ افتقدن كيساً واحدا «لا خيار في الامر ، ان علينا ان نحمل هذا » ـ تمتمت اوكسانا وأقبلن جميعهن على الكيس وألقينه على المزالق

وقرّر العمدة الصمت ، محاججاً كالآتي إن يصرخ هو بهن كي يفلتنه ويحللن الكيس ، ـ فان البنات الحمقاوات يفر ن ، ويتصوّرن ان في الكيس يجلس شيطان ، ويبقى هو لوحده في الشارع ، لعله حتى الغد

وفي اثناء ذلك ، كانت الفتيات قد طرن مثل عاصفة ، متعاونات تعضد الواحدة الاخرى ، في سحب

المزالق على الثلج المتقصّف وجلست اكثرهن عبثاً على المزالق ذاتها ، اما الاخريات فتسلقن قمة الكيس نفسه وقرّر الرئيس احتمال كل شيء وأخيراً وصلن ، ففتحن ابواب المدخل على مصاريعها ، وادخلن الكيس مقهقهات الى البيت

— فلننظر ، إن شيئاً ما يرقد هنا ، — هتفن جميعاً ، منقضات على الحبال يحللنها

وهنا كان الفواق ، الذي لم يزل يعذّب العمدة طوال وقت جلوسه في الكيس ، قد اشتد بشكل ، بدأ معه يشهق ويسعل ملء حنجرته

— آه ، هنا ، يجلس أحد ما — صرخن جميعا ، وفررن من فرط ارتعابهن من الابواب ، في كل اتجاه

— أي شيطان ! الى اين طرتن مثل مجنونات ؟ — قال تشوب ، وقد دلف في الباب

— آه ، يا أبي ! — نطقت اوكسانا — في الكيس يجلس شخص ما !

— في الكيس ؟ من أين اخذتن هذا الكيس ؟

— رماه الحداد في عرض الطريق ، — قلن كلهن فجأة

« حسناً ، ألم أقل ذلك ؟ » — فكرّ تشوب في سرّه

— لماذا ارتعبتن ؟ فلننظر هيا ، انت أيها البشير ، ارجو ان لا تغضب ، لاننا لا نسمي اسمك واسم ابيك ، اخرج من الكيس

وخرج العمدة

— آه ! — صرخت الفتيات

— حتى العمدة دخل هنالك ايضاً ! — قال تشوب لنفسه في حيرة ، وقد قاس العمدة من رأسه الى قدمه . — أترى كيف ! أي ! — ولم يستطع ان يقول اكثر من ذلك

ولم يكن العمدة بأقلّ حيرة ، ولم يعرف بم البدء

— ينبغي ان يكون الجو بارداً خارج الدار ؟ — قال هو مخاطباً تشوب

— ثمة صقيع ، — أجاب تشوب . — ألا تسمح لي أن أسألك بم تدهن حذاءك الطويل ، أبشحم الضأن ام بالقطران ؟

لم يرد هو أن يقول هذا ، لقد أراد أن يسأل « كيف انت ايها العمدة ، دخلت في هذا الكيس ؟ » ،

غير انه هو نفسه لم يفهم لماذا نطق لسانه بشيء آخر تماماً

ـ بالقطران أفضل ! ـ قال العمدة . ـ حسنا ، وداعاً يا تشوب ! ـ وأمال الى الاسفل قبعته الواسعة التي تغطّي الاذنين وخرج من البيت

ـ لماذا سألته بهذا الغباء ، بم يدهن حذاءه ! ـ نطق تشوب ، ناظراً الى الابواب التي خرج منها العمدة . ـ آي ، صولوخا ! أمثل هذا الانسان تجلسينه في الكيس ! أترى ، أية امرأة شيطانية ! أما أنا فاحمق لكن أين هذا الكيس اللعين بالذات !

ـ لقد رميته في الزاوية ، فليس ثمة شيء آخر فيه ، ـ قالت اوكسانا

ـ أعرف أنا هذه المزح ، لا شيء ! اجلبيه الى هنا فثمة شخص آخر جالس هناك ! انفضيه جيداً كيف لا ؟ أترى ، أية امرأة لعينة! اما اذا نظرت اليها فكأنها قدّيسة ، وكأنها لم تقترف إثماً قط

لكن ، فلندع تشوب يصبّ جام غضبه وحزنه في وقت فراغه ، ولنعد الى الحداد ، وذلك لأن الوقت صار يشير الى الساعة التاسعة

تراءى الأمر رهيباً لفاكولا في البداية ، حين ارتفع هو من الأرض الى مثل هذا العلو ، بحيث انه لم يعد يستطيع ان يرى ما هو تحته ، وطار مثل ذبابة تحت القمر ذاته ، بحيث انه لو لم ينحن قليلاً ، اذن لكان قد مسه بقبعته وعلى أية حال ، فبعد قليل تشجّع هو ، وجعل يمازح الشيطان لقد سلاّه للغاية كيف ان الشيطان عطس وسعل ، حين نزع هو عن رقبته الصليب من خشب السرو ، وقرّبه إليه ورفع هو ، عمداً ، يده ليحلك رأسه ، اما الشيطان فقد أسرع في طيرانه ، متصوراً أنه يريد ان يرسم علامة الصليب كان كل شيء نيّراً في العلاء كان الهواء في الضبّاب الفضي الخفيف شفّافاً كان كل شيء مرئياً حتى امكن ملاحظة كيف مرق مثل العاصفة ، بجنبهما ، ساحر كان جالساً في إناء ؛ وكيف ان النجوم ، وقد تجمّعن في كومة ، لعبن لعبة الغميضة ؛ وكيف تصاعد متظفراً ، جانباً ، سرب كامل من الأرواح ؛ وكيف نزع الشيطان الراقص عند القمر قبعته إذ رأى الحداد ممتطياً ظهر الشيطان وكيف طارت عائدةً المقشّة التي كانت قد ارتحلت عليها الساحرة تواً الى حيث ينبغي وكثيراً غير ذلك من السفاسف .

وكان كل من رأى الحداد يتوقف دقيقةً للتطلّع إليه ، ثم يوغل في حركته من جديد ، ويواصل طريقه كان الحداد يواصل تحليقه على متن الشيطان ، وفجأة تألقت امامه بطرسبورغ كلها تتلألأ (كانت قد زينت بالأنوار آنذاك لمناسبة ما) . اما الشيطان فقد استحال ، عبر حاجز الطريق ، الى حصان ، ورأى الحداد نفسه على حصان مغوار ، يجري في وسط الشارع

يا إلهي ! طرق ، رعد ، ألق ؛ وفي الجانبين تشمخ جدران بأربعة طوابق ؛ وطء سنابك الحصان ، دوي العجلات كل هذا كان يتجاوب رعداً ، ويتردّد من الاطراف الاربعة ؛ وكانت البيوت تتضخم ، وكأنها كانت تنهض من الارض عند كل خطوة ؛ وكانت الجسور ترتجف ، والعربات تسرع ؛ وكان الحوذية والخدم الممتطون ظهر الفرس الاولى في العربات ذات الافراس العديدة يصرخون ؛ وكان الثلج يتقصّف صافراً تحت آلاف الزلاّقات الطائرة من كافة الجوانب ، اما المشاة فكانوا يتزاحمون ويتدافعون تحت بيوت بمصابيح معلقة على جدرانها ، وكانت ظلالهم الضخمة تتخاطف على الجدران بالغة برؤوسها المداخن والسطوح . وتلفت الحداد مفتونا الى جميع الجوانب وتراءى له ان كافة

البيوت كانت تصوّب إليه عيونها النارية اللاعداد لها ، وتتطلّع إليه ورأى العدد العديد من السادة في المعاطف الثقيلة المغطاة بالجوخ ، بحيث لم يعرف لمن يرفع قبعته «يا إلهي ، كم من السادة هنا ! — طفق الحداد يفكر . — إني لأعتقد ان كل من سار في الشوارع في معطف من الفراء ، إنما هو محلف في قضاء من الاقضية ! اما هؤلاء الذين يتنزّهون في مركبات خفيفة غريبة بالزجاج فانهم ليسوا حكام مدن بل يشغلون منصب القوميسار ، بل ربما أعلى من ذلك» وقوطعت كلماته بسؤال الشيطان «أنرتحل رأساً إلى القيصرة ؟» «كلا ، إن ذلك لرهيب ، — فكّر الحداد. — هنا ، في مكان ما ، لا أدريه ، توقف القوزاق القادمون من زابوروجيه ، الذين كانوا قد ارتحلوا في الخريف ، عبر ديكانكا وقد جاؤوا القيصرة ، من منطقة سيج بالعرائض والمطالب ، فالافضل اذن ان نستنصحهم» .

— ايه ، أيها الشيطان ، تعال ادخل جيبي ، وقدني الى الزابوروجيين

وضؤل الشيطان في دقيقة واحدة ، واستحال من الصغر ، بحيث لم يصعب عليه الانسلال الى جيبه .

اما فاكولا فلم يكد يفلح في التطلّع حتى تكشّف أمام بيت كبير ، دخله ، لا يعرف هو نفسه كيف ، وارتقى السلم ، وفتح الباب فارتدّ الى الوراء شيئاً من شدة الألق ، إذ رأى غرفة في غاية الزينة ، ولكنه تشجّع شيئاً ، إذ تعرّف على اولئك الزابورجيّين أنفسهم ، الذين قد ارتحلوا عبر ديكانكا ، وقد جلسوا هنا على ارائك حريرية ينتعلون احذية طويلة مدهونة بالقطران ، وكانوا يدخّنون أقوى تبغ ، مستخلص من عروق اوراق شجيرات التبغ

— مرحباً ، ايها السادة ، فليساعدكم الله ! ها اننا قد التقينا ! — قال الحداد ، موغلاً في الاقتراب منهم ومؤدياً انحناءة حتى الارض

— ما هذا الانسان ، هناك ؟ — سأل الجالس أمام الحداد ذاته آخر ، كان جالساً أبعد منه

— وأنتم لم تعرفوني ؟ — قال الحداد ، — هذا انا ، فاكولا ، الحداد ! حين ارتحلتم في الخريف عبر ديكانكا ، فانكم نزلتم ضيوفاً لديّ ، فليمنحكم الله كل العافية وطول العمر ، يومين تقريباً ، ركبت إذ ذاك اطارات حديدية على العجلة الأمامية لعربتكم !

— آ ! — قال ذلك الزابوروجي ذاته ، — إنه

ذلك الحداد نفسه الذي يرسم جيداً مرحباً يا ابن بلدتنا ، لماذا بعثك الله ؟

ــ هكذا ، أردت ان أرى ، يقال

ــ وماذا ، يا ابن بلدتنا ، ــ قال الزابوروجي ، وودّ أن يظهر انه يستطيع التكلم بالروسية أيضاً ــ ماذا أمدينة كبيرة ؟

ولم يرد الحداد الافتضاح ، والظهور بمظهر الغشيم ، غير العارف ، والى ذلك ، فكما عرفت سالفاً أيها القارئ ، كانت لديه الامكانية ليعرف اللغة الفصحى

ــ مقاطعة شهيرة ، ــ أجاب هو بلا اكتراث في واقع الأمر البيوت كبيرة ، واللوحات المعلقة قيّمة وكثير من اليافطات على البيوت مكتوبة بحروف من رقائق الذهب تناسب رائع ، في الواقع !

وعقد الزابوروجيون ، وقد سمعوا الحداد يوضح بهذه الحرية ، استنتاجاً في صالحه تماماً

ــ سنناقشك فيما بعد ، يا ابن بلدتنا، اكثر من هذا ! فالآن سنرتحل الى القيصرة

ــ الى القيصرة ؟ تلطفوا ، ايها السادة ، فخذوني معكم ايضاً !

ــ اياك ؟ ــ نطق القوزاقي الزابوروجي هذا بذلك الشكل الذي يتكلم فيه المربى مع ربيبه ذي الأربعة اعوام ، الذي يلتمس إركابه على ظهر فرس اصيلة ، ضخمة . ــ ما الذي تفعله هناك ؟ كلا ــ هذا غير ممكن . ــ وعند ذلك ظهرت على وجهه سيماء معبرة ذات مغزى . ــ إننا ، أيها الأخ ، سنناقش القيصرة في قضايانا

ــ خذوني! ــ أصرّ الحداد. ــ إلتمسهم! ــ همس هو الى الشيطان بهدوء ، ضارباً بجمع يده على جيبه

ولم يكد ينهي كلامه، حتى قال زابوروجي آخر

ــ فلنأخذه ، في الواقع ، أيها الاخوة !

ــ لنأخذه ــ نطق آخرون

ــ البس اذن مثل لباسنا

وما كاد الحداد يلقي على نفسه رداء أخضر ، حتى فُتح الباب فجأة ، وأعلن الداخل الذي يرفل في الاشرطة المقصّبة ، انه قد حان الوقت للارتحال

ومن جديد بدا الوضع غريباً للحداد ، حين جرّت به عربة ضخمة ، متمايلة على زنبركاتها ، وحين مرقت من كلا جانبيه ، قاصدةً الى الخلف بيوت بأربعة طوابق ، اما الرصيف فقد بدا ، كأنه هو الذي يجري تحت أقدام الخيل

«يا الهي   أي نور ! » — فكرّ الحداد في سرّه . — بهذا الشكل لا تنوّر الدنيا لدينا حتى في النهار»

وتوقفت العربات أمام القصر   وخرج الزابوروجيون وولجوا مدخلا فخماً ، وابتدأوا يرتقون السلم المنور على نحو ألق

— أي سلم ! — همس الحداد لنفسه ، — مؤسف ان الاقدام ترتقيه   أية زينات ! انهم يقولون ، تكذب الاساطير ! فباسم أي شيطان تكذب ! يا الهي ، أي درابزين ، أي عمل هذا! هنا على الحديد فقط انفق حوالي الخمسين روبلاً

واجتاز الزابوروجيون ، بارتقائهم السلم ، القاعة الاولى   ومضى الحداد في اثرهم متهيباً ، يخشى في كل خطوة يخطوها من الانزلاق على الباركيه   اجتازوا ثلاث قاعات ، والحداد ما فتئ يتعجب   وإذ دلفوا الى الرابعة اتجه هو ، عفو ارادته ، إلى لوحة معلّقة على الحائط   كانت هذه صورة مريم العذراء تحمل صبياً على ذراعيها   أية لوحة ! أي رسم رائع ! — طفق يناقش نفسه — ها هو يبدو انها تتكلم ! بل يبدو انها حية ! اما الصبي فقديس ! ويداه ملمومتان ! ويضحك ،

هو البرئ ! اما الالوان ! يا الهي أية الوان ! هنا الصبغ الاصفر لا يسوى شروى نقير ، ولا قيمة له قطعاً كما اعتقد ان كل شيء هنا من الصبغ الاخضر وكذلك طلاء مختلف الالوان اما الازرق فيتألق بمنتهى قوته ! عمل رائع ! ينبغي ان تكون خامة اللوحة قد طليت بالاسبيداج الرصاصي وعلى أية حال فمهما تكن هذه النقوش عجيبة ، ولكن مقبض الباب النحاسي هذا — استمر هو مقترباً من الباب ، متلمساً القفل ، — يستحق المزيد من الانتباه أية صنعة متقنة ! إني لأعتقد ان الحدّادين الالمان قد صنعوا كل هذا لقاء أبهظ الأثمان

ولعلّ الحدّاد كان سيظلّ يناقش طويلاً ، لو لا ان الحاجب ذا الاشرطة المذهبة كان قد لزّه تحت مرفقة وذكّره كيلا يتأخر عن الآخرين

واجتاز الزابوروجيّون قاعتين أخريين وتوقفوا فهناك كانوا قد أوصوا بالانتظار وكان قد اصطفّ في القاعة بضعة جنرالات في ارديتهم الرسمية المحيكة بالذهب وانحنى الزابوروجيون الى كافة الجهات ، وارتصّوا صفّاً

وبعد دقيقة دخل بصحبة حاشية ضخمة إنسان طويل ، في غاية البدانة ، في رداء الرئاسة ، ينتعل

حذاء طويلا أصفر اللون كان شعره أشعث واحدى عينيه حولاء بعض الشيء وقد ارتسمت على وجهه عظمة متغطرسة ، وكانت عادة الأمر واضحةً في كافة حركاته وكان جميع الجنرالات الذين يتخطّرون بمنتهى الغطرسة في أردية رسمية ذهبية اللون ، قد شغلوا به فكانوا بانحناءاتهم الكبيرة له ، يبدون كما لو انهم كانوا يلتقفون كلمته ، بل يتابعون حتى أتفه حركة من حركاته ، ليطيروا في الحال لتنفيذها غير ان الرئيس لم يُعرهم حتى انتباهه ، وبالكاد أحنى رأسه ، ومضى الى الزابوروجيين

فانحنى الزابوروجيون له حتى اقدامهم

ـ أجميعكم أنتم هنا ؟ ـ سأل بنبرة متمطّطة ، ناطقاً الكلمات من أنفه بعض الشيء

ـ أجل ، جميعنا ، أيها الأب ! ـ أجاب الزابوروجيون منحنين من جديد

ـ لا تنسوا التكلم كما علمتكم ؟

ـ كلا ، أيها الأب ، لن ننسى

ـ أهذا هو القيصر ؟ ـ سأل الحدّاد أحد الزابوروجيين .

— أي قيصر ! إن هذا هو بوتيمكين نفسه . — أجابه الزابوروجي

وفي غرفة اخرى سمعت اصوات ولم يعرف الحدّاد ، الى أين يحوّل عينيه من كثرة النساء الداخلات في الفساتين اللماعة بالذيول الطويلة ورجال البلاط في القفطانات المحيكة بالذهب ، ظفائر الشعر في الخلف كان يرى الألق وحده ولا شيء سواه وخر الزابوروجيون فجأة على الارض ، وهتفوا بصوت واحد

— ارحمينا ، يا اماه ! ارحمينا !

وارتمى الحدّاد ، دون ان يرى شيئا ، بكل جهده على الارض

— انهضوا ! — دوى فوقهم صوت آمر وودود في ذات الوقت وتحرك بعض رجال البلاط ودفعوا الزابوروجيين

— لن ننهض ، يا أماه ! لن ننهض ! نموت ولا ننهض ! — صرخ الزابوروجيون

وعض بوتيومكين شفتيه ، وأخيرا جاء هو نفسه ، وهمس بلهجة آمرة الى أحد الزابوروجيين ، فنهض هؤلاء . وهنا تجرّأ الحداد أيضاً على رفع رأسه ، فرأى أمامه

امرأة ذات قامة ليست بالطويلة، بل وبدينة نوعا ما وقد غطّت وجهها المساحيق ذات عينين زرقاوين وفي مظهر الذي استطاع كل الاستطاعة ان يُخضع لنفسه كل شيء ، ولم يمكن ان يعود الا الى المرأة المالكة ، الواحدة

– لقد وعدني سمو الأمير بأن يعرّفني اليوم على شعبي ، الذي لم أره حتى الآن ، – قالت السيدة ذات العينين الزرقاوين ، ناظرة بفضول الى الزابوروجيين .

– هل يطعمونكم هنا جيداً ؟ – استمرت هي ، وقد أوغلت في الاقتراب

– شكراً لك ، يا أماه ! – نتناول طعاماً جيداً ولو ان لحم الضأن ليس مثيل لحم اغنامنا الزابوروجية ، – وعلى أية حال ، لماذا لا يمكننا العيش بشكل ما ؟

وقطّب بوتيمكين ، وقد رأى ان الزابوروجيين يقولون ما يغاير تماماً ما علّمهم به

واتخذ أحد الزابوروجيين وضعية الوقار والجلال ، وانهدّ يتكلم

– اصفحي ، يا اماه ! لماذا تهلكين الشعب المخلص ؟ ما الذي أثار سخطك ؟ أفحقاً نحن ساعدنا التتري النجس ، ام اتفقنا في شيء ما مع الاتراك ؛

ام خنـّاك عملا او قلبا ؟ لماذا عدم الغفران ؟ سابقاً سمعنا بانك تقيمين القلاع ضدنا ، وبعدئذ صرنا نسمع بانك تريدين تحويل القطعات الى جنود بالقرابينات اما الآن فنسمع ببلايا جديدة فبأي شيء اذنبت قطعات زابوروجيه ؟ أبأنها نقلت جيشك عبر بيريكوب، وساعدت جنرالاتك في محق متمرّدي القرم ؟

وصمت بوتيمكين ، ونظّف بفرشة صغيرة ، دونما اكتراث ، ماساته التي كانت تزيّن يديه

— ماذا تريدون ؟ — سألت القيصرة كاترين بحنوّ

ونظر الزابوروجيون احدهم الى الآخر نظرة ذات مغزى

« الآن حان الحين ! انها القيصرة تسأل ماذا تريدون ! » — قال الحداد لنفسه ، وفجأة ارتمى على الأرض

— صاحبة الجلالة القيصرة ، لا تأمري بأعدامي ، بل آمري بالصفح. من اي شيء — اللهم لا تجعل هذا مثاراً لغضب جلالتك — صُنع الخفّان ، اللذين تحملهما قدماك ؟ إني لأعتقد انه لا يوجد ولا حذّاء واحد في

أيما دولة من الدول يستطيع صنع مثيلهما آه يا الهي ، ماذا لو ارتدت زوجتي مثل هذين الخفّين !

وضحكت القيصرة وضحك رجال البلاط أيضاً

اما بوتيمكين فانه تجهم وابتسم في آن واحد وانهدّ الزابوروجيون يلزّون الحداد في يده ، معتقدين انه قد جُنّ

— انهض ! — قالت القيصرة برقة . — إن أردت اقتناء مثل هذين الخفّين ، فليس ذلك بالأمر الصعب اجلبوا له الآن بالذات أغلى نوع ، مرصّع بالذهب من اخفافي ! الحق اقول ، انه اعجبتني جداً بساطة القلب هذه ! هاكم ، — استطردت القيصرة ، وقد سمّرت عينيها على شخص متواسط العمر ، يقف على مبعدة من الآخرين ، ذي وجه ممتلئ شاحب بعض الشيء كان قفطانه المتواضع ذو الأزرار الصدفية يدلّ على نه لا يمت بصلة إلى رجال البلاط ، — موضوعاً يستحق اهتمام ريشتكم الذكية !

— إنكم ، يا صاحبة العظمة الامبراطورية ، لكريمون جداً هنا تلزم ، على الأقل ، ريشة لافونتين ! — أجاب الشخص ذو الازرار الصدفية منحنياً

— إنصافاً أقول لكم إنني حتى الآن أسيرة التأثير

الذي تركته في « البريغادير » * ولا استطيع نسيانها بحال إنكم تقرأون جيداً جداً وعلى أية حال ، — واصلت القيصرة مخاطبة الزابورجيين من جديد ، — لقد سمعت ان الرجال لديكم في سيج لا يتزوجون قط

— كيف ، يا ماما ! فان الرجل ، كما تعرفين أنت نفسك ، لا يستطيع العيش دونما زوجة ، — أجاب ذلك الزابوروجي نفسه ، الذي تحادث مع الحداد ، وعجب الحداد ، إذ سمع هذا الزابوروجي ، وهو العارف على نحو فاخر اللغة الفصحى يتكلم مع القيصرة ، كما لو انه عمداً ، بمنتهى الفظاظة ، وباللغة التي تدعى اعتيادياً لغة الموجيك « شعب داهية ! — فكر هو في سرّه — واضح ، انه ليس عبثاً يصنع ذلك

— لسنا برهبان ، — استطرد الزابوروجي ، — وإنما نحن ناس نخطئ نأثم ، مثل كافة عباد الله الشرفاء لدينا غير قليل من اولئك الذين لديهم زوجات ولكن لا يعيشون معهن في سيج كما يوجد اولائك الذين لديهم زوجات في بولندا ، ويوجد اولئك الذين لديهم

---

* د ي فونفيزين (١٧٤٥ – ١٧٩٢) هجاء روسي وهو مؤلف كوميديا « البريغادير » (رئيس الفرقة) و « القاصر ».

زوجات في اوكرانيا ويوجد اولئك الذين لديهم زوجات في تركيا

وفي هذا الوقت أتوا للحداد بالخفّين

– يا إلهي ، أية زينة ! – هتف جذلا ، مختطفاً الخفّين . – يا صاحبة العظمة القيصرية ! واعجباه ، إذا كنتم تسيرون بمثل هذه الاخفاف في قدميكم ، وفيما يبدو ، تتزلجون بها ، جلالتكم ، في المزالج على الثلج ، وكيف اذن تكون الساقان ذاتهما ؟ اعتقد ، انهما على الاقل ، من خالص السكر

ولم تستطع القيصرة ، التي كان لديها بالضبط أرشق وأروع ساقين ان لا تبتسم ، وهي تسمع مثل هذا الأطراء من شفتي الحدّاد البسيط القلب ، الذي كان يمكن عدّه ، وهو في بلدته الزابورجية ، رائع الجمال ، رغم وجهه الاسمر

وأراد الحداد ، وقد سرّ بمثل هذا الاهتمام الذي حظى به ، ان يسأل القيصرة الطيبة عن كل شيء أحقاً ، ان القياصرة يأكلون العسل وحده والشحم وما يماثل ذلك ، ولكنه ، وقد أحس بالزابوروجيين يلزّونه في جنبه قرّر الصمت وحين ابتدأت القيصرة تسأل الشيوخ كيف يعيشون هم في سيج وباية عادات

وتقاليد يستهدون ، ـ فانه انحنى على جيبه متقهقراً الى الخلف ، وقال بلطف « احملني من هنا سريعا ! ـ وفجأة تكشّف هو وراء حاجز الطريق

ـ غرق ! اقسم بالله انه غرق ! ليتني لم أتحرّك من مكاني هذا ، ان لم يكن قد غرق ! ـ تمتمت الحائكة السمينة واقفةً بين حشد من نساء ديكانكا وسط الشارع

ـ ماذا أنا كذّابة ؟ أم أني سرقت بقرة عند أحد من الناس ؟ ام اني أصبت أحداً بعين ، بحيث لا يصدقونني ؟ ـ صرخت امرأة في رداء قوزاقى ذات أنف بنفسجي ملوّحة بيديها . ـ ليتني لا اشتهي شرب الماء بعد الآن إن لم تكن العجوز بيريبيرتشيخا قد رأت بأم عينيها كيف شنق الحداد نفسه !

ـ الحداد شنق نفسه ؟ هالك خذها ! ـ قال العمدة ، إذ غادر بيت تشوب ، وتوقّف ولزّ نفسه إلى المتكلمين

ـ أفضلُ من هذا ان تقولي : « ليتنى لا اشتهى شرب الفودكا »، أيتها السكّيرة العجوز ! ـ أجابت الحائكة ـ ينبغي ان يكون المرء مجنوناً مثلك ليشنق نفسه ! إنه غرق ، غرق في حفرة ما بين الثلوج ! إني لأعرف

هذا ، مثلما أعرف مثلا انك كنت الآن عند صاحبة الحانة

– أيتها المخزاة! انظروا ، بماذا صارت تعيرنى ! – ردّت بغضب المرأة ذات الأنف البنفسجي – الافضل ان تصمتى ، أيتها الخبيثة ! عجبا ، افلست أدري ان الشماس يغشاك كل مساء ؟

وانفجرت الحائكة

– ماذا الشماس ؟ إلى مَن – الشماس ؟ لماذا أنت تكذبين ؟

– الشماس ؟ – صاحت وقد رصّت نفسها إلى المتجادلات زوجة الشماس ، في معطفها من فرو الأرنب ، المغطى بقماش قطني ازرق – سأجعلك تعرفين ما تهرفين به ! من هذه التي تقول – الشماس؟

– ها هي من يذهب الشماس إليها ! – قالت المرأة ذات الانف البنفسجي ، مشيرة إلى الحائكة

– انت ، إذن ، ايتها الكلبة ! – قالت زوجة الشماس ، مقتربة من الحائكة ، – هذا انت اذن أيتها الساحرة تُطلقين الضباب عليه وتُشربينه سم العقار الشرير ، كي يأتيك ؟

ـ ولّي عني ، أيتها الشيطانة ! ـ قالت الحائكة متقهقرة

ـ أترين ، أيتها الساحرة اللعينة ، ليتيك حُرمت رؤية أولادك ، أيتها الخبيثة ! تفو ! . ـ وهنا بصقت زوجة الشماس مباشرةً في وجه الحائكة

وأرادت الحائكة ان تصنع بنفسها مثل هذا ، ولكن بدلاً من ذلك بصقت في لحية العمدة غير الحليقة وهو الذي اندفع الى مكان بالغ القرب من المتخاصمات مباشرة ، ليتسنى له سماع كل شيء على نحو أفضل

ـ آه ، أية امرأة قبيحة ! ـ صرخ العمدة ، ماسحاً وجهه بكفّه ، ورافعاً سوطَه وقد أرغمت هذه الحركة جميعهن على التفرّق ، وهن يتشاتمن ، في مختلف الجهات ـ أية شناعة ! ـ كرّر هو ، مواصلاً مسح وجهه . ـ هكذا اذن ، الحدّاد غرق ! يا إلهي ! أيّ رسام عظيم كان هو ! أية سكاكين ومناجل ومحاريث جيدة كان يُحسن صنعَها ! أيّ قويّ كان ! أجل ! ـ واصل هو تأمله ، ـ قليل مثل هؤلاء الناس في قريتنا تلك هي المسألة لقد لاحظت ، مذ كنت جالساً في الكيس اللعين ، ان

المسكين كان منحرف المزاج جداً هاك اذن قصة حداد ! لقد كان ، والآن لم يَعُد في الوجود ! اما انا فقد تهيأت لينعل لي فرسي الرقشاء !

وتوجّه العمدة مفعماً بمثل هذه الافكار الطيبة ماشياً ببطء إلى بيته

وانقبضت روح اوكسانا ، حين بلغتها هذه الانباء وكانت قلّما تثق بما تراه عينا العجوز بيريبيرتشيخا ، أو بلغط النساء ، فقد عرفت هي ان الحداد من الورع والتقوى بحيث لن يقوى على اقتراف إثم روحه ولكن ، ماذا لو كان في الواقع قد مضى بنيّة ان لا يعود قط إلى القرية ؟ إن من الصعب حقاً العثور في مكان آخر على فتى رائع كالحدّاد ! فكم قد أحبّها هو ! وقد تحمل اكثر الجميع الاعيبها وفنون دلعها ! وتقلّبت الحسناء تحت غطائها طوال الليل من الجنب الأيمن الى الأيسر ومن الأيسر الى الأيمن — ولم تستطع الرقود فتارة توبخ نفسها بصوت عال ، وهي مستلقية في عري خلاّب أخفاه ظلام الليل حتى عن عينيها وتارةً اخرى تقرّر وقد هدأت نوعا ما ، ان لا تفكّر في شيء — ومع ذلك ظلّت تفكر

طوال الوقت واشتعلت كلها شوقا إليه وعند الصبح هامت فيه هياماً

اما تشوب فلم يعلن لا السرور ولا الأسف على مصير فاكولا كانت أفكاره مشغولة بشيء واحد انه لم يستطع ان ينسى قط غدر صولوخا ، ولم يكفّ عن شتمها حتى وهو ناعس

وأطلّ الصبح وكانت الكنيسة حتى قبيل الفجر قد امتلأت بالناس ، كانت النساء الثريات في الاغطية الرقيقة البيضاء على رؤوسهن وفي الأردية الخارجية البيضاء من الجوخ ترسم علامة الصليب بتقوى وورع عند ذات مدخل الكنيسة وكانت النبيلات في البلوزات الخضراء والصفراء ، وأخريات في أردية خارجية زرق ذات عرانيس ذهبية في الخلف ، كانت قد وقفت أمامهن اما الفتيات اللواتي قد عقدن على رؤوسهن دكّة كاملة من الأشرطة ، وتقلدن في رقابهن بالعقود والصلبان والقطع النقدية ، فقد حاولن شق طريقهن لاحتلال مكان أقرب الى حائط الايقونات ولكن امام الجميع كان النبلاء ، ورجال بسطاء بشوارب ، ونواص ورقاب غلاظ وذقون حُلقت على التو وكان معظمهم في معاطف من الجوخ ، نتأت من تحتها

أردية بيض عند البعض ، وزرق عند البعض الآخر وعلى كافة الوجوه حيثما نظرت كنت ترى العيد رافلاً في حلته الجذلة الاحتفالية وكان العمدة ينظر بشهوة ، متصوراً نفسه وقد أفطر بالسجق ؛ أما الفتيات فكن يفكّرن كيف سيتزلجن بالمزالج مع الفتيان على الثلج وأما العجائز فكنّ يهمسن بالصلوات بشكل اشد همة ودأباً اكثر من أي وقت آخر وفي الكنيسة كلها كان يُسمع كيف كان سفيربيغوز يركع متعبداً وليس إلا اوكسانا وحدها كانت واقفة ذاهلة فاترة الهمة تماماً ، صلّت ولم تصلّ فقد احتشدت في قلبها مشاعر غاية في التناقض ، بعضها اشد حزناً من البعض الآخر ، وبعضها اكثر إيلاماً من البعض الآخر بحيث ان محياها كان يعبر بالتالي عن الحيرة الشديدة الخالصة ، واختلجت الدموع في مآقيها ولم تستطع الفتيات أن تفهم سبب هذا ، ولم يفطن الى ان اوكسانا كانت قد شُغفت بالحدّاد ، وباتت مدنفة فيه غير ان لا اوكسانا وحدها كانت مشغولة البال بالحداد. ولاحظ كافة الناس ان العيد كأنه ليس بالعيد، وكما لو انه يفتقد شيئاً ما هاماً. وللمصيبة وسوء الطالع ، فان الشماس بعد رحلة الكيس بحّ

صوته وكان يتكلم بصوت مرتجّ بالكاد يُسمع صحيح ان المنشد القادم الى القرية كان قد أبدع حقاً في الانشاد، ولكن ما أروع ما كان ذلك ، لوكان الحدّاد موجوداً ، وهو الذي كان دائماً حين يصل الانشاد إلى « يا ابانا » كان يمضي الى موضع الخورس، لينشد من هناك بذلك الشكل الذي ينشدونه في بلتافا والى ذلك ، فانه وحده كان يقوم بوظيفة مراقب لكنيسة خير قيام وها قد انتهت صلاة الصبح وبعدها تصرّمت صلاة الغداء فالى اين وأين ، في واقع الامر ، ضاع الحدّاد ؟

لقد طار الشيطان بالحداد ، في طريق العودة ، بشكل أسرع من ذي قبل وفي لحظة تكشّف فاكولا حول بيته وفي هذا الوقت صاح الديك « إلى أين ؟ — صرخ هو مختطفاً الشيطان من ذيله ، إذ حاول الفرار — مهلاً ، أيها الصديق ، إن هذا ليس بكل شيء فانا لم أجزك بعد حق الجزاء ». وهنا ، اختطف عوداً يابساً ، ضربه به ثلاث مرات ، وأسرع الشيطان المسكين في الفرار ، مثل فلاح بسيط ، ساطه المحلف على التوّ هكذا ، فبدلاً من الخداع ، والاغواء واستغفال الآخرين فان عدوّ الجنس البشري نفسه

كان قد استغفل ودلف فاكولا بعد هذا الى المدخل ودفن نفسه في القشّ ونام ملء جفنيه حتى الغداء وإذ صحا فانه ارتعب حين رأى ان الشمس قد ارتفعت في كبد السماء « لقد فاتتني صلاة الصبح والغداء ! » واستغرق الحداد الورع هنا في اكتئاب بالغ ، مناقشاً ان هذا إنما هو بالاحرى ، عقاب مقصود من الرب عن نيّته الآثمة في إهلاك روحه عقاب تجلى في النوم الذي لم يسمح له حتى بان يكون في مثل هذا العيد الاحتفالي في الكنيسة وعلى أية حال ، فانه ، وقد عزّى نفسه بانه سيعترف في الاسبوع التالي للأب بفعلته، وانه منذ هذا اليوم سيبدأ بأداء خمسين ركعة على مدى العام ، جال ببصره في البيت ؛ ولكن لم يكن فيه أحد واضح ان صولوخا لم ترجع بعد واخرج الخفّين بحرص من عبّه ، ومن جديد دُهش للصنعة العالية ، والواقعة العجيبة لليلة الفائتة واغتسل وارتدى أفضل ما استطاعه ، فلبس ذلك الرداء ذاته الذي أخذه هو من الزابوروجيين ، وأخرج من الصندوق قبعة جديدة من فرو استراخان محلاة بقماش ازرق ، لم يلبسها هو قط منذ اشتراها حين كان في بولتافا ، وأخرج أيضاً

حزاماً جديداً كانت فيه كل الألوان ، ووضع كل هذا سوية مع سوط في منديل ، وانطلق مباشرة الى تشوب

حملق تشوب ، حين دخل الحداد إليه ، ولم يعرف ممّ العجب أمِنْ كون الحدّاد قد بُعث ، أم من كون الحداد قد جرؤ على المجئ اليه ، ام لكونه قد ارتدى مثل زابوروجي ومثل غندور بيد ان عجبه اشتدّ ، حين حلّ فاكولا المنديل ، ووضع أمامه قبعة جديدة مع حزام ، مما لم ير في القرية بتاتاً ، اما هو نفسه فقد ارتمى عند قدميه ، وتمتم بصوت متوسّل

— اصفح عني أيها الأب ! لا تغضب ! هاك السوط فسط قدر ما تريد ، وتشاء روحك استسلم لك بنفسي ، وأعلن ندامتي على كل شيء ؛ فسط ، فقط لا تغضب عليّ ! لقد تآخيت ، في وقت من الأوقات ، مع المرحوم والدي ، تناولتما سوية الخبز والملح ، وشربتما الشراب معاً

رأى تشوب ، ليس من دون ارتياح خفي ، كيف ان الحداد الذي لم يتوسل بأحد ، والذي كان يحني بيده قطع النقد النحاسية وحداوي الافراس ، مثلما

يطوى رغيف الحنطة السوداء ، ان هذا الحداد نفسه قد ارتمى عند قدميه ولكي لا يحطّ من قدره اكثر من هذا الحد ، أخذ تشوب بالسوط وساطه ثلاث مرّات في ظهره

— حسناً ، انهض ، كفاك ! اطع دائماً من هم اكبر منك سنا ! فلننسى كل شيء ، مما كان بيننا ! طيب ، قل الآن ، ما تريد ؟

— هَب ، ايها الآب ، اوكسانا ، زوجة لي

وفكر تشوب قليلاً ، ونظر الى القبعة والحزام

كانت القبعة ساحرة ، ولم يقل عنها الحزام سحراً وروعة ، وتذكرّ صولوخا الغادرة وقال بحزم

— حسناً ، ارسل خطّابة !

— آي ! — هتفت اوكسانا ، وهي تجتاز العتبة ، وترى الحدّاد ، وطفحت عيناها بالدهشة والحبور معاً

— انظري ، أي خفّين جلبت لك ! — قال فاكولا ذينك اللذين ترتديهما القيصرة ذاتها

— كلا ، كلا ! — لست بحاجة إلى الخفّين ! — قالت هي ، ملوّحة بيديها ، دون ان تحوّل بصرَها عنه أنا من دون هذين الخفين وتضرّجت ولم تقل شيئاً اكثر من هذا

وزاد الحدّاد قرباً منها ، وأخذها بين يديه ، فغضّت الحسناء من بصرها. ولم تكن هي قط على مثل هذا الجمال الساحر . وقبّلها الحدّاد الولهان بلطف ، فتضرّج وجهها على نحو أقوى من ذي قبل ، وازدادت فتنة وروعة

وارتحل المطران الطيب الذكر مرة الى ديكانكا ، فامتدح المكان الذي تقع فيه القرية ، واذ ارتحل في الشارع وتوقّف امام بيت جديد

— لمن هذا البيت المنقوش بهذا الشكل ؟— سأل الرجل المقدّس المرأة الجميلة الواقفة بالقرب من الباب تحمل طفلاً على ذراعيها

— إنه بيت الحداد فاكولا ! — قالت اوكسانا ، منحنية ، ذلك لأن البيت كان بالضبط كذلك

— عمل مجيد ! مجيد ! — قال المقدّس مطالعاً ببصره الابواب والشبابيك وكانت الشبابيك مصبوغة بصبغة حمراء وعلى الابواب كانت في كل مكان صور القوزاق على خيولهم ، بالغلايين في أفواههم

غير ان المقدس اكثرمن ثنائه على فاكولا ، خصوصاً حين عرف انه تمسّك باعترافه في الكنيسة وتوبته ، وصبغ مجاناً كل الجناح الايسر بصبغ اخضر

وزينه بزهور حمراء. وعلى كل حال، فليس هذا بكل شيء فما إن تدخل الكنيسة حتى يطالعك ، جانبياً ، وعلى الجدار رسم فاكولا للشيطان ، فقد صوّره في الجحيم ، في غاية القبح والشناعة ، بحيث ان الجميع كانوا يبصقون حين يمرّون بجانبه ، اما النساء ، فكانت ما إن تبكي أطفالها على أيديها، حتى تحملهم الى رسم الشيطان وتقول لهم « انظر الى الشيطان ، ما أشنع رسمه وما اقبحه ! » وكان الطفل يمسك دموعه ، وينظر شزراً الى الرسم ، ويلتصق بصدر أمه

عام ١٨٣٢

القسم الاول

لم يتوقّف مثل هذا الحشد الحاشد من الناس في أيما مكان مثلما توقف هنا أمام حانوت الصور في مخازن شوكين لقد كان هذا الحانوت مجمعاً لأشدّ الغرائب تباينا واختلافا فقد كان أغلب اللوحات مرسوماً بالزيت ، ومغطى بطلاء أخضر قاتم ، في اطارات مبهرجة قاتمة الصفرة وكانت مواضيعها عادة ، هي الشتاء بأشجاره البيضاء ، والمساء الأحمر تماماً ، الشبيه بهالة الحريق ، أو قروي فلامندي بغليونه ويده المخلوعة ، والاكثر شبهاً بالديك الهندي في قنّه من ان يكون شبيهاً بالانسان والى ذلك ينبغي ان نضيف بعضاً من لوحات النقوش المحفورة كصورة حضرت ميرزا في عمرة من فرو الغنم ، وصور بعض

الجنرالات في قبعات مثلثة الزوايا ، وأنوف معقوفة وفضلاً عن ذلك ، فان أبواب مثل هذا الحانوت تكون عادةً مغطاة بحزم من النتاجات المطبوعة بشكل صور شعبية رخيصة على أوراق كبيرة ، تشهد بالموهبة الأصيلة للانسان الروسي وعلى واحدة منها كانت صورة إبنة القيصر ميليكتريسا كيربيتيفنا ، وعلى اخرى كانت صورة مدينة اورشليم ، وقد تسايل الصبغ الأحمر من على بيوتها وكنائسها دونما اجلال وغطّى الارض واثنين من القرويين الروس يصليان في قفافيزهما إن مشتري هذه الأثار قليلو العدد في العادة ، ولكن المتفرجين ، في مقابل ذلك ـ حشد حاشد ها إن خادماً ما دنيْ الخلق قد جعل يتثاءب أمامها ، وهو يمسك بيده آنية فيها الغداء الذي جلبه من الحانة لسيده، الذي دون شك سيحتسي هذا الحساء ليس حاراً جدا ولعل أمامه يقف جندي بمعطفه الطويل ، هو فارس سوق الخردوات والعاديّات ، يبيع مديتين ، وبائعة بعلبة مليئة بالاحذية إن كلاً مُعجب بطريقته الخاصة فالقرويون يشيرون بالأصابع ، والفرسان يتطلعون جيدا وبامعان ، اما الصبية من الخدم والصنّاع فيضحكون ويشاكسون احدهم الآخر

بكاريكاتورات مرسومة ، فيما ينظر الخدام المسنّون في معاطف من الوبر دونما هدف اللهم الا ليتثاءبوا في مكان ما ، اما البائعات الشوابّ الروسيّات فيسرعن بدافع الغريزة من اجل ان يسمعن ما يثرثر به الناس ، وليرين ما الذي ينظره الشعب وفي هذا الوقت توقّف عفو إرادته ، امام الحانوت الرسّام الشاب تشارتكوف الذي كان مارّاً بجنب الحانوت كان معطفه العتيق وبدلته غير الأنيقة تشهدان له كانسان مكرّس بتفانٍ لعمله ، بحيث لا يكون لديه وقت يعنى فيه باناقة لباسه ، وهو الذى يتمتع بجاذبية خفيّة بالنسبة للشباب وقد توقّف أمام الحانوت ، جعل ، منذ البداية ، يضحك مع نفسه من هذه اللوحات المشوّهة وأخيراً تملّكه تأمل لاإرادي فقد جعل يفكر تُرى من تلزم هذه الآثار ان أمر أنْ يتطلع الروس بنهم الى صورة يروسلان لازريفيتش ، والى لوحة «أفرط في الأكل والشرب »، والى صورة فوما ويريما * ــ إن هذا الأمر لم يبد له عجيباً فالمواضيع المصوّرة كانت

* ابطال حكايات روسية ترجع الى قرن ١٧ – ١٨ ترسم صورهم عادة في اللوحات الشعبية الرخيصة المترجم .

في متناول أفهام الشعب ، ولكن أين الذين يشترون هذه الرسوم الزيتيّة ، القذرة ، الضاجّة الألوان ؟ من تلزم صور هؤلاء القرويين الفلامنديين ، وهذه المشاهد الحمراء والزرقاء التي تشهد بادعاء ما بخطوة متقدمة في الفنّ ، ولكن تلك التي أُعرب فيها عن اهانته المطّردة ؟ لقد لاح هذا وكما لو انه قطعاً ليس باعمال طفل متعلم بنفسه والا لكان قد أطلّ منها ، مع كل الكاريكاتورية اللاابالية لجماع المسألة فيها ، نزق فنّي كبير غير انه كان هنا واضحاً بطء الفهم وثقالته ، وكلال الموهبة السقيمة الذي اتخذ مكانه بين الفنون على نحو تعسفي ، فيما كان الأحرى به ان يكون بين الحرف الواطئة كلال الموهبة ذاك الذي كان أميناً ، على كل حال ، لرسالته ، وحمل إلى الفن ذاته حرفته. إنها هي هي، ذات الالوان، وذات الطريقة، وذات اليد المحنكة، المتمرّسة ، والتي تعود على الأرجح الى جهاز اوتوماتيكي مصنوع بطريقة فظّة ، اكثر مما تعود للانسان ! لقد وقف هو طويلاً أمام هذه اللوحات القذرة ، والتي لم يعد يفكر فيها قطعاً ، في النهاية ، فيما كان صاحب الحانوت ، الانسان العادى في معطفه الوبرى ، وذقنه غير الحليق

منذ يوم الأحد ذاته ، كان قد جاذبه الحديث منذ زمن ، مساوماً إياه في الثمن ، حتى وهو لم يعرف بعد ، ما الذي أعجبه ، وما الذي كان يلزمه «ها إني على استعداد أن أبيع صور هؤلاء الفلاحين ، وهذه المشاهد لقاء خمسة وعشرين روبلا يالروعة الرسوم ! إنها تتخلّل العين تخلّلاً ، لقد استُلمت تواً من البورصة ، بل إن الدهان لم يجف بعد . أو اليك هذا الشتاء، خذ لوحة الشتاء ! خمسة عشر روبلا ! إن الاطار وحده يسوى الكثير أي شتاء هو ! » وهنا نقر التاجر قماشة اللوحة نقرة خفيفة ، على الأرجح لكي يُظهر كل سخاء الشتاء «أتأمرون بربطها سوية معاً وحملها اليكم ؟ أين ، إذا سمحتم ، تعيشون ؟ أيْ ، أيها الفتى ناولني خيطاً» . — «مهلاً ، أيها الأخ ، لا بهذه العجالة — قال الفنّان وقد صحا ، إذ رأى ان التاجر الحرك قد أقبل جاداً على ربطها معا لقد بات ضميره يؤنبه انه لم يأخذ شيئاً ، وهو الذي وقف كل هذه المدة الطويلة في الحانوت ، وقال «مهلا سأنظر أفلا يوجد شيء ما يناسبني هنا» ، وجعل يتناول بيديه ، منحنياً ، اكداس اللوحات القديمة المرمية على بعضها في الارض والعاجّة بالتراب ، دون ان تحظى كما هو واضح ،

بأيما تقدير هنا كانت لوحات قديمة لعوائل ، ربما لم يقدر قط لأخلافها العثور عليها ، صور غير مشهورة البتة ذات قماشة مهترئة مخرّقة ، وإطارات فقدت تذهيبها ، وبكلمة كل سقط متاع غير ان الرسام أقبل ينظر ، مفكراً في سرّه «لعلني سأعثر على شيء» لقد سمع غير مرة تلك الحكايات التي مفادها انه قد يُعثر لدى بائعي الصور الشعبية الرخيصة على لوحات لاساتذة كبار اما صاحب الحانوت ، وقد رأى الى أين اندس هو ، فقد كف عن ململته ، واكتست ملامحه سيماء الجد وعاد الى وضعه المعتاد واتخذ مكانه من جديد عند الباب داعياً المارّة ومشيراً إليهم باحدى يديه الى الحانوت ، «الى هنا ، أيها الأب ، ها هي اللوحات ! تعالوا عرّجوا الى هنا ! إنها مستلمة لتوّها من البورصة» وبعد ان صرخ ما فيه الكفاية ، وأغلب ذلك كان دون جدوى ، وبعد ان ثرثر ما شاء مع بائع المزق والقصاصات ، الواقف قبالته كذلك عند باب حانوته هو ، وإذ تذكر ، أخيراً ، ان لديه في الحانوت يوجد مشتر ، أدار ظهره للناس وتوجّه إلى داخله «ماذا ، هل اخترت شيئاً أيها الأب ؟» غير ان الرسام كان قد وقف بعض الوقت

دون حراك أمام لوحة واحدة في إطار كبير كان وقتاً من الأوقات رائعاً ، اما الآن فان آثار التذهيب كانت تتألّق على نحو خافت كانت هذه لوحة شيخ ذي وجه برونزيّ اللون ، بعظام ناتئة في وجنتيه ، نحيلٍ واهن ، وكانت ملامح الوجه تبدو كما لو انها قد رُسمت في حركة تشنج ، ولم تدل على قوة رجل من الشمال وكانت الظهيرة النارية قد رسخت فيها كان ملفوفاً في بدلة آسيوية عريضة ومهما كانت اللوحة تالفة ، ومتربة ، لكنه حين وفق لأن يمسح التراب عن الوجه ، استطاع ان يرى آثار عمل فنّان كبير وبدا ان اللوحة لم تكن منتهية ، ولكن قوة الفرشاة كانت مدهشة للغاية كان أشدّ الامور فيها فرادة وغرابة هو العينان فقد بدا كما لو ان الرسّام قد وضع فيهما كل قوة الفرشاة وبذل فيهما كل جهده الحريص كانتا تتطلعان حتى من الصورة ذاتها ، كما لو انهما قد دمّرتا تناسقها وانسجامها بحيويّتهما الغريبة وحين حمل هو الصورة الى الأبواب ، جعلت العينان تتطلّعان على نحو أقوى وكان الانطباع الذي تركتاه في الناس ممثلا لذلك وصرخت امرأة ، كانت واقفةً خلفه « انه ينظر ، ينظر » ، وانتكصت الى الوراء .

وكان احساس ما غير سارّ ، غير مفهوم له هو نفسه قد بدا يحسه ، ووضع اللوحة على الأرض

ــ لكن ماذا ، أستأخذون اللوحة ؟ قال صاحب الحانوت

ــ لكن كم عنها ؟ ــ قال الرسام

ــ علام أُفرط في ثمنها ؟ أعطني ثلاثة أرباع الروبل !

ــ كلا

ــ حسناً ، ولكن كم ستعطي ؟ ــ عشرين كوبكا ــ قال الرسام ، مستعداً للمضى

ــ ايه ، أي سعر طرحت ! بعشرين كوبكا لن تشتري الاطار وحده ! واضح ، إنكم تستعدون للشراء غدا ؟ ايها السيد ، ايها السيد ، استدر ! اعطني ولو عشرة كوبكات اضافية خذ ، خذ ، اعطني العشرين كوبكا الحق ان هذا لمجرد الاستفتاح ، فانك المشتري الأول . ــ وصنع بعد هذا إشارة ، كما لو انه كان يقول « حسنا ، فلتضع اللوحة ! »

وعلى هذا المنوال كان تشارتكوف قد اشترى ، تماماً دون توقّع لوحة قديمة ، وكان في ذات الوقت يفكر : « علام اشتريتها ؟ لأي شيء تلزمني هي ؟ »

ولم يكن مفرا من ذلك وأخرج من جيبه العشرين كوبكا وناولها صاحب الحانوت ، وأخذ اللوحة تحت ابطه ، ومضى بها وفي الطريق تذكر هو ان العشرين كوبكا التي أعطاها كانت هي آخر شئ لديه فاقتمت أفكاره فجأة واجتاحه الأسى والفراغ اللا ابالي في تلك الدقيقة بالذات « الى الشيطان ! ما أكثر الدناءات في هذه الدنيا ! » قال هو باحساس روسي أموره سيئة وبصورة آلية تقريباً ، جعل يسير بخطى سريعة ، مفعماً باللاأبالية تجاه كل شيء كان النور الأحمر لشفـق المساء لا يزال في نصف السماء، وكانت البيوت المرتمية في الجانب الآخر لا تزال منورةً بنوره الدافئ ، وفي أثناء ذلك كان النور البارد المزرقّ قد أصبح أقوى وكانت الظلال الخفيفة شبه الشفافة للبيوت وأقدام المشاة تلقي بذيولها على الأرض وكان الرسام قد بدأ يتطلع تدريجياً نحو السماء المنوّرة بنور شفاف ، رقيق يبعث على التوجّس ، وفي آن واحد تقريباً ندّت من شفتيه كلمات تقول « اى سحنة رقيقة ! » تقول ايضاً: « إنه لأمر يبعث على الأسى سحقاً للشيطان ! » — وحث خطاه ، مسوياً من أمر اللوحة التي كانت تنزلق باستمرار من تحت ابطه . وبلغ ، وقد أمضّ به التعب وتصبّب

جسده عرقاً ، بلغ بيته الواقع في الشارع ـ « الخط الخامس عشر » في جزيرة فاسيليفسكي وبجهد بالغ كان يلتقط فيه أنفاسه بين الفينة والفينة ، ارتقى هو السلّم المرشوش بالغسالات ، والمزيّن ببراز القطط والكلاب ولقاء طرقه في الباب لم يكن أيما جواب لم يكن ثمة إنسان في البيت فاتكأ إلى النافذة ، وتهيأ لينتظر مصطبراً ، ريثما تردّدت ، أخيراً ، في البعيد خطى فتى في قميص أزرق ، هو مساعده في خلط الدهان وموديله وكنّاسه ، يوسخ الارض بحذائه الطويل ثم يكنسها كان الفتى يدعى نيكيتا ، وكان يُمضي الوقت كله في الشارع ، حين لا يكون سيده في البيت وجاهد نيكيتا طويلاً ليقع بالمفتاح على الثقب في الباب غير الملاحظ قطعاً بسبب الظلمة وأخيراً فتحت الباب ودخل تشارتكوف غرفة استقباله ، الباردة بشكل لايطاق ، كما هو الحال أبداً لدى الفنانين ، الأمر الذي لا يلاحظونه هم على أية حال ودون ان يناول نيكيتا المعطف ، دلف معه سوية الى الاستوديو ، الى الغرفة المربّعة الكبيرة ، ولكن الواطئة السقف ، ذات النوافذ المتجلّدة ، والمليئة بكل ما يلزم الرسّام من أمتعة : قطع الأيدي من الجبس ، والاطارات

المغلّفة بالخيش ، والرسوم المجمَلة المبدوء بها والمرميّة ، والسجف المنشورة على الكراسي لقد تعب تعباً بالغاً ، ورمى المعطف ، ووضع اللوحة التي أتى بها ذاهلاً ، بين خامتين غير كبيرتين ، وارتمى على الأريكة الضيقة ، التي لم يكن ممكناً ان يقال عنها بانها مغلّفة بالجلد ، وذلك لأن صف المسامير النحاس ، التي كانت قد دقّت فيها وقتاً من الأوقات ، قد أصبح منذ أمد طويل حراً لوحده ، فيما بقي الجلد من فوق حراً هو كذلك لوحده ، وهكذا فان نيكيتا قد دسّ تحت هذا الجلد بجواربه السود ، وقمصانه وكل الالبسة الداخلية غير المغسولة وإذ جلس برهة ، وتمدّد شيئاً ، بمقدار ما استطاع التمدد على هذه الأريكة الضيقة ، سأل ، أخيراً ، شمعة

— لا توجد شمعة ، — قال نيكيتا . — كيف لا توجد ؟

— انها لم تكن موجودة حتى بالامس — أجاب نيكيتا

وتذكر الرسّام ، ان الشموع فعلاً لم تكن موجودة بالامس ، وتطامن وسكت سمح لنيكيتا خلع ملابسه وارتدى روبه الذي لبسه ما شاء

— أجل وإلى ذلك ، لقد كان صاحب البيت

مرة اخرى ــ قال نيكيتا . ــ حسناً ، هل جاء من أجل النقود ؟ أعرف ــ قال الرسام ملوّحاً بيده

ــ لكن لم يأت وحده ــ قال نيكيتا. ــ مع من إذن؟

ــ لا أدري مع من إنه رجل بوليس

ــ لكن لماذا رجل البوليس ؟

ــ لا أدري لماذا ، انه يقول بسبب عدم دفع أجور الشقة

ــ حسناً ماذا ينتج من هذا ؟ ــ لا أدري ماذا ينتج لقد قال ما دام لا يريد الدفع ، دعه إذن يغادر الشقة؛ وهما عازمان على المجيء كلاهما غداً أيضاً.

ــ دعهما يأتيان ــ قالها تشارتكوف بعدم اكتراث حزين وتملّكه تماماً شعور مثقل بالغمّ

كان الشاب تشارتكوف رساماً ذا موهبة تعد بالكثير: فقد كانت ريشته بالتهاباتها وفوراناتها البالغة السرعة تستجيب بدقة الملاحظة وحسن الفطنة ، وباندفاعها الحثيث في الاقتراب الموغل من الطبيعة. ــ «حاذر، ايها الأخ، ــ قال له غير مرة أستاذه ، ــ إن لديك موهبة ، سيكون إثماً إنْ أجهزت عليها لكنك غير صبور فما يغويك شيء ما، وما إنْ تهوَى شيئاً من الاشياء ــ حتى

تنشغل به انشغالا ، ويكون الباقي كله هراء بالنسبة لك ، بل حتى إنك لا تريد ان تنظر إليه حذار ان تكون رساماً عصرياً ترسم وفقاً للموضة إن الالوان لديك الآن أيضاً قد بدأت تضجّ جداً ان الرسم لديك غير صارم التخطيط ، بل هو أحياناً ضعيف جداً ، فالخطّ غير واضح ؛ إنك تسعى وراء توزيع الانوار والظلال بالطريقة العصرية ، من اجل ذلك الذي يضرب في العيون الأولى ـ احذر ، فانك بالضبط ستصبح من جنس الرسّامين الانكليز احذر ، فان بهارج الدنيا جعلت تجتذبك ها إني أرى لديك احياناً على الرقبة منديلاً غندورياً ، وقبعة ذات لمعة مفرطة إن هذا لمغرٍ ، إذ يمكن ان تنهدّ ترسم اللوحات وفقاً للموضة ، وصور الاشخاص من أجل النقود. وبهذا بالذات تندثر موهبتك ، ولن تتطور. اصبر تمعّن في أيما عمل، واطرح الغندرة ـ دع الآخرين يوفروا الدراهم فان ما هو لك لن يهرب منك »

كان الاستاذ محقاً بعض الشيء فان رسامنا كان يهوى أحياناً القصف والمنادمة ، والغندرة والتباهي ، وبكلمة ، أن يُظهر شبابه في بعض الامكنة . ولكنه

برغم كل هذا كان يستطيع ان يضبط نفسه ويكبح هواه كان يستطيع في وقت من الأوقات ان ينسى كل شيء حين يقبل على الفرشة ، فيظلّ يعمل بها ولا يبارحها مثلما لا يريد المرء مبارحة حلم لذيذ. وقد تطوّر ذوقه بشكل ملحوظ إنه لم يفهم بعد كل خفايا فنّ رفائيل ، ولكنه كان قد شُغف بالضرب بالفرشة السريعة ، العريضة على طريقة غويدو ويطيل التوقف أمام صور تيتسيان ، وأعجب بالرسامين الفلامنديّين وكان المظهر المقتّم ، المعبر عن اللوحات القديمة لم يتغلغل فى ذهنه كليةً بعد، غير انه استطاع ان يدرك فيها شيئاً ما ، ولو انه لم يتفق في سرّه مع استاذه في قوله ان اساتذه الفن القدماء قد غادرونا دون ان يدرك سرّهم أحد ، بل حتى تراءى له ان القرن التاسع عشر قد تجاوزهم بقدر لا يستهان به في مجالات معينة ، وان محاكاة الطبيعة قد أصبحت الآن بشكل من الاشكال ، أشدّ حيوية ، وألقاً ، وقرباً ؛ وبكلمة ، فانه فكر في هذا الأمر مثلما كانت تفكر الشبيبة التي تدرك شيئاً ما ، فتظلّ تتحسّسه في وعيها الداخلي ، باعتزاز وأحياناً كان يسوؤه الأمر ، حين كان يرى رساماً قادماً ، فرنسياً كان أم المانياً ، وحتى احياناً

قطعاً ليس بالرسام بالفطرة ، كان بمجرد العادة التي يعتادها المرء وعنف الفرشة وألق الالوان الصارخ ، كان بهذا يثير ضجيجاً عاماً ويكدّس لنفسه في الحال رأسمالاً نقدياً كان هذا يراود ذهنه ليس في ذلك الوقت الذي يكون مشغولاً فيه كليةً بعمله حين كان ينسى الشرب أيضاً، والاكل، بل والكون كله ، وإنما في ذلك الوقت الذي تلحّ به الحاجة الماسّة ، حين لا يكون ثمة شيء تُشترى به الفرش والألوان ، وحين يظلّ صاحب البيت الملحاح يأتيه بمعدل عشر مرّات في اليوم ليطالبه بأجرة الشقة فآنذاك كان يرتسم بشكل ينضح بالحسد في خياله الجائع مصير الرسام الغنيّ وإذ ذاك كانت تمرق في ذهنه فكرة كثيراً ما تمرق في الرأس الروسي الرمي بكل شيء إلى الشيطان واغراق الأحزان في بنت العنب والآن كان هو في مثل هذا الوضع تقريباً

« أجل ! اصبر ! اصبر ! — ردّد هو بأسى — إنه لتوجد أخيراً ، نهاية للصبر اصبر ! ولكن بأية نقود سآكل غداً ؟ لا أحد يعطي بالدين وحتى إذا حملت كل لوحاتي ورسومي للبيع فسيعطونني مقابلها ، عن كلها ، عشرين كوبكا . إنها نافعة ،

بالطبع ، وإني لأحسّ بذلك إن أي واحدة منها لم تُصوّر عبثاً ، وفي كل واحدة منها عرفت شيئاً ما لكن أين النفع ؟ إنها رسوم تحضيرية ومحاولات ـ وكل شيء سيكون رسوماً تحضيرية ومحاولات ، ولن تكون نهاية لذلك أجل ومن يشتري دون ان يعرفني بالاسم ثم مَن تلزم هذه الرسوم المأخوذة من الانتيكات ، او المأخوذة من الموديلات الحية ، ولوحة « حب بسيخيا » التى لم انهها بعد او منظور غرفتي ، او صورة خادمي نيكيتا ، بالرغم من انها ، والحق يقال ، أفضل صور الاشخاص مما يستطيع ان يرسمه رسام عصري ؟ اجل ، ماذا في الواقع ؟ علامَ اتعذب واظلّ مثل تلميذ انقب عن الألفباء ، حين استطيع ان أتألق لا أسوأ منهم بحال ، وان اكون مثلهم ، ذا نقود »

وإذ نطق الرسام بهذا انتفض فجأة وشحب فقد كان يتطلع إليه ، ناتئاً من وراء الخامة المنصوبة ، وجه شخص ما قد شوّهه التشنج . كانت عينان رهيبتان مسمّرتين فيه مباشرة ، كما لو انهما مستعدتان لالتهامه ، وعلى الشفتين كان قد ختم الأمر بالصمت وأراد هو المرعوب أن يصرخ وان يدعو نيكيتا ، الذي وفّق لأن يُطلق من غرفة الانتظار ، حيث كان يرقد ،

شخيراً عالياً ، ولكنه فجأة توقّف وضحك لقد بارحه الاحساس بالرعب فوراً كان هذا هو اللوحة التي اشتراها ، والتي نساها كلية كان نور القمر الذي نوّر الغرفة قد ناشها هي أيضاً، فأبلغها حيوية غريبة. لقد أقبل ينظر الى الصورة وينظّفها فبلّل اسفنجة بالماء ، وأمرّها على اللوحة عدة مرات ، وازال كل ما كان قد تكدّس وعلق بها من تراب ووسخ ، وعلّقها على الحائط امامه ، وأعجب بالعمل الذي كان خارقاً جدا كان الوجه كله قد بُعث ، وكانت العينان تنظران إليه بذلك الشكل ، الذي لم يكن له بدّ من الانتفاض ، متراجعاً إلى الوراء ، والنطق بصوت دهش «انه ينظر ، ينظر بعينين انسانيتين !» لقد خطرت فجأة على باله تلك الحكاية ، التي سمعها من استاذه منذ زمن حول إحدى صور الفنان الشهير ليونارد دافينشي التي عمل الفنان الكبير فيها عدة أعوام ، ومع ذلك كان يعدّها غير منتهية ، رغم انها كانت ، وفقاً لكلمات فازاري ، قد اعتبرها الجميع من أكمل آثار الفن وأتمها كان أتمّ ما في الصورة هي العينان ، اللتان أدهشتا معاصريه ، فحتى أتفه أوردتهما بل التي لا تكاد تُرى ، كانت قد نقلت بتمامها الى قماشة اللوحة وعلى أية حال ،

فهنا في هذه اللوحة التي كانت أمامه الآن ، كان ثمة شيء ما غريب فهنا لم يعد فن ، فان هذا قد أجهز على انسجام وتناسق اللوحة ذاتها كانت هنا عينان إنسانيّتان حيتان قد اقتطعتا من انسان حي وثُبّتتا هنا وهنا لم يَعدُ ذلك الاستمتاع الرفيع ، الذي يكتنف الروح عند النظر الى أثر الرسام مهما كان رهيباً الموضوع الذي اختاره ، هنا كان إحساس ما مرضي ، ممضّ «ما هذا ؟ — طفق الرسام يسأل نفسه عفو إرادته . — إن هذا ، على كل حال هو طبيعة ، طبيعة حيّة فمن أي شيء يتأتى هذا الأحساس الغريب غير السار ؟ ام ان التقليد الحرفي الأعمى للطبيعة عاد إثماً وصار يبدو صراخاً حاداً متنافراً ؟ ام انك اذا أخذت الشيء دونما مشاركة فيه وتحسّس به ، فانه بالتأكيد لن يَمثُل إلا في واقعه الرهيب ، غير المنار بنور فكرة ما غير مدركة خفيّة يمثُل في ذلك الواقع ، الذي ينفتح لك حين تتسلح راغباً بادراك كنه الانسان الرائع ، بمبضع تشريح ، وتشقّ جوفه وترى إنساناً منفراً تُرى لماذا تكون الطبيعة البسيطة والواطئة عند فنان معين في ذلك المظهر الملائم ، فلا تحسّ باي انطباع رذيل ، بل بالعكس يبدو كما

لو انك تمتّعت ، ويجري كل شيء بعد ذلك على نحو أهدأ واشد انسجاماً واتّساقاً ويتحرك حواليك ولماذا تبدو تلك الطبيعة ذاتها لدى فنان آخر حقيرة ، قذرة ، فيما يكون هذا الفنان ، بالمناسبة ، بالغ الأمانة للطبيعة ولكن كلا ، لايوجد فيها شىء ما مشرق إن الأمر يظل سيّان مثل المشهد الطبيعي فمهما كان فاخرا ، فانه ليظلّ شيء ما يعوزه ، إن لم تكن شمس في السماء »

وجاء هو اللوحة مرةً اخرى من اجل ان ينظر الى هاتين العينين العجيبتين ، ولاحظ برعب انهما بالضبط تنظران إليه إن الأمر لم يعد نسخةً من الطبيعة ، بل هنا كانت تلك الحيوّية الغريبة ، التي كان يمكن ان تنوّر وجه الميت الناهض من القبر تُرىَ أهو نور القمر يحمل معه هذيان الحلم ، ويجسّد كل شيء في صور اخرى تناقض حالَها في النهار ، أم ثمة شيء آخر كان وراء ما حصل له فجأة ودون ان يعرف ممّ كل هذا بحيث بات الجلوس معه وحيداً في الغرفة أمراً رهيباً وانفصل عن اللوحة بلطف ، واستدار إلى الجانب الآخر وحاول إلا ينظر اليها ولكن عينه ظلت ، مع ذلك ، تنظر منحرفة اليها . وأخيراً اصبح

رهيباً عليه حتى السير في الغرفة ، فقد جعل يلوح له انه سينهض في هذه الساعة شخص ما آخر ليتابع خطواته ، وفي كل مرة كان ينظر متهيّباً الى الوراء إنه لم يكن قط هلوعا ، ولكن خياله وأعصابه كانت مُرهفة ، وفي هذا المساء لم يستطع هو ذاته ان يفسّر لنفسه خوفه اللاإرادي فركن في الزاوية ، ولكنه هنا أيضاً تراءى له ان أحداً ما سينظر في هذه اللحظة او تاليتها إليه في وجهه بل إن ذات شخير نيكيتا ، المتردّد من غرفة الانتظار ، لم يطرد خوفه — ونهض أخيراً ، بتهيّب ، وتوجّه ، دون أن يرفع عينيه ، الى مخدعه وراء الستار ، واضطجع في الفراش وعبر فرج الأسترة رأى هو غرفته المنوّرة بنور القمر ، ورأى مباشرة اللوحة المعلقة في الحائط كانت عيناه قد تسمّرتا فيه على نحو أشدّ رعباً ، وأقوى تعبيرا ، ولم تريدا أن تنظرا الى أي شيء آخر ، وإنما فقط إليه فقرّر ، مُفعماً بأحساس مرهق ، ان ينهض من الفراش ، واختطف ملاءة بيضاء ، واقترب من اللوحة وغطّاها كليةً وإذ صنع هذا ، رقد في الفراش على نحو أهدأ ، وجعل يفكر بالمصير التاعس البائس للرسام وبالطريق الشائك الماثل امامه في هذه

الدنيا ، وفي هذه الاثناء كانت عيناه ترنوان عفو ارادته عبر فرج الاسترة إلى اللوحة الملفوفة بالملاءة وشدّد نور القمر من بياض الملاءة ، ولاح له ان العينين الرهيبتين جعلتا تبدوان عبرها وبرعب حدّق هو بعينين مسمّرتين كما لو انه كان يتمنّى الاعتقاد ان هذا محض هراء ولكنه في النهاية ، كان في واقع الأمر يرى يرى بوضوح انه لم تعد هناك ملاءة وكانت اللوحة مفتوحة بتمامها ، وينظر من فيها ، جاهلا كل شيء ، اليه مباشرة ، اليه ببساطة ، الى داخله واعماقه فتقلّص قلبه ويرى ان الشيخ قد تحرك وفجأة استند الى الاطار بكلتا يديه وأخيراً نهض على يديه ، وأخرج كلتا قدميه ، وقفز من الاطار وعبر فرج الأسترة كانت لا تُرى الا الاطارات الفارغة ودوى في الغرفة قرع خطوات ، بات يدنو حثيثاً من الأسترة وجعل القلب يخفق أقوى لدى الرسام المسكين وبأنفاس محتبسة من الرعب انتظر هو انه بين لحظة وأخرى سيتطلّع إليه الشيخ من وراء الستار وها هو الشيخ بالذات يتطلع ، من وراء الستار ، بذلك الوجه البرونزي ذاته ، مزيّغاً عينين كبيرتين وجاهد تشارتكوف لأن يصرخ فشعر

انه لا يوجد لديه صوت ، وحاول التزحزح والقيام بأي حركة ـ فاذا بأعضائه لا تطاوعه على الحركة وبفم فاغر وانفاس محتبسة جعل ينظر الى هذا الشبح الرهيب الطوال ، في غفـّارته الآسيوية ، وطفق ينتظر ماذا سيفعل هو وجلس الشيخ عند ذات قدميه تقريباً ، وما لبث ان أخرج شيئاً ما من تحت طيّات ثوبه الواسع كان هذا كيساً فلك الشيخ عقدته ، ونفضه ممسكاً به من كلتا نهايتيه وبصوت خفيض مبهم وقعت على الأرض لفافات ثقيلة بشكل أعمدة صغيرة طويلة ، وكان كل منها ملفوفاً في ورقة زرقاء وعلى كل منها قد سُجل ما يلي « ١٠٠٠٠ روبل ذهبي » وانهدّ الشيخ ، وقد أبرز يديه الطويلتين ، العريضتي العظام ، من كمـّيه العريضين ، انهدّ يحلّ اللفافات ، فجعل الذهب يتألق ومهما كان كبيراً ذلك الأحساس الممضّ والرعب الذي يفقد الرشد ، الذي اجتاح الرسام ، فانه ، مع ذلك ، تسمـّر كليةً في الذهب ، متطلعاً دون حراك ، يرى كيف كان الذهب يتدور في اليدين العريضتي العظام ، وكيف كان يتألق ، ويرن بلطف وبصوت خفيض ويُلفّ من جديد وهنا لاحظ هو لفافة واحدة ، تدحرجت على مبعدة من

اللفافات الاخرى ، عند ذات قائمة سريره في الطرف من ناحية الرأس وبما يقارب التشنّج اختطفها هو ، ونظر وقد اُفعم رعباً ، خشية ان يلاحظه الشيخ غير انه لاح ان الشيخ كان مشغولا جداً فقد جمع هذا كل لفافاته ووضعها من جديد في الكيس ومضى الى وراء الستار ، دون ان ينظر إليه وخفق قلب تشارتكوف بقوة حين سمع كيف تردّد في الغرفة وقع الخطوات المبتعدة وضغط بنحو أقوى لفافته في يده ، منتفضاً بكامل جسمه خوفا عليها ، وفجأة سمع وقع خطوات تقترب من جديد الى الاسترة ــ لقد كان واضحاً ان الشيخ قد تذكر انه لا تكفي لفافة واحدة وها هو من جديد قد اطلّ يتطلّع إليه من وراء الاسترة وشدّ ، باستماتة بالغة بكل قواه على اللفافه في يده ، وبذل كل جهده ليقوم بحركة ، صرخ واستيقظ كان العرق البارد يجلّله كلية ؛ وكان قلبه يخفق بمنتهى قوته وأحس بضيق بالغ في صدره كما لو انه سيطير منه النفس الأخير «أفحقاً كان هذا حلماً ؟» ــ قال هو وقد أخذ رأسه بكلتا يديه ، ولكن الحيوية الرهيبة للظاهرة لم تكن شبيهة بالحلم لقد رأى وقد استيقظ ، ان الشيخ قد مضى إلى اطاره ، وومض ذيل

ثوبه الواسع ، وتحسّست يده بوضوح انها قد أمسكت قبل ذلك بدقيقة ، بثقل ما كان نور القمر ينوّر الغرفة ، مرغماً اشياءها على مبارحة الظلمة ، فظهرت الخامة ، واليد الجبسي ، وظهرت السجوف المنشورة على الكرسي وظهر البنطلون والحذاء الطويل غير المنظّف بعد وهنا فقط لاحظ هو انه لا يرقد في فراشه وإنما يقف على قدميه مباشرة أمام اللوحة كيف جاء هو هنا — هذا أمر لم يستطع هو فهمه بحال والى ذلك ، فان مما زاد في دهشته ، هو ان اللوحة كانت مفتوحةً كليةً ، ولم تكن الملاءة عليها في الواقع وبرعب لا حراك فيه نظر هو الى الصورة فرأى كيف تسمّرت فيه مباشرة عينان إنسانيتان حيّتان كان العرق البارد قد طفح على وجهه ، واراد المضيّ لكنه أحسّ ان قدميه لا تطاوعانه ، لكأنهما غُرزتا في الارض غرزاً وصار يرى ان هذا لم يعد بالحلم فان ملامح الشيخ قد تحركت ، وصارت شفتاه تتمدّدان صوبه ، كما لو انهما كانتا تريدان امتصاصه وبصراخ المستميت انفصل هو من مكانه واستيقظ «أفحقاً كان كل هذا حلماً ؟» وبقلب كان يرتطم في صدره ارتطاماً قد جس هو بيديه ما حوله أجل ،

إنه يرقد في الفراش في ذات الوضع الذي رقد فيه كانت أمامه الأستار ، ونور القمر يملأ الغرفة وعبر فرج الاستار كانت اللوحة تُرى ، مغلفةً كما ينبغي بالملاءة ـ بالشكل الذي غطّاه بها هو وهكذا فان ما رآه كان حلماً بالضبط ! ولكن اليد المتقلصة ، المضغوطة على بعضها كانت تحسّ حتى الآن ، كما لو ان شيئا كان فيها. وكان خفق القلب بالغ القوة بل رهيباً ، كما كان الضيق في الصدر لا يُطاق وحملق بعينيه في الفرج ما بين الاستار ، وتطلع بمنتهى التركيز الى الملاءة ها هو يرى بجلاء ان الملاءة ابتدأت تنفتح، كما لو ان يدين كانتا تتخبطان تحتها وتجهدان ان تلقيا بها « أعوذ بالله ، ياالهي ، ما هذا ! » هتف هو ، راسماً علامة الصليب ، في يأس ، واستيقظ وكان هذا حلماً أيضاً ! فوثب من الفراش ، شبه مخبول ، فاقد الرشد ولم يعد يستطيع تفسير ما هذا الذي يحدث له أهو ضغط كابوس أم روح شريرة ، أم هذيان حمى ، أم رؤيا حقيقية ومضى ، محاولاً ان يهدئ ، لدرجة ما ، الاضطراب الروحي ، والدم المثار الفائر ، الذي كان يخفق بنبض متوتّر في كل عروقه ، مضى هو الى الشباك وفتح

الكوة فأنعشته الريح الباردة وكان نور القمر لا يزال منبسطاً على سطوح البيوت وحوائطها البيض بالرغم من ان السحب غير الكبيرة أصبحت تمرق في السماء كان كل شيء ــ هادئاً ونادراً ما كانت تترامى الى اسماعه اصوات ارتجاج بعيد لمركبة حوذي كان قد رقد في زقاق غير مرئي ، تهدهده فرسه الهزيلة ، في انتظار راكب متأخر تطلع هو طويلا ، مُتلِعاً رأسه من الكوة وفي السماء كانت تولد علائم الفجر المقترب ، وأخيراً أحس هو بوسن لا يقاوم فصفق الكوة ، ومضى ورقد في الفراش ، وسرعان ما غطّ في نوم عميق

استيقظ متأخراً جداً ، وأحسّ في نفسه بتلك الحال غير المريحة التي تتملّك الانسان بعد الحمىّ ، وآلمه رأسه بشكل موجع وفي الغرفة كانت غبش كدر فالنداوة غير المريحة كانت تنوّر في الجو وتتسرّب عبر فروج نوافذه ، المعلقة عليها اللوحات او الخامات التي لم يكتمل تلوينها بالزيت بعد وكمثل ديك منقوع بالماء ، رقد على اريكته الخلقة مغتماً كئيباً ، دون ان يعرف هو نفسه بم يبدأ ، وما العمل وتذكر أخيراً كل حلمه وبمقدار ما كان يستطيع

التذكر ، كان هذا الحلم قد مثل في خياله حياً على نحو مرهق ، بحيث انه حتى جعل يتشكّك أكان بالضبط هذا حلماً وهذياناً بسيطاً ، أفلم يكن هنا شيء ما آخر ، أفلم يكن هذا رؤياً ومجتذباً الملاءة ، طفق ينظر في نور النهار الى اللوحة الرهيبة كانت العينان تذهلان ، بالضبط ، بحيويّتهما غير الطبيعية ، ولكنه لم يجد فيهما شيئاً ما رهيباً ؛ فقط كما لو انه قد تبقى في الروح شيء ما يعصى على الادراك ، واحساس غير سارّ ومع كل هذا فانه لم يستطع ان يقتنع ، على كل حال ، تمامَ الاقتناع بان هذا كان حلما ليس الا فقد تراءى له انه قد تخلّل الحلم مقتطَف رهيب من الواقع وخُيّل له انه حتى في ذات النظرة ، وفي تعبير الشيخ ذاته يوجد شيء ما يتكلم عن انه كان لديه في هذه الليلة ، وتحسّست يده بثقل كان قد رقد على التوّ فيها ، كما لو ان احداً قد اختطف هذا الثقل منها قبل دقيقة واحدة ليس الا ولاح له انه لو امسك باللفافة على نحو أقوى ، فلعلها كانت قد بقيت لديه في يده بعد يقظته أيضاً

« يا إلهي ، ليت لدي كان شطر من هذه النقود ! » ــ قال هو ، زافراً بثقل ، وفي خياله جعلت

تنصبّ تباعاً كل اللفافات التي رآها مع الكتابة المغرية عليها «١٠٠٠ روبل ذهبي» كانت اللفافات تنفتح ، والذهب يتألق ، وما تلبث ان تنغلق من جديد ، وجلس ، مسمراً ، دون حراك وبلا هدف ، عينيه في الهواء الفارغ ، دون ان يكون في حال يستطيع فيها فكاكاً من هذا الموضوع – مثل طفل جالس إزاء طبق من الحلويات ، ويرى ، بالعاً رضابَه ، كيف يلتهمه آخرون وأخيراً دوى قرع في الباب ، فأرغمه على الصحو بشكل غير مريح دخل صاحب البيت مع ناظر البوليس ، الذي كان ظهوره بالنسبة للناس الصغار يعتبر ، كما هو معلوم ، أمراً أشدّ في بعثه على عدم الارتياح من ظهور السائل بالنسبة للأغنياء وكان صاحب البيت ، الذي يقطن فيه تشارتكوف أحد المخلوقات التي تتملّك البيوت عادة في الشارع خط الخامس عشر من جزيرة فاسيلفسكي ، في طرف بطرسبورغ ، أو في زاوية كولومنا القصيّة – مخلوق ما اكثر أمثاله في روسيا ، يصعب تحديد طبعه بذلك القدر الذي يصعب فيه تحديد لون السترة المهترئة كان في شبابه نقيباً ، صرّاخاً ضاجّاً ، وتمرّن أيضاً في الوظائف المدنية ، وكان استاذاً في

الجلد ، وحركاً غندوراً وغبياً ، ولكنه في شيخوخته وحد في نفسه ما بين كل هذه الصفات الحادة في حَيص بَيص لا يبين منه شيء وكان قد ترمّل ، وكان قد تقاعد أيضاً ، ولم يعد غندوراً ، ولم يعد متبجّحاً ، ولم يتكبر ، وكان يحب شرب الشاي فقط والثرثرة اثناءه بكل سفسف وهراء كان يسير في الغرفة ويصلح من شأن الشموع ، ويمر بانتظام عند انتهاء كل شهر على نزلائه لجمع النقود ، ويخرج الى الشارع ومفتاحه في يده لينظر الى سقف بيته ، وكان قد طرد بوابه من جَحره عدة مرات ، حيث كان ينسلّ ليرقد ، وبكلمة كان انساناً متقاعداً تبقّت لديه بعد كل حياته الحافلة وشعبطاته في الحانات ، عاداته المبتذلة لوحدها

ــ تفضلوا فانظروا الامر بنفسكم ، يافاروخ كوزميتش ، ــ قال صاحب البيت مخاطباً رجل البوليس وباسطاً يديه ، ــ ها هو لا يدفع عن الشقة ، لايدفع

ــ لكن ما العمل ، اذا لا توجد نقود ؟ انتظروا ، سأدفع

ــ أنا لا استطيع الانتظار ، أيها الأب ، ــ قال صاحب البيت بغضب ، صانعاً إشارة بالمفتاح ، الذي امسك به في يده . ــ إن لديّ المقدم بوتوغونكين

يعيش ، سبعة أعوام يعيش ، ولدّي آنا بتروفنا بوخميستيروفا تستأجر العنبر والاسطبل بمعلفيه ، وثلاثة خدم معها ـ ها هم نزلائي وإذا تكلمنا بصراحة ، فلست معتادا على ان لا يدفع النزيل أجر سكنه تفضلوا الآن بالدفع ، اجل ، والارتحال من هنا إلى حيث

أجل ، ما دمتم قد تعاهدتم ، اذن فاسمحوا بالدفع ـ قال ناظر البوليس مع هزّة خفيفة لرأسه ، وواضعاً اصبعه على زرّ سترته الرسمية

ـ لكن بم الدفع ! تلك هي المسألة ! فالآن لا يوجد لدي ولا كوبيك واحد

ـ في مثل هذه الحالة عوّضوا ايفان ايفانوفيتش بنتاجات عملكم ، ـ قال رجل البوليس لعله سيوافق على أخذ لوحات

ـ كلا ، أيها الأب ، شكراً عن اللوحات . لا بأس لو كانت اللوحات ذات محتوى نبيل ، كي يكون ممكناً تعليقها على الحائط ، ولو صورة جنرال ما بنجمة ، او صورة الأمير كوتوزوف ، لكنه قد رسم فلاحا قرويا ، قرويا في قميص ، خادمه الذي يحضر له الاصباغ . انه يرسم صورة لهذا الخنزير الذي لو وقع

بين يدى لاشبعته ضربا ، إن خادمه النصّاب هذا قد اقتلع كافة المسامير من المزاليج هاكم انظروا ، أية مواضيع يرسم ، انه يرسم غرفة لا بأس لوصوّر غرفة نظيفة ، أنيقة ، ولكن هاكم كيف رسمها بكل قاذوراتها وسقط متاعها ، بكل ما انتثر فيها هاكم انظروا كيف قذّر لي الغرفة، اسمحوا بالنظر بنفسكم. إن لدّي يعيش النزلاء سبعاً من السنين ، عقداء ، وبوخميستيروفا آنا بتروفنا كلا ، إني أقول لكم ليس هناك نزيل أسوأ من الرسام إن الخنزير يعيش خنزيراً ، والعياذ بالله من معيشته

وكل هذا كان ينبغي على الرسام المسكين أن يسمعه صابراً وكان ناظر البوليس قد انشغل ، في هذه الاثناء ، بمعاينة اللوحات والرسوم التحضيريّة ، مظهراً ، في الحال ان روحه اكثر حيوية من روح صاحب البيت ، فهي حتى لم تكن غريبة على الانطباعات الفنيّة

ـ ها ، ها، ـ قال هو ، مشيراً باصبعه الى خامة، كانت قد صُورّت فيها امرأة عارية ، ـ إن هذا الموضوع يوحي باللعب ولماذا يوجد شيء من السواد هنا تحت انف هذا ، أهو التبغ قد نُثر هنا ؟

ـ إنه الظلّ ، أجاب تشارتكوف بصرامة ، ودون ان يلقي نظرة إليه

ـ حسناً ، كان يمكن ان يُثبّت هذا في مكان آخر ، ولكن تحت الأنف ـ إنه لمكان بارز جداً ، ـ قال ناظر البوليس . ـ ولكن صورة مَن هذه ؟ ـ استطرد هو ، متقدماً من صورة الشيخ . ـ إنه لرهيب جداً لكأنه كان في الواقع رهيباً بهذا الشكل آه ، إنه حقا ينظر ايه ، أي رجل مخيف ! عن من صورت هذه اللوحة ؟

ـ عن أحدهم ... ـ قال تشارتكوف ، ولم ينه كلماته هذه حتى سُمع صوت قرقعة الظاهر ان رجل البوليس ضغط على إطار اللوحة بقوة كبيرة ، وبفضل الهيئة الخشنة ليديه البوليسيتين ، فقد تحطمت العوارض الجانبية الى الداخل ، وسقطت إحداها على الارض ، ووقعت سوية معها ، مدوية بقوة، لفافة في ورقة زرقاء. وارتمت في عيني تشارتكوف كتابة « ١٠٠٠ روبل ذهبي » فانقض مثل مجنون يلتقطها ، واختطف اللفافة ، وضغط عليها بتشنجّ في يده ، منحنياً إلى الأسفل جرّاء الثقل

ـ ألم يكن دويّ نقود وقعت ، قال رجل

البوليس وقد استمع الى صوت وقوع شيء ما على الارض ، لم يستطع أن يراه بسبب سرعة الحركة التي انقضّ بها تشارتكوف لانتشاله

ــ ولكن ما هو شغلك بأن تعرف ما هو موجود لديّ ؟

ــ شغلى هو الآن ملزم بأن تدفع إلى صاحب البيت عن الشقة وشغلى انه توجد لديك نقود ولكن لا تريد الدفع ــ ها هو الأمر

ــ حسناً سأدفع له اليوم

ــ طيب ، لكن لماذا لم تدفع له سابقاً ، ولماذا سببّت القلق لصاحب البيت ، بل وأقلقت البوليس أيضاً ؟

ــ ذلك لأني لم أرد أن امس هذه النقود ، سادفع له اليوم مساء بالذات كل شئ ، وسأغادر الشقة غداً ، قلت انى لا أريد ان أبقى عند مثل صاحب البيت هذا

ــ طيب ، إنه سيدفع لك ، يا ايفان ايفانوفيتش ، ــ قال رجل البوليس ، مخاطباً صاحب البيت اما إن لم يدفع لكم مساء اليوم كما ينبغي ، فآنذاك اسمحوا لي ، أيها السيد الرسام ، باتخاذ الاجراءات . ــ وإذ قال هذا ، ارتدى هوقبعته المثلثة، وخرج الى المدخل ووراءه

صاحب البيت ، مطرقاً برأسه ، ومتأملاً في شيء ، كما يبدو

الحمد لله ان الشيطان أخذهم ! ــ قال تشارتكوف ، حين سمع بان باب غرفة الانتظار تقفل وعرج هو على غرفة الاستقبال ، وأرسل نيكيتا في شيء ما ، كي يبقى وحده ، وأقفل الباب وراءه ، وأقبل ، وقد عاد الى الغرفة ، يفتح اللفافة بقلب ملتهب الخفقان كانت فيها العملة الذهبية ، كلها جديدة ، حارة كالنار وجلس ، فاقد الرشد تقريباً ، إزاء كومة النقود ، وهو لا يزال يسائل نفسه طوال الوقت أليس كل هذا حلماً كان في اللفافة ألف قطعة من فئة العشرة بالضبط ، وكان مظهرها هو بالضبط ما طاف به في المنام ولمدى بضع دقائق ظلّ هو يقلب النقود ، ويتفحّصها ، ولم يستطع أن يصحو على نفسه . وبُعثت في خياله فجأة كافة الحكايات عن الخزائن ، والأسفاط ذات الأدراج الخفيّة ، التي تركها الأجداد لأحفادهم المفلسين ، بثقة أكيدة بوضعهم المسرف في المستقبل لقد طفق يفكّر على النحو التالي ألم يفكر الآن جدٌ من الأجداد بأن يُبقي لحفيده هدية ، أخفاها في اطار الصورة العائلية بل انه جعل ، مفعماً بهذر الخيال الروائي ، يفكر أفلا توجد هنا صلة خفية

بمصيره ، أفلا يتعلق وجود اللوحة بوجوده هو ، أليس مجرد اقتنائه لها حكم من أحكام القدر وانهدّ ينظر بفضول إلى إطار اللوحة كان في أحد جانبيها ميزاب صغير مقعّر ، قد رقم بلوحة صغيرة على نحو ماهر وبشكل لا يُلاحظ ، بحيث لو لم تكن يد ناظر البوليس الضخمة قد أحدثت الكسر ، لبقيت الروبلات الذهب الى الابد في أمان وأعجب من جديد ، وهو ينظر الى الوحة ، بالعمل الرفيع ، والانجاز الخارق في تصوير العينين فهما لم تعودوا ندوان له رهيبتين ، ولكن مع ذلك ظلّ في الروح طوال الوقت إحساس غير سارّ. « كلا » ، ـ قال هو لنفسه « مهما كنت جد هذا او ذاك ، اما أنا فسأحفظك وراء الزجاج ، وسأصنع لك ، لأجل ذلك ، إطارات ذهبية » وهنا ألقى هو يده على كومة الذهب ، الراقدة أمامه ، وخفق قلبه بقوة من مثل هذا التماسّ « ما ينبغي عليّ أن أعمل بها ؟ » ـ فكر هو ، مسمراً عينيه عليها. ـ الآن قد كفلت عيشي ثلاثاً من السنوات على الأقل ، أستطيع ان اقفل على نفسي الغرفة وأعمل . الآن يوجد لدّي ما أستطيع إنفاقه على الاصباغ ، وعلى الطعام والشاي ، والمعاش ، وعلى الشقة ؛ ولن يستطيع أحد بعد الآن مضايقتي وإضجاري : سأشتري

لنفسي مانكان ، وسأحجز لنفسي جذعاً جبسياً ، وسوف أصنع سيقاناً ، وسأنصب تمثال فينيرا ، وسأشتري صورة محفورة عن أفخر اللوحات وإذا ما عملت ثلاثة أعوام لنفسي ، دون عجلة وليس لأجل البيع ، فانني سأسبقهم جميعاً ، وسأستطيع ان اكون رسّاماً مجيداً »

هكذا قال هو باسجام مع ما اوحى له به عقله وبصيرته ولكن في داخله تردد صوت آخر كان أشد دوياً واكثر مسموعاً فانه ما إن نظر كرةً أخرى الى الذهب ، حتى قالت الاثنتان والعشرون عاماً من عمره ، والشباب الحارّ شيئاً آخر فالآن كان في سلطته كل شيء مما كان ينظر إليه حتى الآن بعيني الحسد ، ومما كان يُعجب به من بعيد بالعاً رضابه اوه ، كيف خفق في صدره قلبه المتحمس ، حين فكرّ فقط في ذلك ! ارتداء فراك عصري ، وإفطار فاخر بعد صوم طويل واستئجار شقة فاخرة ، والتوجه في الحال إلى المسرح ، الى دكان الحلويات وما الى ذلك بهذه الافكار اختطف هو النقود ، وتكشف به الحال فعلاً في الشارع. وقبل كل شيء مال هو الى الخياط ، فارتدى ما أراد من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ومثل طفل جعل ينظر

إلى نفسه دون انقطاع ، واشترى لنفسه عطوراً وروائح مختلفة ، واستأجر ، دون مساومة في السعر ، أول شقة فاخرة صادفته في شارع نيفسكي ، مجهزة بطقوم كاملة من الزجاج والمرايا ، واشترى صدفة منظاراً غالياً في المخزن ، وسهواً كذلك اشترى وفرة من الأربطة المختلفة اكثر مما كان محتاجاً إليه ، وجعّد لدى الحلاّق خصل شعره ، وتنزّه في عربة فاخرة مرتين في المدينة دونما سبب ، وأكل دون حدود حلوى في دكان الحلويات ، ومضى الى المطعم الفرنسي الذي كان قد سمع عنه حتى الآن اشاعات مبهمة ، كما لو عن الدولة الصينية وهناك تناول غداءه واضعاً يده على خاصرته ، ملقياً ما شاء من النظرات الجريئة على الآخرين ، ومصلحاً أمام المرايا دون انقطاع من شأن خصلاته المجعّدة وهناك شرب هو قنينة شمبانيا كان لحد الآن لا يعرفها الا بالسماع وضج الخمر شيئاً في رأسه ، وخرج هو الى الشارع حياً ، خفيفاً ونشيطاً ، وفقاً للتعبير الروسي الذي يقول لا يهمّه شئ في الدنيا مضى في الرصيف مختالا فخوراً ، مصوّباً منظاره إلى الجميع وعلى الجسر لاحظ هو استاذه السابق فمرق منسلاً بجنبه بجرأة واقتحام ، كما

لو انه لم يلاحظه البتّة ، وبحيث ان استاذه المتخشّب إثر ذلك وقف طويلاً دون حراك على الجسر ، وقد بدت علامة استفهام على وجهه كانت كل حوائجه ، وكل ماكان لديه الركائز ، والخامة ، واللوحات ، كلها كانت قد نُقلت في تلك الأمسية إلى الشقة الممتازة وصف ما كان أفضل منها في أمكنة بارزة ، ورمى ما هو أسوأ في الركن ، وجعل يتخطّى في الغرف الرائعة ، ناظراً دون انقطاع الى المرايا وولدت في روحه رغبة لا تقهر في اختطاف المجد من ذيله في هذه الساعة وإظهار نفسه للعالم. وجعلت تلوح له هتافات تصرخ : «تشارتكوف ، تشارتكوف ، أرأيتم لوحة تشارتكوف ؟ أية فرشة سريعة لدى تشارتكوف! أية موهبة ممتازة لدى تشارتكوف! »

كان يسير في حال من البهجة والحماس في غرفته ـ تنثال خواطره انثيالا دونما حدود وفي اليوم التالي توجّه ، وقد أخذ عشرة من قطع النقود ذات المئة الى أحد ناشري جريدة مشهورة ، ملتمساً المساعدة الكريمة ، فاستقبله الصحفي بمنتهى الحفاوة ، مسمياً إياه في الحال « الموقّر جداً » ، شاداً على يده بكلتا يديه ، مستفسراً بتفصيل عن الاسم ، واسم الأب ، ومكان السكنى ، وفي اليوم التالي بالذات ظهرت في الجريدة ، إثر اعلان عن نوع

مبتكر جديد من الشموع الشحمية مقالة بمثل هذا العنوان «حول مواهب تشارتكوف الخارقة» «نسارع لأبهاج سكان العاصمة المهذّبين بمكسب فاخر، بكل المعاني والاعتبارات إن الجميع متفقون على ان لدينا الكثير من الملامح الرائعة والوجوه الفائقة الحسن، ولكن لم تكُ حتى هذا الوقت وسيلة ما لأبلاغها الى الخامة السحرية للوحة، لنقل ذلك إلى الأخلاف والآن فان هذا النقص قد عُوّض فقد وُجد رسام يوحّد في نفسه كل ما ينبغي فالآن يمكن للحسناء ان تكون واثقة من انها سوف تُصوّر بكل لطف جمالها خفيفة، رشيقة، جذابة، ساحرة، شبيهة بالفراشات التي تخفق باجنحتها على الزهور الربيعيّة وسيرى الأب الموقر للعائلة نفسه محوطاً بعائلته وسيواصل التاجر، والعسكري، والمواطن، ورجل الدولة، سيواصل كل منهم بسرعة جديدة الجري في مضماره سارعوا، عجّلوا، عرجوا من النزهة، من الزورة المقام بها نحو الصديق، الى ابنة العم، سارعوا الى المخزن الفاخر، عرجوا من حيثما كنتم وتكونون إن ورشة الرسام الماجدة (شارع نيفسكي، رقم كذا وكذا) مليئة كلها بلوحات فرشته، الجديرة بتلامذة

فان ديك وتيتسيان ولن تدري بم ستعجب أبالأمانة للأصل والتماثل معه ، ام بنضارة الفرشة وألقها غير الاعتيادي مرحى لك أيها الرسام لقد تناولت البطاقة السعيدة من اليانصيب المجد لك ، ياأندري بتروفيتش (كان الرسام يحب ، فيما يبدو ، رفع الكلفة) ! مجّدونا ونفسكم ! إننا نحسن تثمينكم إن التوافد العام المتصل ، سوية مع النقود ، ولوان بعضاً من اخواننا الصحفيين يعترض عليها ، ستكون جائزتكم »

قرأ الرسام هذا الأعلان بسرور خفيّ ، وأشرق وجهه لقد تحدثوا عنه باللغة المطبوعة ــ لقد كان هذا نبأ بالنسبة له ؛ ولعدة مرات قرأ هو هذه السطور إن المقارنة مع فان ديك وتيتسيان قد أرضت غروره تماماً اما العبارة « المجد لك ، ياأندري بتروفيتش ! » ــ فقد أعجبته جداً كذلك ، فان مخاطبته عن طريق الصحافة باسمه واسم أبيه ــ إنما هي شرف له لم يعرفه قط من قبل وجعل يسرع في خطوه في الغرفة ، وينكش شعره ، فتارة يجلس على الكراسي الوثيرة ذات المساند ، وتارة اخرى ينهض منها يجلس على الأريكة ، متصوراً كل دقيقة كيف سيستقبل الزوار والزائرات ، وتقدم من الخامة ورسم عليها عصفة جريئة من ريشته ، محاولاً

تمرين يده على الحركات الرشيقة وفي اليوم التالي قرع الجرس عند بابه ، فهب لفتح الباب ، فدلفت سيدة يتقدمها خادم في معطف خاص للخدمة مضرب بالفراء ، ودخلت سوية مع السيدة فتاة في ربيعها الثامن عشر ، وهي ابنتها

— أأنتم مسيو تشارتكوف ؟ — قالت السيدة فانحنى الرسام

— ما اكثر ما يكتبون عنكم ؛ يقولون ، ان لوحاتكم فوق الكمال . — وإذ فاهت بهذا ، اقترب الى عينيها منظار ، وخففّت تجتلي ببصرها الجدران ، التي لم يكن شيء عليها . — لكن أين لوحاتكم ؟

— حملوها — قال الرسام ، مرتبكاً بعض الشيء . — لقد وصلت هذه الشقة تواً ، اما اللوحات فلا تزال في الطريق لم تصل بعد

— هل كنتم في ايطاليا ؟ — قالت السيدة ، مصوّبة المنظار اليه ، اذ لم تجد شيئاً آخر ، كان بمكنتها ان تسلّط المنظار عليه

— كلا ، لم أكن هناك ، ولكني أردت أن أكون وعلى أية حال ، أجلت ذلك لوقت ... ها هنا مقاعد ، لا بد انكم تعبتم

ـ أشكركم ، لقد قعدت طويلاً في العربة وها اني أرى ، أخيراً ، عملكم ! ـ قالت السيدة ، مسرعة الى الجدار المقابل ومسلطة بمنظار على رسومه التحضيرية ، ومخططاته ، ومنظوراته ، ولوحاته المتكئة الى الارض

—C'est charmant, Lise, Lise, venez ici: * إن الغرفة على ذوق تينيير ، أترين ، فوضى ، فوضى ، المنضدة عليها تمثال نصفي ، اليد ، لوحة الالوان ، ها هو التراب ، أترين ، كيف رُسم التراب ! C'est charmant. وها على خامة اخرى امرأة تغسل وجهها ـ Quelle jolie figure!** آه، فلاح ! ليزا ، ليزا ، فلاح في قميص روسي! انظري: فلاح ! إذن فانتم لا تتحدّدون فقط برسم صور الاشخاص ؟

ـ اوه ، ان هذا لهراء هكذا ، عبثت فقط انها رسوم تحضيرية ـ هلا تقولوا رأيكم بخصوص رسامي صور الاشخاص الحاليين ؟ أفليس حقاً انه لا يوجد الآن أمثال تيتسيان ؟ ليست ثمة تلك القوة في

---

* يعني بالفرنسية ان هذا لفاخر، ليزا ليزا تعالي هنا المترجم

** يعني بالفرنسية : اى قوام رائع ! المترجم

التلوين ، ليست هناك اوه كم أنا آسفة ، أني لا أستطيع أن أعبّر لكم بالروسية (كانت السيدة تهوى الرسم وقد جالت بالمنظار كل معارض الصور الفنية في ايطاليا) . وعلى أية حال ، مسيو نول ... آه ، كيف يرسم هو ! أية فرشة خارقة ! اني لأجد ان لديه تعبيراً أقوى في صور الاشخاص ، حتى مما لدى تيتسيان. أفلا تعرفون مسيو نول ؟

— من هوهذا النول ؟ — سأل الرسام

— مسيو نول آه ، أية موهبة ! لقد رسم صورتها ، حين كان كل ما لها ١٢ عاماً يلزم ان تكونوا لدينا من كل بد Lise ، أريه ألبومك لعلكم تعرفون اننا قد جئنا هنا من اجل ان ترسموا صورتها في الحال

— كيف لا ، إني لمستعد في هذه الدقيقة . — وفي لحظة واحدة حرّك هو الركائز بالخامة الجاهزة ، وتناول بيده لوحة الألوان ، وسمّر عينيه في وجه الابنة الشاحب لوكان هو عارفاً بالطبيعة البشرية لقرأ فيه ، اذن ، في دقيقة واحدة بداية الولوع الصبياني بحفلات الرقص ، وبداية السأم والشكوى من طول الوقت المتصرّم حتى الغداء وبعده ، والرغبة في الجري بفستان جديد في النزهات ، والآثار الثقيلة للتعويد غير المتعاطف

والميل نحو الفنون المختلفة ، وهو الذي تلهمه الأم من اجل تصعيد المشاعر وسموّ الروح غير ان الفنان لم ير في هذا الوجه الرقيق الا شفافية الجسم المرهفة البالغة ، المغرية للفرشة ، نظرات خفيفة جذابة ، ورقبة رقيقة بيضاء ورشاقة القدّ الارستقراطية وها هو قد استعدّ سلفاً للاحتفال ، واظهار خفة وألق فرشته ، التي اشتغلت حتى الآن بتصوير الملامح الجاسية للموديلات الخشنة ، والانتيكات الصارمة ، ونسخ لوحات بعض الاساتذة الكلاسيكيّن لقد استحضر في ذهنه كيف سيطلع هذا الوجه الرقيق في الصورة

— أتعلمون ، — قالت السيدة بشيء من التأثر في تعابير الوجه . — كنت أود ان يكون عليها الآن فستان آخر ، إني لأعترف ، اني لم أرد ان تكون في الفستان الذي اعتدنا عليه جداً لوددت ان تكون مرتدية ببساطة ، وان تجلس في ظلال خضراء ، من قبيل بعض الحقول ، وان تكون بعض الماشية في البعيد ، او بعض الغياض ان لا تكون ملحوظة وهي ترتحل، أو تسير إلى حفلة رقص ، أو أمسية عصرية إني لأعترف ان حفلاتنا تقتل الروح جدا ، وتُجهز على بقايا المشاعر أهوى البساطة، البساطة، فليكن المزيد من البساطة . — (هيهات!

لقد كان مكتوباً على وجهي الام والابنة انهما قد شبعتا رقصاً حتى هذا الوقت في حفلات الرقص ، وان كلتيهما كادتا تستحيلان شمعيتين)

أقبل تشارتكوف على العمل ، وأجلس الفتاة ، وتأمّل الأمر شيئاً في ذهنه ، وأمرّ بفرشته في الهواء ، وثبّت النقاط في باله ، وضيّق عينيه شيئاً ، وتراجع الى الوراء ، ونظر من بعيد ، وفي ساعة واحدة ابتدأ الرسم التحضيري وأنهاه وراضيا به ، انهدّ يرسم ، واجتذبه العمل تماماً وها هو قد نسي كل شيء ، نسي حتى وجوده بمحضر سيدتين ارستقراطيتين ، فجعل يعبر عن بعض النزوات الفنية ، متلفظاً جهراً بأصوات شتى ، او مغنياً من وقت لآخر ، الأمر الذي يحصل للرسام الغائص بكل روحه في قضيته ومن دون رسميات ، وبحركة واحدة للفرشة حملها على ان ترفع رأسها ، الذي ابتدأ في النهاية يتململ معبراً عن تعبه التام

ـ كفى ، هذا يكفي في المرة الاولى ، ـ قالت السيدة

ـ قليلا ، ـ قال الرسام الساهي

ـ كلا ، لقد آن الأوان ! Lise ، الساعة الثالثة ! قالت هي ، مخرجة الساعة الصغيرة ، المعلقة في

سلسلة ذهبية في زنّارها ، وهتفت ــ آه ، كم تأخر الوقت !

ــ دقيقة فقط ، ــ قال تشارتكوف بصوت طفل بريء ، متوسّل

غير ان السيدة لم تكن قطعاً ميالة لأن تطمّن مطالبه الفنية هذه المرة ، ووعدت بدلاً عن ذلك بالمكوث مدة اكثر في المرة القادمة

« إن هذا لباعث على الأسى ، على كل حال ، ــ فكرّ تشارتكوف في سره ، ــ إن يدي قد انطلقت على التو » وتذكر ، انه لم يقاطعه أحد ولم يوقفه ، حين كان يعمل في ورشته في جزيرة فاسيليفسكي وكان يقع ان نيكيتا يجلس في مكان واحد دون ان يتحرك او يلتفت ــ ارسمه ، بالقدر الذي يلائمك ، بل انه كان يغفو في الوضع المطلوب منه ان يجلس فيه. ووضع ، غير راضٍ ، فرشته ولوحة ألوانه على الكرسي ، وتوقف معتكراً أمام الخامة كان الاطراء الذي تفوهت به السيدة الحضرية المرفّهة هو الذي أيقظه من تهويمه . وعدا بسرعة الى الباب ليودعهما ، وتسلم منهما في السلم دعوة بالمجيء، والقدوم في الاسبوع القادم للغداء ، وعاد بشكل جذل إلى غرفته كانت السيدة الارستقراطية

قد فتنته جداً فحتى الآن كان ينظر الى مثل هذه المخلوقات نظرته الى شيء صعب المنال مخلوقات ولدت فقط لاجل ان تجري بها العربة الفاخرة ، مع الخدم في ازيائهم الرسمية والحوذي المتغندر ، ولتلقي نظرة لاأبالية على المشاة الجائلين في مماطرهم الرثة البائسة وفجأة يدلف الآن اليه في الغرفة أحد هذه المخلوقات بل هو يرسم صورة هذا المخلوق ، وهو مدعو الى الغداء في بيت ارستقراطي لقد تملكه سرور خارق ، كان ثملاً به تماماً ، فأجاز نفسه عن هذا بغداء مجيد ، وبتمثيلية مسائية ، وارتحل من جديد في المدينة دونما أي حاجة لذلك

لم يجر العمل لديه على ما يرام ، قطعاً ، في كل هذه الايام ففقط كان يتهيأ مستعداً ، وينتظر الدقائق ، حين يقرع الجرس وأخيراً ، جاءت السيدة الارستقراطية سوية مع ابنتها الشاحبة فأقعدهما وحرّك الخامة بمهارة وردود لبقة على العوائد الارستقراطية واشرع يرسم. كان اليوم المشمس والانارة الألقة قد ساعدتاه كثيراً لقد رأى في الوجه الرقيق للفتاة الكثير ، الذي اذا التقط ونقل الى خامة الصورة ، فانه يستطيع ان يمنحها قيمة كبيرة ورأى ان من الممكن صنع

شيء ما خاص ، إذا ما أنجز كل شيء في ذلك الاكتمال النهائي ، الذي يَمْثُل له فيه الموديل الآن بل وابتدأ قلبه يخفق خفقاً خفيفاً ، حين أحسّ انه يعبّر عن ذلك الذي لم يشعر به الآخرون. لقد أشغله العمل كليةً واستغرق في العمل ، ناسياً ، مرة اخرى ، المنشأ الارستقراطي للأصل الذي يرسمه . ورأى بأنفاس محتبسة كيف برزت لديه الملامح الرقيقة وذلك الجسم الشفّاف تقريباً لفتاة في ربيعها السابع عشر لقد اصطاد كل ظل وكل جزيئة والتقط الصفرة الخفيفة ، والزرقة التي بالكاد تُلحظ تحت العينين ، حتى اذا استعدّ لاختطاف البثرة غير الكبيرة التي طفحت على الجبهة سمع فجأة صوت الأم : « آه ، علامَ هذا ؟ انه لا يلزم ، — قالت السيدة ، — إن لديكم كذلك في بعض الاماكن كما لو انه شيء من الصفرة ، وها هنا تماماً ما يشبه البقع القاتمة » وجعل الرسام يوضح ان هذه البقع والصفرة بالذات إنما تنسجم وتزيد في روعة الصورة ، بحيث انها تكون ظلالا ممتعة وخفيفة للوجه ولكنه أجيب بانها لا تشكل قطعاً أيما عمق في الالوان ولا تزيد في روعتها او قوتها بأي شكل من الاشكال ، وان هذا فقط يبدو له . « ولكن اسمحوا لي بأن أمسّ ، في

مكان واحد فقط ، أمسّه بشيء من الصبغ الأصفر » ـ قالها الرسام بطيبة قلب لكن هذا لم يسمحوا له به أيضاً وأوضح ان Lise ، اليوم فقط ، ليست على ما يرام ، اما الصفرة فلا تلمّ بها بتاتاً ، وان وجهها يذهل خصوصاً بنضارة ألوانه وأخذ يمسح بحزن ما أرغمته ريشته على إظهاره في خامة الصورة واختفى الكثير من الملامح غير الملاحظة تقريباً ، ولكن التماثل مع الأصل اختفى معها أحياناً وجعل ينقل ، دونما إحساس ، الى اللوحة ذلك التلوين العام الذي يعطى ميكانيكياً ويحيل حتى الوجوه المأخوذة عن الطبيعة الى وجوه مثالية باردة مما يُرى في البرامج التدريسية . غير ان السيدة كانت مسرورة لأن التلوين غير المسرّ لها قد أُبعد تماماً فقط دُهشت هي لأن العمل يستمر طويلاً ، وأضافت انها سمعت كما لو انه في جلستين يُنهي الصورة تماماً ولم يجد الرسام جواباً هنا ونهضت السيّدتان واستعدّتا للخروج . فوضع الفرشة وودعهما حتى الأبواب ، وظل بعد ذلك مُثاراً أمداً طويلاً في مكان واحد بالذات أمام لوحته لقد نظر الى اللوحة بغباء ، اما في رأسه فقد جرت تلك الملامح النسائية الرشيقة ، وتلك الظلال الدقيقة التلاوين اللطيفة التي لحظها هو ، والتي أجهزت عليها ريشته دون

رحمة ولكونه كان مفعماً كليةً بها ، فانه أبقى اللوحة جانباً ، وعثر بعد بحث ، في مكان ما لديه ، على صورة رأس بسيخيا الذي كان قد رسمه بصورة تخطيطية على الخامة منذ زمن. كان هذا وجهاً مرسوماً بمهارة ، ولكنْ مثالياً جداً وبارداً متألفاً من مجرد الملامح العامة ، التي لم تكتسب شكلاً حيّاً وبسبب الفراغ ليس الا ، أقبل الآن يتمّم الصورة ، مثبتاً فيها كل ما مسحه اليوم من صورة وجه الزائرة الارستقراطية فاستقرّت الملامح ، والظلال الدقيقة والتلاوين التي التقطها ، في شكل منقّى ، وهو الشكل الذي تبدو فيه حين يكون الرسام قد نظر الى الطبيعة وابتعد عنها فيما بعد ليصوّر ما يماثلها ابتدأت بسيخيا تُبعث من جديد وشرعت الفكرة التي لا تكاد تظهر في التجسد تدريجياً في الجسم المرئي كان نموذج وجه الصبيّة الارستقراطية قد نُقل ، عفو الارادة ، الى بسيخيا ، فاكتسبت هذه تعبيراً متفرداً ، يمنح الحق بتسميته بالانتاج الأصيل حقاً . وبدا ، كما لو انه قد استغل جزئياً وسوية مع ذلك كل شيء قدّمه له الأصل وتعلق كليةً بعمله ولمدى عدة ايام كان هو مشغولاً به فقط وما لبث قدوم السيدتين المعروفتين أن أدركه وهو يعمل في هذه الصورة فلم يفلح في نزع

اللوحة من الآلة وأطلقت كلتا السيدتان هتافاً جذلاً من الدهشة وصفقتا بيديهما

— Lise ، Lise ! آه ، ما أشدّ الشبه ! Superbe, superbe!* ما أروع ابتكاركم ، في كونكم البستموها بدلة يونانية آه ، أي مفاجأة !

ولم يعرف الرسام كيف ينتشل السيدتين من الضياع اللذيذ فقال بهدوء

— انها بسيخيا

— بشكل بسيخيا ؟ C'est charmant! ** — قالت الأم ، وقد ابتسمت ، وبالمناسبة ابتسمت الابنة أيضاً — أليس حقاً ، Lise ، إن أكثر ما يلائمك هو ان تُصوري بشكل بسيخيا ؟ Quelle idée délicieuse! *** لكن أي عمل فاخر ! إن هذا هو كوريجو أعترف انني قرأت وسمعت عنكم ، ولكني لم أعرف ان لديكم مثل هذه الموهبة ان عليكم بالتأكيد ان ترسموا صورتي أيضاً . — لقد أرادت السيدة أيضاً ، كما يبدو ، ان تُصور بشكل بسيخيا ما

---

* يعني بالفرنسية : فاخر ! فاخر ! — المترجم

** يعني بالفرنسية : انه لرائع ! — المترجم

*** يعني بالفرنسية : اية فكرة رائعة ! — المترجم

« ما الذي يتعيّن عليّ عمله معهما ؟ » ـ فكّر الرسام ـ « ما دامتا هما نفسهما تريدان ذلك ، اذن دع بسيخيا تنزل على ارادتهما » ، ـ ونطق بصوت عال

ـ جشموا نفسكم بعض العناء في الجلوس قليلا ، فاني سأمسّ شيئا ما هنا ، قليلاً

ـ آه ، إني لأخشى انكم بشكل من الاشكال ... فالصورة الآن في غاية الشبه

بيد ان الرسام فهم ان المخاوف تتعلّق بالصفرة ، فهدأهما قائلاً ، انه فقط سيعطي المزيد من الألق والتعبير للعينين ولكن إنصافاً له والحق يقال ، كان الأمر مخجلاً جداً له وقد أراد ان يمنح الصورة ولو بعض الشبه للأصل ، كيلا يلومه شخص ما بالوقاحة المفرطة وبالضبط ، فان ملامح الفتاة الشاحبة صارت تظهر ، أخيراً ، بشكل أوضح من وجه بسيخيا

كفى ! ـ قالت الأم ، وقد بدأت تخشى كيلا يكون الشبه قد أوغل ، أخيراً ، في الاقتراب البالغ من الأصل وكوفئ الرسام بكل شيء بالابتسامة ، وبالنقود ، وبالاطراء ، وبالشدّ المخلص على يده ، وبالدعوة الى الغداء ، وبكلمة ، تلقّى ألف جائزة تطيب لقلبه وصنعت الصورة ضجّة في المدينة .

وجعلت السيدة تُريها إلى صديقاتها ، وأُعجب الجميع بالفن ، الذي استطاع الفنّان به ان يحتفظ بالتماثل ، وان يمنح الأصل جمالاً وبالطبع فان الشيء الاخير قد لوحظ ليس من دونما أثر لحسد خفيف في الوجوه وأُثقل الرسام فجأة بالاعمال لقد بدا كما لو ان المدينة كلها أرادت ان تُصوَّر لديه كان جرس الباب يقرع كل دقيقة وقد كان يمكن ان يكون هذا الأمر طيباً ، وذلك باتاحته له مراساً لا حدّ له في تصوير وفرة من الاشخاص المتنوعين ، المختلفين ولكن لمصيبته ، كان هؤلاء قوماً ، كان من الصعب عليه إرضاؤهم ، فقد كانوا مستعجلين أبَدَهم ، مشغولين دومهم ، او انهم كانوا من علية القوم ، فهم اذن اكثر انشغالا من أي صنف آخر من الناس ، ولذلك فهم غير صبورين الى حد خارق كانوا يطالبون جميعاً ، من كل جهة ، بان تكون الصورة جيدة وسريعة الأعداد وقد رأى الرسام ان الانهاء كان مستحيلاً بصفة قطعية ، وان كل شيء كان ينبغي تعويضه بالمهارة ، وبالنشاط الجرىء السريع للفرشة إن التقاط التعبير الكلي ، العمومي لوحده ، وعدم التعمّق بالفرشة في التفاصيل الدقيقة ، وبكلمة واحدة ، عدم احتذاء الطبيعة في اكتمالها

ونهائيتها ــ ان هذا كان أمراً غير ممكن بصفة قطعية والى ذلك ينبغي الاضافة ، انه كان لدى جميع المرسومين الكثير من الدعاوى الاخرى في أمور شتى كانت السيدات تطالب بأن تصوّر ، في الجوهر ، الروح والطابع فقط في صور الاشخاص ، وبان لا يُتمسك قطعاً بالباقي في أحيان أخرى ، وبتدوير كافة الزوايا وبتلطيف العيوب والشوهات ، بل وحتى اذا أمكن تجنبها نهائياً وبكلمة ، كي يمكن التطلع باعجاب الى الوجه ، ان لم يمكن الهيام تماماً به وبنتيجة ذلك ، فانهم كانوا إذ يجلسون ليُرسموا يتخذون أحياناً تلك التعابير ، التي كانت تقود الرسام الى الدهشة والعجب فهذه كانت تحاول أن تصوّر في وجهها الميلانخوليا ، وتلك كانت تحاول ان تجسّد الحلم في وجهها ، وثالثة كانت تجهد بكل قواها تصغير فمها ، فكانت تضغط به وتلمّه الى تلك الدرجة ، بحيث انه يستحيل في النهاية الى نقطة ، لا اكبر من رأس دبوس وبصرف النظر عن كل ذلك ، فانهن كنّ يطالبنه بالشبه ، وبالطبيعية غير المتكلّفة ولم يكن الرجال بأحسن حالاً قطّ من السيدات كان أحدهم يطلب ان يصوّر في التفاتة قوية حادة للرأس ، فيما طلب آخر تصويره

بعينين ملهمتين مرفوعتين الى الأعلى ، وطلب ملازم من الحرس بتصويره بشكل يُرى فيه مارس * بالتأكيد في عينيه ، وسعى وجيه مدني جهده لأن يظهر لديه قدر اكبر من الاستقامة والشهامة في وجهه ، وبان تصوّر يده مستندة الى كتاب خُطّت عليه بوضوح كلمات « لقد وقف دائماً من أجل الحقيقة » وفي البداية كانت مثل هذه المطاليب تدفع بالرسام الى الحيرة التامة والتصبّب عرقاً وكل هذا كان ينبغي هضمه وتفهّمه ، والى ذلك فالميعاد الذي كانوا يحددونه بالغ القصر وأخيراً بلغ هو بيت القصيد ، فلم يعد يجشّم نفسه أيما عناء وحتى من كلمتين او ثلاث كان يفهم مقدماً في شخص من وبهيئة من كان الزبون يريد تصوير نفسه فمن أراد أن يكون بهيئة مارس ، دسّ مارس في وجهه ؛ ومَن حلم ببايرون منحه وضعاً والتفاتة بايرونية ومهما كانت السيدات يردن ان يكنّ كورينا ، أو أوندينا ، او آسبازيا ، فانه كان يوافق بطواعية كبيرة على كل شيء ، وكان يضيف من عنديّاته لكلٍ فيضاً من لطف الشكل والمظهر ، الذي ، كما

---

* مارس – إله الحرب في الميثولوجيا الرومانية . – المترجم

هو معلوم ، لا يسبب أذى ، والذي من أجله يغفرون للرسام غاية المفارقة مع الأصل وسرعان ما ابتدأ هو نفسه يعجب من حيوية فرشته وسرعتها العجيبة اما الذين رسمهم ، فهم بالطبع كانوا معجبين به مبتهجين ، وأعلنوه عبقرياً

لقد أصبح تشارتكوف رساماً على المودة ، بكافة المعاني والاعتبارات فقد جعل يرتحل الى المآدب ، ويرافق السيدات الى الأروقة بل وحتى الى النزهات ، ويلبس متغندرا ، ويؤكد على نحو جهوري ، ان على الفنان ان ينضوي تحت المجتمع ، وان عليه ان يحافظ على لقبه ، وان الفنانين يلبسون مثل الحذّائين ، ولا يحسنون المسلك الحسن ، ولا يتبعون الأدب الرفيع ، وهم مجردون من كل تهذيب وفي بيته ، في ورشته كان يحافظ على الأناقة والنظافة بأرفع مستوى ، وعيّن خادمين ممتازين ، وأحاط نفسه بتلامذة متغندرين ، وكان يبدّل عدة مرات في اليوم بدلاته الصباحية المختلفة ، ويجعّد شعره ، ويهتّم بتطوير الطرائق والاساليب المختلفة التي يستقبل بها الزّوار ، وانشغل بتحسين مظهره بكافة الوسائل الممكنة ، وبكلمة ، سرعان ما صار مستحيلاً ان يعرف فيه ذلك الرسام

المتواضع ، الذي عمل وقتاً من الأوقات ، مغموراً ، في عشته ، في جزيرة فاسيلفسكي وصار يصرّح الآن بحدّة عن الفن والرسامين فكان يؤكد ان قد نُسب الى الرسامين القدماء الكثير من الكرامات ، وبأنهم كلهم جميعاً حتى عهد روفائيل لم يرسموا الا قامات نحيفة جافة ، وانه توجد فقط في خيال الباحثين والنقّاد فكرة تزعم وجود قدسية ما لديهم ؛ وان روفائيل نفسه لم يكن كل ما رسمه ممتازاً وان كثيراً من أعماله قد ثبت وعاش بفضل أساطير المجد والشهرة ليس الا ، وان ميكل آنجلو متبجّح ، وذلك لأنه أراد فقط ان يتفاخر بمعرفة علم التشريح ، وانه لا توجد أيما ظرافة ولطف فيه ، وان الألق الحقيقي وقوة الفرشة والتلوين انما ينبغي البحث عنها الآن فقط ، في العصر الحاضر وهنا ، فمن الطبيعي ، وعلى نحو لا إرادي كان الأمر يبلغه هو « كلا إني لا أفهم » ، ــ كان يقول ، ــ « توتر الآخرين ومواظبتهم المثابرة في العمل إن هذا الانسان الذي يعمل لعدة أشهر في اللوحة ، انما هو كادح في رأيي ، وليس رساما انا لا أعتقد انه توجد لديه موهبة إنما العبقري يبدع بجرأة ، بسرعة » « ها لديّ » ، ــ كان يقول هو ، مخاطبا الزوار عادة ، ــ إن هذه

اللوحة قد رسمتها في يومين ، وهذا الرأس في يوم واحد ، وهذا في بضع ساعات ، وهذا في ساعة ونيف كلا ، اني... إني أقولها بصراحة ، أنا لاأسمي فنّاً ذلك الذي أنتج بعمل بطيء مدقق مثابر ، إنما هو قد أضحى حرفة ، ولكن ليس فناً » هكذا كان يحدّث هو زواره ، فكان الزوار يُدهشون لقوة وحيوية فرشته ، وكانوا يطلقون هتافات التعجب إذ يعرفون السرعة التي انتجت بها اللوحات ، وبعدئذ كان أحدهم يحدّث الآخر « إنها لموهبة ، موهبة حقيقية ! انظروا ، كيف يتكلم هو ، كيف تتألق عيناه !

Il y a quelque chose d'extraordinaire dans toute sa figure!»*

وكان مما يمالق الرسام ويداعب غروره سماعه مثل هذه الاشاعات عن نفسه وحين كانت تظهر في المجلات كلمات مدح بحقه ، كان يسرّ مثل طفل ، رغم ان هذا المدح كان مشترىً بنقوده هو كان يحمل مثل هذه المجلة في كل مكان ، ويظل يُريها ، كما لو ان الأمر دون قصد ، للمعارف والأصدقاء ، وكان هذا

*يعني بالفرنسية انه يوجد شيء ما غير اعتيادي في كل مظهره الخارجي ! — المترجم

يسليه إلى حدّ بالغ في السذاجة وبساطة القلب لقد تعظم مجده ، وتضخّمت اعماله وتوصيات الناس لديه على الصور واللوحات وصارت تضجره صور الاشخاص والوجوه المتكررة ، التي صارت اوضاعها وتعابيرها بالنسبة اليه محفوظة عن ظهر قلب وقد شرع يرسمها دونما كبير رغبة ، محاولاً ان يرسم مخططاً بشكل ما ، للرأس وحده ، اما الباقي فكان يعهد به الى التلامذة لاتمامه سابقاً كان يوالي البحث على كل حال ، ليقدم وضعاً جديدا ، وليذهل بالقوة ، والتأثير اما الآن فهذا أيضاً أصبح مُسئماً له لقد كلّ ذهنه من الابتكار والتبصّر لقد بات هذا فوق طاقته ، ثم لا يوجد الوقت لذلك فان الانغماس في الملذّات ، والمجتمع الذي حاول ان يلعب فيه دور انسان من علية القوم ، — ان كل هذا قد نقله بعيداً عن العمل والافكار كانت فرشته قد بردت نارها ، وتغابت ، وانحبس هو ، دون ان يشعر ، في اشكال ذات نمط واحد ، محدّدة ، طال ابتذالها إن الوجوه الرتيبة الباردة ، والصقيلة النظيفة أبداً ، والمتوترة المتجهمة للمسؤولين ، العسكريين والمدنيين لم تتح منطلقاً رحباً للفرشة فقد نست هذه الفرشة التنجيدات والتزيينات الكبيرة والحركات والأهواء

القوية اما عن الصور الجماعية ، وعن الدراما الفنية وعقدتها الرفيعة فلم يكن ثمة شيء يُقال كانت امامه السترة الرسمية فقط ، أجل والكورسيه ، والفراك التي يشعر الرسام أمامها بالبرد والفتور ويتهاوى كل خيال وتصوّر وحتى القيم الفنية الأولية جدا لم تعد ظاهرة في أعماله ، فيما كانت هذه الاعمال لا تزال تتمتع بالمجد والشهرة ، ولو ان العارفين والرسامين الحقيقيين كانوا يقابلون اعماله الأخيرة بهزة كتف ليس الا اما بعضهم ، اولئك الذين عرفوا تشارتكوف قبلا ، فلم يستطيعوا ان يفهموا كيف امكن للموهبة ان تنطمس فيه ، وهي التي تكشفت ملامحها بألق منذ محض البداية ، وعبثا حاولوا ان يفهموا كيف يمكن للموهبة ان تنطفئ في الانسان ، الذي كان قد بلغ تواً التطور التام لكافة قواه .

غير ان الرسام الثمل بمجده لم يكن ليصيخ سمعاً الى مثل هذه المحاججات والنقاشات وقد ابتدأ يدرك عهد الوقار فجعل يسمن ويترهل ويتسع عرضا وكان يقرأ في الجرائد والمجلات نعوتاً مثل هذه « محترمنا اندري بتروفيتش ، وممتازنا اندري بتروفيتش » وجعلوا يقدمون له المناصب المحترمة ، ويدعونه لحضور الامتحانات ، ولعضوية اللجان وقد

ابتدأ ، كما يحدث هذا أبداً في سني الوقار والاكتهال ، يتحزّب بقوة لرفائيل والرسامين القدماء ، ليس لأنه اقتنع تماماً بقيمتهم الرفيعة ، وإنما ليشلك بهم عيون الرسامين الشباب وقد صار ديدنه في ذلك ديدن كل من دلف إلى هذه الأعوام يسلق بألسنة حداد الشبيبة لتجرّدها من المـُثل ، وللاتجاه السيىء لروحها وقد جعل يثق بان كل شيء في الكون يتم ببساطة ، وانه لا شيء قط من الالهام وان من الضروري ان يخضع كل شيء لنظام صارم من التنظيم والرتابة وبكلمة ، لقد امتدّ عمره الى تلك الأعوام ، التي يبدأ فيها كل شيء ، مما يعيش بالانفعال يجفّ ويتقلّص في الانسان ، حين لا يبلغ القوس القوي شغاف القلب الا ببطء ، ولا يلتفّ بأصوات ثاقبة حول القلب ، وحين لا يعود مسّ الجمال بقادر على تحويل القوى الفطرية الى نار ولهب ، وانما تكون كافة المشاعر التي اندثرت نارها وهمدت أقرب تناولاً الى الذهب ، وتشرع في الاستماع على نحو أشدّ انتباهاً إلى موسيقاه المغرية وتسمح لها تدريجيا ، ودون ان تحسّ ، بان تخدّرها تماما إن المجد لا يستطيع ان يمنح المتعة لمن سرقه ، ولم يستحقّه استحقاقا ، إنه يـُنتج الاختلاج الدائم في من

يستحقه فقط ولذلك فان كافة المشاعر والانفعالات لديه قد اتجهت نحو الذهب لقد أصبح الذهب هواه المبرّح، ومثاله الذي يرنو إليه ، ورعبه ، ومتعته ، وهدفه وقد تضخّمت اكداس النقود في الصناديق ، وكمثل كل مَن يكون من نصيبه مثل هذه السجية الرهيبة ، ابتدأ هو يستحيل مضجرا ، غير صالح لأيما شيء ما خلا الذهب ، والى بخيل مقتر ، وجمّاع خليع ، وقد كان مستعداً لأن يتحوّل الى إحدى تلك الكائنات الغريبة ، التي ما اكثر ما تصادف في كوننا العديم الاحساس ، والتي اليها برعب ينظر الانسان المفعم حيوية وإخلاصاً ، والتي تبدو بالنسبة له توابيت حجرية متحركة بقلب ميت داخلها ولكن حادثاً واحداً قد هزّه بقوة وأيقظ كامل كيانه الحيوي

ففي أحد الأيام رأى هو على منضدته مذكرة ، كانت قد التمسته فيها أكاديمية الفنون ، باعتباره عضوها الموقّر المجيء ليدلي برأيه حول نتاج مرسل من ايطاليا كان قد أتمّه فنان روسي هناك وكان هذا الفنان واحداً من رفاقه القدماء ، كان يحمل في نفسه ، منذ باكر الاعوام الولوع بالفن ، وكان قد انغمس فيه بكل روحه ، روح الكادح الملتهبة ، وانفصل عن الاصدقاء ، عن

الأقارب ، عن العادات الأثيرة لديه ، وطار إلى هناك ، حيث تنبع حديقة الفنون الكبيرة تحت سماوات رائعة ، الى روما الساحرة تلك التي عند ذكر اسمها يخفق قلب الرسام بأشد ما تكون القوة والفعالية وهناك انغمس هو ، مثل ناسك ، في العمل ، وفي الشغل الذي لم يصرفه عنه أيما شيء لم يكن يحفل بأمر هل تحدثوا عن خلقه وطبيعته ، ام عن عدم قدرته على حسن التصرّف مع الناس ، او مراعاة عوائد المجتمع الراقي ، او الامتهان الذي سببّه للقب الفنان بهندامه الرثّ ، غير الأنيق لم يكن يهمّه أغضب أم لم يغضب منه اخوته وزملاؤه لقد أهمل الجميع ، ووهَب كل شيء للفنّ كان يزور الأروقة الفنية دون كلل ، وكان يقف لمدى ساعات كاملة امام نتاجات الاساتذة الكبار ، مقتنصاً ومتتبعاً حركات الفرشة الساحرة لم يكن يُنهي شيئا دون ان يتفحّصه عدة مرات في ضوء تعاليم المعلمين الكبار ، ودون ان يستقرأ في ابداعاتهم نصيحة هادئة بليغة لنفسه لم يكن يشارك في النقاشات والمناقشات الضاجّة ولم يقف لا مع ولا ضد أنصار الحفاظ على التقاليد والشكل في الفن لقد أعطى لكل ما يستحق ، مستخلصاً من كل شيء الرائع فيه فقط ،ولم

يحتفظ ، أخيراً ، الا برفائيل ذي الفن الالهي لمعلم وإمام يأتمّ به ومثلما يفعل الشاعر ـ الفنان الكبير ، الذي يكون قد قرأ الكثير من مختلف الابداعات ، المليئة بالكثير من الروائع والمحاسن الفخمة ، أبقى هو لنفسه ، في النهاية ، ككتاب مائدة يلازمه أبداً الياذة هوميروس وحدها فقط ، مكتشفاً ان فيها كل شيء مما تريد ، وانه لا يوجد فيها ذلك الذي لم ينعكس هنا في اكتماله العميق التام وفي المقابل حمل هو من مدرسته الفكرة الجليلة للابداع ، والجمال الكبير للفكرة ، والامتياز الرفيع للفرشة السماوية

وجد تشارتكوف ، وقد دلف الى القاعة ، حشداً ضخماً كاملاً من الزوار ، متجمعاً أمام اللوحة كان الصمت التام ، مما يحدث نادراً بين المقيمين والذواقات الكثيرين ، هو السائد ، هذه المرة ، في كل مكان هنا . فسارع هو لارتداء مسوح الجد والرصانة للعارف الذوّاقة وتقدم من اللوحة ، ولكن ، يا إلهي ، ماذا رأى !

كان الابداع الرائع الأصيل ، البرئ للرسام شاخصاً امامه ، مثل خطيبة وقد شمخ هذا الاثر فوق الجميع ببساطة وبتسامٍ ، وبراءة وتواضع وبدا ، كما لو ان

كائنات علوية سماوية قد أسبلت بخجل أهدابا رائعة ، وقد دهشت بذلك القدر الكبير من النظرات المسمّرة عليها لقد تأمّل العارفون الفرشة الجديدة اللاضريب لها من قبل باحساس من الاندهاش اللاارادي وتراءى هنا كما لو ان كل شيء قد التحم سويةً معا دراسة رفائيل المنعكسة في النبل الخارق للأوضاع ، ودراسة كوريجو ، التي كانت تجد متنفّسها في الكمال التام للفرشة ولكن اكثر الأشياء تحكماً وظهوراً كانت قوة الابداع الكامنة في روح الفنان ذاته لقد تغلغل الموضوع حنايا اللوحة ، وقد ظُفر بالقانون والوحدة الداخلية وفي كل مكان كان قد اصطيد التدوير الانسيابي للخطوط ، الكامن في الطبيعة ، الذي تراه فقط عين الرسام المبدع ، والذي ينتأ بزواياه المنفّرة لدى الناسخ الأعمى وقد كان واضحاً ، كما هو الامر في كل شيء مستحصل من العالم الخارجي ، ان الفنان قد اختزن ، في البداية ، كل شيء في روحه ، ومن هناك ، من ينبوع الروح أطلقه أغنيةً احتفالية ، منسقة واحدة وقد بات مفهوماً حتى لغير المتخصّصين أية هوة فاغرة فاها توجد بين الابداع الفني والاستنساخ المحض للطبيعة . وكان من المستحيل تقريباً التعبير

عن ذلك الصمت الخارق الذي لف ، عفو الارادة ، الجميع ، ممن سمّروا عيونهم على اللوحة ـ فلا حفيف ، ولا نأمة اما اللوحة فكانت تزداد ، في هذه الاثناء ، في كل دقيقة شموخاً ورفعة ، وتتميّز عن كل شيء بمزيد من الاشراق ومزيد من السحر ، وقد تحولت في النهاية إلى هنيهة واحدة متحدة ، الى ثمرة الفكرة الهابطة على الرسام من عليين ، الى هنيهة تكون كامل الحياة الانسانية بمثابة تحضير لها وكانت الدموع اللاارادية مستعدة لان تتدحرج على وجوه الزوّار ، الذين كانوا يحيطون باللوحة وبدا كما لو ان كافة الأذواق ، وكافة الانعطافات الجريئة الخاطئة للذوق قد التحمت في نشيد صامت ما يُنشد للنتاج البالغ الروعة . ودون حراك ، وقف تشارتكوف فاغراً فاه ، وأخيراً ، حين ابتدأ الزوار والعارفون يضجّون تدريجياً ، فصاروا يتناقشون في قيمة النتاج ، وحين توجهوا اليه ، في النهاية ، برجاء الأدلاء برأيه، فانه اذ ذاك فقط صحا على نفسه ، وحاول ان يتخذ مظهراً لا اباليا ، مظهراً عاديا ، فأراد النطق بتصريح عادي مبتذل مما يتفوّه به الفنانون القساة ، بشيء من هذا القبيل «أجل ، طبعا ، والحق يقال لا يصحّ أن نجرّد الرسام من

الموهبة ، يوجد شيء ما ، واضح ، انه أراد أن يعبّر عن شيء ما ، ولكن ، على أية حال فيما يخصّ الأمر الأساسي ... » وفي اثر ذلك أضاف ، طبعا ، تلك المدائح التي تنتهي بوخيم العاقبة على أيّما رسام أراد أن يقوم بذلك ، ولكن الكلام مات على شفتيه ، وانقذفت الدموع النحيب ، بلا انتظام ، جوابا ، وغادر القاعة مثل مجنون

وقف لدقيقة دونما حراك وبلا إحساس وسط ورشته الفاخرة كان كل كيانه ، وكل حياته قد أوقظت ، في لحظة واحدة ، كما لو ان الشباب عاد اليه ، وكما لو ان الشرارات المنطفئة للموهبة قد اضطرمت من جديد . ومن عينيه طارت فجأة الغشاوة يا إلهي ! الأجهاز بمنتهى القسوة على أفضل سنوات الشباب ؛ تدمير وإطفاء شرارة النار ، المضطرمة ، لعلها ، في القلب ، والتي كان يمكن ان تتطور الآن في عظمة وروعة ، والتي لعلها قد أدفقت دموع الدهشة والشكران ! والقضاء على كل هذا ، القضاء دونما شفقة ! وتراءى ، كما لو انه في هذه الدقيقة قد بعثت فجأة وفي الحال تلك التوترات والانفعالات ، التي كان يعهدها في نفسه وقتاً من الأوقات . واختطف الفرشة واقترب من الخامة .

وتصبّب عرق الجهد على وجهه ، واستحال هو كله الى مجرد رغبة واشتعل اشتعالا بفكرة واحدة لقد أراد أن يصوّر الملاك الهاوي كانت هذه الفكرة أشد ما ينسجم الآن مع ما يعتلج في روحه ولكن هيهات ! كانت اشخاصه ، وجلساته المتكلفة المرسومة وصوره الجماعية ، وأفكاره قد استقرّت بتكلف ودونما ترابط كانت فرشته وخياله قد انحبستا تمام الانحباس في قياس واحد ، وكان الانفعال العاجز في تجاوز الحدود والقيود التي وضعها هو على نفسه ، كان يستجيب على نحو خاطئ ، غير صحيح لقد تجاهل السلّم الطويل المضني للمعارف التدريجية المتطورة والقوانين الأساسية الأولى للمستقبل العظيم وتملّكه الأسى فأمر بان تبعد عن ورشته كل النتاجات الأخيرة ، وكل اللوحات المرسومة وفقاً للموضة واللاحياة فيها ، وكافة لوحات العسكريّين ، والسيدات ، والمشاورين وانحبس لوحده في غرفته ، ولم يسمح لأحد بالدخول إليه ، وانغمس بكليّته في العمل ومثل شاب صبور ، مثل تلميذ جلس هو إزاء عمله ولكن ما أتفه كل ما طلع من تحت فرشته ! لقد كان يصدّه ، عند كل خطوة عدم معرفة أبسط القواعد الأولية وكانت ميكانيكية العمل

البسيطة والقليلة الأهمية تبرّد الانفعال وتشخص مثل عقبة كأداء أمام الخيال كانت الفرشة تتوجه ، دون إرادتها ، إلى الاشكال المتصلّبة المتقولبة ، وكانت اليدان تستقران على الأساليب المحفوظة غيبا ، اما رأسه فلم يجروء على القيام بالتفاتة غير طبيعية ، وحتى ذات طيّات الفستان كانت تتأتّى متكلفة ، غير طبيعية ، ولم تنشأ الالتفاف والالتحام بانسجام على وضع غريب للجسم ولقد أحسّ هو ، هو نفسه بذلك ورآه رأي العين !

« لكن أحقاً كانت لدي موهبة ؟ — قال هو أخيراً ، — أفلم أخدع أنا ؟ » وإذ نطق بهذه الكلمات ، تقدم من نتاجاته الأولى ، التي رسمها هو ، وقتاً من الأوقات ، بمنتهى الاتقان ، وغاية التجرّد ، هناك في عشته البائسة في جزيرة فاسيلفسكي النائية المنعزلة بعيداً عن الناس ، وعن البذخ ، وكافة النزوات جاء هو الآن اليها وجعل ينظر بانتباه إلى كل شيء ، وسوية مع ذلك جعلت تخطر في ذاكرته كل حياته البائسة السابقة « أجل ، — قال هو بيأس ، — لقد كانت لدي موهبة في كل مكان ، وفي كل شيء تُرى واضحة علائمها وآثارها ... »

توقّف هو ، وفجأة انتفض بكل جسمه فقد التقت عيناه بعينين تحملقان فيه بثبات ودونما حراك كانت هذه هي تلك اللوحة غير الاعتيادية ، التي اشتراها هو في مخازن شوكين لقد كانت محجوبة طوال الوقت ، فقد تكدّست عليها اللوحات الاخرى ، وقد غابت عن ذهنه تماما والآن ، وكأن الأمر عمد ، فحين أخرجت كافة اللوحات والصور المرسومة وفقا للموضة ، والتي ملأت الورشة ، فان تلك الصورة برزت في الأعلى سوية مع نتاجات شبابه السابقة وما إنْ تذكر هو كل حكايته الغريبة مع هذه الصورة ، ما إن تذكّر كيف كانت هذه الصورة السبب لتحوّله ، وكيف كانت النقود المختزنة التي تسلّمها هو بهذا الشكل العجيب قد أولدت لديه كل هذه الدوافع التافهة التي أجهزت على موهبته ــ ما إنْ تذكر هو هذا حتى كان ما يشبه السعار الكلبي مستعداً لأن ينقضّ على روحه وفي الحال أمر بان تخرج هذه الصورة المقيتة غير ان القلق الروحي والاضطراب لم يهدأ بهذا وحده ، فقد كانت كل مشاعره وكل كيانه مهزوزة حتى الاعماق ، وقد عانى ذلك العذاب الرهيب ، الذي يظهر أحياناً في الطبيعة ، مثل استثناء بليغ وذلك حين تجهد الموهبة

الضعيفة لان تجد لنفسها تجسيدا في حدود تفوق مالها، ولا تستطيع ، ذلك العذاب الذي يولد المأثر لدى الفتى، ولكنه في الحلم المتجاوز حدوده يتحول إلى عطش غير مجد ، ذلك العذاب الرهيب الذي يجعل الانسان قادراً على ارتكاب الفظائع   لقد تملّكه حسد فظيع ، حسد بلغ حد السعار. لقد طفح الضجر المرير على وجهه، حين رأى النتاج الذي يحمل أثر الموهبة   وقد كزّ بأسنانه من الغيظ والتهمه بنظرة فاسيلسك *   وولدت في روحه أشنع نيّة جهنميّة ، مما يمكن ان تكون لدى الانسان في وقت من الأوقات ، وبسعار كلبي انهدّ يترجم هذه النية إلى فعل   فابتدأ يبتاع كل رائع من منتجات الفن وما يمت إليه بصلة   وكان إذ يشتري اللوحة بثمن غال ، يحملها بحذر إلى غرفته ، وبشراسة النمر المسعور ينقضّ عليها ، يشقّها ، ويمزقها ، ويقطعها قطعا يدوسها بقدميه ، شافعاً ذلك بضحكة استمتاع هستيرية   وكانت الثروة اللاحصر لها التي اقتناها قد هيّأت له الوسائل لتطمين هذه الرغبة الجهنميّة   وفتح كافة اكياسه الذهب وصناديقه   ولم تدمّر ولا همجية

* هو حيوان أسطوري بشكل أفعى تقتل بنظرة واحدة . المترجم .

واحدة من همجيات الجهل قط مثل هذا القدر من النتاجات الرائعة ، الذي أجهز عليه هذا المنتقم الوحشي الرهيب ففي كافة المزادات ، حيثما ظهر هو ، كان كلٌ يقنط يائساً من اقتناء ذلك الأثر الفنّي وبدا ، كما لو ان السماء الساخطة هي التي أرسلت عمداً هذا العقاب الفظيع ، رغبةً منها في ان تحرم العالم تناسقه وانسجامه وقد ألقت هذه الشهوة الرهيبة ظلاً ما رهيباً عليه فكان السعار الأبدى طافحا على وجهه وكانت اللعنة على العالم ورفضه قد تصورت تلقائياً في ملامحه . وتراءى أن فيه قد تجسّد ديمون الرهيب ذاك ، الذي صوره بوشكين أفضل التصوير وفيما عدا الكلمة المسمومة واللوم الغاضب الأبدي لم تكن شفتاه لتلفظان بشيء كان مثل غاربيا * ، فما إن يهبط الشارع ، ويراه الناس ولو من بعيد بمن فيهم معارفه حتى كانوا يحاولون الانعطاف ، وتجنّب مثل هذا اللقاء قائلين انه ليكفي لتسميم كل اليوم فيما بعد

ولحسن حظّ العالم والفنون ، فان مثل هذه الحياة البالغة التوتر والافتراسية لم تستطع الاستمرار طويلا فان

---

* غاربيا – هو آلهة العواصف في اساطير اليونان القديمة. المترجم.

حجم الشغف كان خارقاً ولا يتناسب قطعاً مع قواه الضعيفة وابتدأت نوبات السعار والجنون تظهر غالباً ، واستحال كل هذا ، في النهاية ، إلى أبشع مرض فان حمّى ضارية ، متحدة بدرن غاية في السرعة قد اجتاحتاه بذلك القدر من الوحشية ، بحيث انه في ثلاثة أيام لم يبق منه سوى ظلّه وحده وبذلك توحّدت كافة أعراض الجنون الميؤوس منه وأحيانا كان عدة أشخاص لا يستطيعون إمساكه وابتدأت تطوف به العينان الحيّتان المنسيتان منذ زمن ، لتلك الصورة غير الاعتيادية ، فكان سعاره إذ ذاك بالغ الفظاعة كان كافة الناس ، الذين يحيطون بفراشه ، يلوحون له لوحات فظيعة وتضاعفت الصورة امام عينيه وتكاثرت وبدت له كل الجدران مليئة بالصور ، التى تسمّر فيه عيوناً حية ، ثابتة لا حراك فيها كانت اللوحات الرهيبة تنظر إليه من السقف ، من الأرض ، وكانت الغرفة تتسع وتستمر في الاتساع دون انتهاء ، كي تتسع للمزيد من هذه العيون الثابتة . وكان الطبيب الذي اضطلع بمهمة معالجته ، والذي سمع شيئاً عن حكايته الرهيبة ، حاول بكل قواه العثور على العلاقة الخفيّة بين الطيوف التي كانت تطوف به وحوادث حياته ، ولكنه لم يستطع ان يفلح

في شيء فان المريض لم يفهم شيئا ، ولم يحس بشيء ما خلا آلامه وعذاباته ، وكان يطلق عويلاً وزعيقا ، وكلمات غير مفهومة وفي النهاية انصرم حبل حياته في نزع العذاب الأخير الصامت كانت جثته رهيبة ولم يستطيعوا العثور على شيء من ثرواته الضخمة ، ولكن إذ رأوا القطع الممزقة لنتاجات الفن الرفيعة تلك ، التي كانت أثمانها تتجاوز الملايين ، إذ رأوا ذلك فهموا الطريقة الفظيعة لانفاقها

القسم الثاني

كثرة من العربات الفاخرة ، والمركبات ، وصنوف العربات كانت تقف أمام مدخل البيت ، الذي جرى فيه البيع بالمزاد العلني لأثاث وحاجيات أحد اولئك الأثرياء المحبّين للفنون ، الذين عاشوا حياتهم كلها حلماً لذيذا ، منغمسين في لذائذ العيش ومفاتن الحياة من بذخ وحب ، والذين اشتهروا عن حق بكونهم من حماة الفن والعلم ، وانفقوا على هذا الغرض الملايين التي كدّسها الآباء الاغنياء ، بل وغالبا بفضل أعمالهم الخاصة السابقة . إن أمثال هؤلاء حماة الفن والعلم لم

يعودوا ، كما هو معلوم ، موجودين الآن ، وكان قرننا التاسع عشر قد ارتدى ، منذ زمن ، السيماء المضجرة للبانكير ، المتمتع بملايينه فقط بصورة أرقام مثبتة على الورق وكانت القاعة الطويلة مليئة بحشد ضخم مختلف للزوار ، المنقضين مثل جوارح الطير على جسم تفترسه وهنا كان جيش كامل من التجار الروس من سوق التجارة وحتى من سوق العاديات والسلع القديمة في سترات ألمانية زرقاء كان مظهرهم وتعبير وجوههم أقوى واكثر حرية هنا ، لم يمتاز بالاستعداد البالغ السخاء للخدمة ، الذي يُرى بمنتهى الجلاء في التاجر الروسي ، حين يكون هو في حانوته امام المشتري . انهم هنا قطعا لم يتخاجلوا أو يحتشموا رغم انه قد وُجدت في هذه القاعة بالذات كثرة من اولئك الارستقراطيين ، الذين كانوا هم مستعدين أمامهم ، في مكان آخر ، ان يمسحوا بركبهم التراب الذي تعفّره ذات أحذيتهم الطويلة إنهم كانوا هنا على هواهم ، وكانوا يجسّون ، دون اصول الكتب واللوحات ، راغبين ان يعرفوا درجة جودة البضاعة ، وكانوا يساومون بجرأة في السعر الذي كان يزايد فيه العارفون وهنا كان الكثير من الزوار الذين لا يستغنى عنهم في المزادات ، الذين قرروا

حضورها كل يوم بدلاً من الفطور ، والعارفين الارستقراطيين الذين اعتبروا فرضاً على أنفسهم ان لا يفلتوا فرصة تكثير مجموعاتهم ، والذين لم يجدوا شغلا يشغلهم بين الساعة الثانية عشر والساعة الواحدة ظهرا ، وأخيراً هناك السادة الشهمون ، الذين كانت جيوبهم في غاية الخواء وملابسهم يرثى لها ، والذين يظهرون كل يوم دونما هدف أو غرض ، اللهم سوى معرفة كيف سينتهي المزاد ، ومن سيعطي اكثر ، ومن سيعطي أقل ، ومن سيفوز على الآخر في هذه المباريات ، وما الذي سيتبقّى لهذا أو ذاك . لقد نثرت كثرة من اللوحات تماماً دونما جدوى ، ومعها كانت قد وُضعت الأثاث والكتب بطغريات المالك السابق ، الذي لعله ليس لديه الفضول الحميد للتطلع اليها كانت المزهريات الصينية، واللوحات المرمرية للمناضد ، والأثاث الجديد والقديم بالاختام والخطوط المقوسة والدساتين وتحف أبي الهول ، وبراثن الاسود ، المذهّبة أو غير المذهّبه ، والشمعدانات والثريات والمصابيح ، وقناديل الزيت القديمة ، كل هذا كان مكدساً على بعضه ، قطعاً ليس كما هو الحال في المخازن كان كل شيء يمثّل نوعاً من فوضى الفنون وعموماً ، فان الاحساس الذي

نحسّه في المزاد العلني هو إحساس رهيب ففيه يتجاوب كل شيء بشيء ما شبيه بموكب جنائزي وكانت القاعة التي يجري فيها المزاد كئيبة دائماً على نحو من الأنحاء ، كما كانت النوافذ المزدحمة بقطع الأثاث واللوحات تشحّ في منح النور ، كما ان الصمت المراق على الوجوه ، وصوت المنادي المذكّر بالقبور ، الضارب بالمطرقة والمقيم قدّاسا على أرواح الفنون التي تستثير الشفقة والتي التقت هنا على نحو غريب إن كل هذا ليشدّد ، كما يبدو ، من الانطباع غير المريح لجو المزاد

وبدا ان المزاد كان في ذروته وكان حشد كامل من الناس الأسوياء الذين انشغلوا ، وقد تحركوا سوية ، بشيء ما دونما انقطاع ومن كافة الأنحاء كانت تردّد الكلمات « روبل ، روبل ، روبل » ، — — فلم تُتح الوقت للمنادي ان يعلن اكثر من مرة السعر الجديد الذي ازداد أربع مرّات اكثر مما هو معلن وكان الحشد المتجمع يضج بسبب لوحة ، لم يمكن لها ان لا تُوقف كل من كان لديه ولو أدنى قدر من الفكرة عن فن الرسم فلقد تجلّت آثار الفرشة الفاخرة للرسام في هذه اللوحة على نحو واضح وكانت اللوحة ،

كما هو بيّن ، قد اصلحت وجددت عدة مرّات ، وكانت تصوّر الملامح السمراء القاتمة لأحد الآسيويّين في رداء عريض ، وبتعبير غريب ، وخارق في الوجه ، ولكن أشدّ ما سبّب ذهول المحتشدين هو الحيوية الخارقة للعينين وكلما أكثروا من التحديق فيهما ، كلما بدا انهما تنفذان في داخل كل منهم إن هذه الغرابة ، وهذا التركيز الخارق للرسّام قد استأثرتا باهتمام الجميع تقريبا لقد تراجع كثير من المتنافسين عليها ، وذلك لأن الثمن الذي حُدّد كان فوق الطاقة ولم يتبقّ سوى اثنين من الارستقراطيين ، مشهورين بحبّهما للرسم ، لم يريدا ، مهما كان الثمن التخلّي عن مثل هذا المقتنى لقد احتدا وكانا سيضربان ، على الارجح ، رقما في حدود المستحيل لو لم يعلن أحد من كانوا ينظرون الى اللوحة هنا فجأة « اسمحوا لي ان أقطع جدلكم لوقت لعلي أملك الحقّ ، اكثر من أي إنسان آخر ، في هذه اللوحة » فحوّلت هذه الكلمات ، في لمح البصر ، انتباه الجميع إليه . كان هذا انساناً رشيقاً ، في الخامسة والثلاثين ، بشعر مجعّد أسود طويل وكان الوجه اللطيف ، المفعم بشيء من اللامبالاة الرائقة يظهر روحاً غريبة على كافة الهزات الدنيوية المرهقة ، ولم يكن في

هندامه أيما ادعاء بالموضة ، كان كل شيء يشير فيه الى فنان كان هذا ، على وجه الدقة ، هو الرسام ب المعروف شخصياً من قبل كثير من الحاضرين

« مهما بدت لكم كلماتي غريبة ، ــ استطرد هو ، وقد لحظ الاهتمام العام المركّز عليه ، ــ ولكن لو وافقتم على ان تستمعوا إلى حكاية غير كبيرة ، فلعلكم سترون انني على حق في ما قلته إن كل شيء يؤكد لي ان هذه إنما هي اللوحة نفسها ، التي أنشدها »

ومن الطبيعي جداً ان هذا قد اشعل الفضول في كافة الوجوه تقريبا ، وتوقف المنادي نفسه ، فاغراً فاه وقد رفع المطرقة بيده ، مستعداً لأن يسمع وفي بداية الحكاية حول الكثيرون انتباههم ، دون إرادتهم ، إلى اللوحة ، ولكنهم تسمّروا فيما بعد ، في القاصّ نفسه ، بمقدار ما صارت قصته نفسها اكثر متعة واثارة للاهتمام

ــ معروف لكم ذلك القسم من المدينة الذي يسمونه كولومنا ، ــ هكذا ابتدأ هو ، ــ كل شيء هنا لا يشبه الاقسام الاخرى من بطرسبورغ ، فهذا القسم لا هو بالعاصمة ولا بالمحافظة ، إنه ليبدو ، وانت تجتاز شوارع كولومنا ، انك تحسّ كيف تبارحك كافة الرغبات والانفعالات الفتيّة . فالى هنا

لا يأتي المستقبل ، وهنا طوال الوقت يخيّم الصمت وأجواء التقاعد ، وكل ما حثل وترسّب من حركة العاصمة والى هنا يرتحل للعيش الموظفون المتقاعدون ، والأرامل ، والناس غير الاغنياء ، الذين عرفوا الطريق إلى مجلس الشيوخ ولذلك يحكمون على أنفسهم بالعيش هنا طوال العمر تقريبا ، هنا الطباخات العجائز اللواتي تتدافعن طوال اليوم في الأسواق ، وتثرثرن بالهراء مع رجل ما في حانوت صغير ، وتشترين كل يوم قهوة بخمسة كوبكات وسكراً بأربعة ، واخيراً ، كل هذا الشطر من الناس ، الذي يمكن تسميته بكلمة واحدة رمادي ، ناس لهم بملابسهم ، وبوجوههم ، والشعر والعيون ، لهم مظهر معتكر مثل الرماد ، مثل النهار حين لا تكون في السماء لا عاصفة ولا شمس ، ببساطة لا هذا ولا ذاك يرقد الضباب فيسلب الأشياء كل حدة وألق الى هنا يمكن أن ندرج قاطعي التذاكر في المسارح المتقاعدين ، والكتبة المتقاعدين وارباء اله الحرب مارس المتقاعدين بعين مفقوعة وشفة متضخمة إن هؤلاء الناس هم قطعا بدون رغبات يمضون ، لا ينظرون إلى شيء ، يصمتون ، دون أن يفكروا في شيء وليس في غرفهم الكثير من العفش والأثاث ، وانما أحيانا قنينة

كبيرة من الفودكا الروسية الخالصة ، التي يظلّون يرتشفونها ، برتابة ، طوال اليوم ، من دونما احتقان قوي في الرأس ، المثار بالافراط في الشرب ، هذا الذي يحب ان يمنحه لنفسه في أيام الآحاد عادة الحرفي الالماني الشاب ، صنديد شارع ميشانسكايا ، الحاكم بأمره على الرصيف كله ، حين يجاوز الوقت منتصف الليل

إن الحياة في كولومنا موحشة بشكل رهيب فقلما تظهر عربة فاخرة ، اللهم ما عدا تلك التي يرتحل فيها الممثلون ، والتي تعكّر لوحدها بهديرها ، ودويّها وقعقعتها ، الصمت العام والجميع مشاة هنا ، وغالباً ما يمرق الحوذي بعربته دونما راكب ما ، حاملاً العلف لفرسه الملتحية ويمكن العثور على الشقة هنا بخمسة روبلات في الشهر ، حتى مع قهوة الصباح وتلك الأرامل ، اللائي يتسلّمن التقاعد ، هنا هن اكثر العائلات منشأ ارستقراطياً اذ يسلكن سلوكاً جيداً ، وغالباً ما يكنسن غرفهنّ ، ويتحدثن مع الصديقات عن غلاء لحم الأبقار والكرنب ، كما غالباً ما تكون لديهنّ إبنة شابة ، مخلوق صامت ، لطيف الشكل أحيانا ، وكذلك كلب لئيم ، وساعات حائطيّة ببندول يدقّ بحزن وبعد ذلك يأتي الممثلون ، الذين لا يسمح راتبهم لهم

بمغادرة كولومنا إلى حي آخر ، وهم ناس أحرار ، مثل كافة الممثلين ، يعيشون للمتعة . إنهم يصلحون ، وهم جلوس في الأرواب ، مسدساً ، ويصنعون من الكارتون كافة الأشياء النافعة للبيت ، ويلعبون مع الصديق القادم بالشاش والورق ، وهكذا يمضون الصباح ، عاملين ذات الشيء تقريبا مساء ، شافعين ذلك بخمر البونش أحيانا وبعد ارستقراطية وأقطاب كولومنا هؤلاء يأتي الناس الصغار بشتى صنوفهم وألوانهم إن من الصعب تسميتهم مثلما هو صعب تعداد تلك الكثرة من الحشرات التي تولد وتنشأ في الخلّ العتيق هنا توجد العجائز التي تصلّي ، والعجائز التي تسكر ، والعجائز التي تصلّي وتسكر معاً ، عجائز تعيش بصورة ما ، بوسائل لا تدرك ، تجرجر مثل النمل خرقا عتيقة وملابس رثة من جسر كالينكين حتى سوق الخردوات والعاديّات لتبيعها هناك بخمسة عشر كوبكا ، وبكلمة هنا أتعس حثالة للبشرية ، حثالة ليس بوسع أي اقتصادي بالغاً ما بلغ من الحصافة ان يجد وسيلة لتحسين معيشتها وإنما قد ذكرتها ، لاظهر لكم كيف يوجد هؤلاء الناس في حاجة ماسّة إلى مساعدة فورية ، موقتة ، بالالتجاء الى الديون ، وآنذاك ينزل ما بين ظهرانيهم مرابون من نوع خاص ،

يمدّونهم بمبالغ غير كبيرة لقاء مرهونات وبفائدة كبيرة. إن هؤلاء المرابين الصغار يكونون عادة مجردين من الأحاسيس بصورة تفوق بعدة مرات ما هو عليه حال المرابين الكبار، وذلك لأنهم ينشأون وسط الفقر ومظاهر الاسمال البالية والبؤس المدقع، تلك التي لا يراها المرابي الغنيّ، الذي يرتبط فقط بالمرتحلين إليه في العربات الفاخرة. ولذلك فبشكل غاية في سبق الأوان والتبكير يموت في قلوبهم كل إحساس بالأنسانية وبين هؤلاء المرابين، كان أحدهم ولكن لن يضيركم القول، بان الواقعة التي اضطلعت بالتحدث عنها تتعلّق بالقرن السابق، وبالذات بعهد المرحومة القيصرة كاترين الثانية إنكم بانفسكم تستطيعون ان تفهموا ان مجرد مظهر كولومنا والحياة داخلها ينبغي ان تتغيرا لحدّ كبير وهكذا، فبين هؤلاء المرابين، كان أحدهم ـ مخلوق غير اعتيادي بكل المعاني والاعتبارات، قد قطن، منذ زمن، ذلك القسم من المدينة كان يسير في رداء آسيوي عريض فضفاض، وكانت بشرة وجهه القاتمة تشير الى منشئه الجنوبي ولكن بالتحديد من أي شعب كان هو أهندي، أم يوناني أم فارسي، هذا أمر لم يستطع أحد معرفته على الأرجح كان طوالا، ذا قامة

خارقة الطول على وجه التقريب ، أسمر ، هزيلا ، وكان وجهه المضنى ولونه الرهيب المستعصٍ على الادراك بنحوٍ ما ، وعيناه الكبيرتان ، ذات الألق الخارق غير الاعتيادي ، اللتان تنوءان بحاجبين ثقيلين ، كان كل هذا يميّزه بقوة وحدّة من كافة سكان العاصمة الآفلين، الرماديّين بل إن ذات مسكنه لم يكن مشابهاً للمساكن الخشبية الصغيرة الاخرى . فقد كان هذا مبنىً حجرياً ، من قبيل تلك التي ابتناها بوفرة تجار جنوا ، بشبابيك غير منتظمة وذات حجم غير متساو ، ومزاليج وترابيس حديدية وقد تميّز هذا المرابي عن المرابين الآخرين بانه كان يستطيع ان يسلّف أيما مبلغ يناسب الجميع ابتداء من العجوز الفقيرة إلى الوجيه المتلاف وأمام بيته كانت تظهر غالباً العربات الفاخرة الغاية في الاناقة ، التي كانت يتطلّع من نوافذها أحياناً رأس سيدة مرفّهة من علية القوم وسرت إشاعة تقول، كالعادة، بان صناديقه الحديدية مليئة بالنقود دون حساب، والاحجار الثمينة ، والماس وكافة صنوف المرهونات ، ولكن ، على كل حال ، لم تكن لديه تلك الأطماع التي كانت تميّز المرابين الآخرين كان يعطي النقود بطواعية ، موزعا آمادا في غاية الملاءمة بخصوص الدفع بالنسبة

للمستدينين ولكنه كان يجعلها ترتفع ، بنوع من الحسابات الغريبة ، إلى نسبة مئوية لا تُضارع هذا ، على الأقل ، ما قالته الأشاعة ولكن ما هو أغرب من كل شيء وما لم يمكن ان لا يذهل الكثيرين — كان هو المصير الغريب لكل اولئك الذين كانوا يتلقّون النقود منه فقد أنهوا جميعاً حياتهم على نحو فاجع أكان هذا مجرد رأي الناس ، ونقاشاتهم الخرقاء غير القائمة على أساس ، أم كان محض إشاعات مغرضة — ظل هذا الأمر طيّ الخفاء ولكن بعض الوقائع ، التي وقعت منذ وقت قصير ، على رؤوس الأشهاد ، كانت أمثلة صارخة ، ومذهلة فمن بيئة ارستقراطية ذلك الزمان ، سرعان ما لفت الانظار إلى نفسه فتى من عائلة طيبة ، كان قد امتاز منذ صباه بألمعية في أعمال الدولة ، يحترم غاية الاحترام كل ما هو حقيقي ، متسام متحمسّ لكل ما أولده الفنّ وعقل الانسان ، واعداً بان يكون محبا حامياً للعلوم والفنون في قابل الأيام . وسرعان ما ميّزته القيصرة ذاتها ، عن استحقاق ، فعهدت له بمنصب بارز ، ينسجم تمام الانسجام مع متطلباته الخاصة ، منصب استطاع فيه ان يؤدي بكثير للعلم والخير على وجه العموم كان الوجيه الشاب يحيط

نفسه بالفنانين ، والشعراء ، والعلماء كان يريد ان يعطي العمل للجميع ، وتشجيع كل شيء وقد نشر على حسابه الخاص كثيراً من الكتب ذات القيمة والجدوى ، وقدم كثيرا من التوصيات ، وأعلن الجوائز التشجيعية ، وأنفق على كل هذا اكداس النقود ، وأخيراً أفلس وتدهور حالا ولكنه ، وهو الملىء شهامة ، لم يرد ان يتخلف عن قضيته ، وبحث في كل مكان عمن يسلّفه ، وأخيراً توجّه إلى مُرابٍ معروف وإذ عقد لديه ديناً كبيراً ، فانه تغير كلية في وقت قصير : فقد صار مضطهداً وملاحقاً للعقل المتطور والموهبة وفي كافة النتاجات صار لا يرى الا الجانب السيىء ، وبات يفسّر بشكل معوج كل كلمة وآنذاك ، ولسوء الحظ ، اندلعت الثورة الفرنسية وقد خدمه هذا كوسيلة لكافة الدناءات الممكنة فقد جعل يرى في كل شيء اتجاهاً ثورياً ما ، وجعلت تتراءى له التلميحات والألماعات في كل شيء واستحال شكوكياً الى درجة بات معها في النهاية يشلكّ في نفسه، وجعل يؤلف الوشايات الفظيعة، الظالمة وأحال الكثيرين إلى تعساء ومن المفهوم طبعاً ان مثل هذه التصرفات لم يمكن ان لا تبلغ ، في النهاية ، العرش القيصري فجزعت القيصرة الكبيرة

القلب ، ونطقت ، مفعمةً بالشهامة الروحية النبيلة التي تزين أصحاب التيجان ، نطقت بكلمات ، ولو انها لم تبلغنا بنصّها الحرفي ، غير ان المعنى العميق لها انطبع في قلوب الكثيرين فقد لاحظت القيصرة انه ليس في ظل الادارة الملكية تُضطَهد الحركات الكريمة للروح البشرية ، وليس هناك تمتهن وتُضطهد ابداعات العقل ، والشعر ، والفنون ، وانما على العكس ، فليس سوى الملوك كانوا حماتها ، كما ان الشكسبيريين والموليريّن قد ازدهروا تحت حمايتهم الكبيرة ، فيما كان دانتي لا يستطيع العثور على زاوية تحميه في وطنه الجمهوري ، وان العبقريات الحقيقية تظهر في عهد ألق وجبروت الحكام والدول ، وليس في زمن الظواهر السياسية الفوضوية وإرهابات الجمهوريّن ، الذين لحد الآن لم يهدوا للعالم ولاشاعراً واحداً ، وانه ينبغي تمييز الشعراء الفنانين عن غيرهم، وذلك لأنهم لا يغرسون سوى السلام وحده والسكينة الرائعة في الروح ، وليس القلق او التذمر والاضطراب ، وان العلماء والشعراء وكافة مبدعي الفنون هم في الجوهر لآلئ وماسات التاج الامبراطوري ، فبهم يتبجّل ويتلقّى المزيد من الألق الساطع عصر الملك الكبير وبكلمة ، فان القيصرة ،

التي نطقت بهذه الكلمات ، كانت في هذه الدقيقة رائعة على نحو إلهي باذخ وإني لا تذكر ان الشيوخ ماكانوا بمستطيعين التحدّث عن ذلك دونما دموع وقد شارك الجميع في القضيّة وإنصافاً لمجدنا الشعبي ينبغي ملاحظة ان القلب الروسي دائماً يعمر بالأحساس النبيل بالتزام جانب المظلوم وعوقب الوجيه الذي حنث بالعهد بصورة نموذجية وأقيل من منصبه غير ان العقاب الأكبر إنما قرأه هو في وجوه مواطنيه كان هذا هو الامتهان العام ، الشديد ومن الصعب التحدث عن الكيفية التي تعذبت بها روحه المغرورة . عزة النفس، الكرامة المخدوعة والآمال المنهارة ، ـ كل هذا توحّد معاً ، وفي الجنون الرهيب والسعار تمزقت حياته . ـ وثمة مثال بليغ آخر وقع كذلك بمرأى الجميع فمن الحسناوات التي لم تكن شحيحة بها عاصمتنا الشمالية ، كانت ثمة حسناء قد فاقت جميع الحسناوات على نحو حاسم كانت هذه توحّدا سحرياً لجمالنا الشمالي بجمال رائعة النهار ، ماسَةٌ قلما يجود الكون بمثيلها وقد اعترف أبي انه لم ير قط ، طوال حياته ، شيئا مماثلا لذلك فقد بدا ان كل شيء قد توحّد فيها الغنى والذكاء وجمال الروح وكان الخاطبون حشدا ،

وكان أبرزهم الأمير د. أفضل الشبان ، وأشهمهم ، وأروعهم بالمحيّا وبعواطف الفروسية النبيلة ، والمثال الرفيع للروايات والنساء ، غراندیسون * بكافة المعاني والاعتبارات . وكان الأمير د . عاشقا مدنفا هائما بالحسناء، وقد حظى بمثل هذا الحب الملتهب جوابا غير انه خيّل للأقارب انهما ليسا بالكفء بعض لبعض فضياع الأمراء الموروثة لم تعد ملكا له منذ أمد طويل ، وكانت عائلته مغضوباً عليها ، كما ان الوضع السيىء لأموره كان معلوماً للجميع وفجأة غادر الأمير العاصمة لوقت ، كما لو انه قصد اصلاح حاله ، ليظهر بعد وقت قصير محاطاً بالبذخ والألق اللاضريب لهما وقد جعلته حفلات الرقص الفاخرة والولائم المطهمة التي أقامها مشهوراً للقصر. فأصبح أبو الحسناء ميالاً اليه ، وأقيمت في المدينة وليمة عرس فخمة من أين جاء مثل هذا التحوّل ومثل هذا الثراء اللانظير له للخطيب ــ هذا أمر لم يستطع أحد ، على الأرجح ، تفسيره ، ولكن قيل في بعض الامكنة ، انه عقد مقاولة مع مراب لا يدرك سرّه وتلقّى قرضا منه ومهما كان الامر فقد اصبح

---

* غرانديسون ــ هو البطل الايجابي ، والمثال في رواية الاديب الانكليزي ريتشاردسون (١٦٨٩ ــ ١٧٦١) المترجم

العرس موضوع اقاويل في المدينة كلها وكان الخطيب والخطيبة موضوع الحسد العام فقد كان مشهوراً للجميع حبّهما العارم ، المقيم ، والضنى والعذابات الطويلة التي اصطبر عليها كلا الطرفان ، والمحاسن الرفيعة لكليهما . ورسمت النساء الملتهبات في الخيال مقدماً حياة النعيم التي سيتمتّع بها الزوجان الشابان ولكن كل شيء أتى بالمقلوب ففي عام واحد جرت تحولات رهيبة في الزوج فبسمّ الغيرة الشكوكية ، التعصّب ، والنزوات التي لا ينضب معينها ، أترع للغاية ما كان من طبعه النبيل الرائع . وأصبح مضطهداً ومعذّباً لزوجته، وكان الأمر الذي لم يستطع أحد التنبؤ به هو انه صار يلتجيء الى أشدّ التصرّفات لاانسانية ، بل وحتى الى الضرب المبرّح وفي عام واحد لم يستطع أحد التعرّف على تلك المرأة ، التي كانت قبل أمد ليس بالكبير نجمة متألقة تجتذب الى نفسها حشود المعجبين الهاطعين وأخيراً ، لم تعد تقوى على احتمال مصيرها التعس ، فبادرت هي بطلب الطلاق وألمّ بالزوج سعار بمجرّد سماعه الفكرة بذلك وفي أول حركة من حركات الغيظ المجنون اقتحم هو غرفتها بسكين ، وكان دون شك سيقتلها في الحال لو لم يمسكوه ويبعدوه عنها

وفي سورة الغيظ واليأس حول هو السكين الى نفسه — وفي عذابات غاية في الفظاعة أنهى حياته وفيما خلا هذين المثالين اللذين وقعا أمام عيون الجميع ، تحدثوا عن كثرة من الامثلة وقعت في الطبقات الدنيا ، انتهت كلها نهاية فظيعة فهناك الانسان الشريف ، الحصيف الذي غدا سكّيرا ، وهناك ناظر التاجر الذي سرق سيده ، وهناك الحوذيّ الذي كان يعمل بشرف سنين عديدة ، ولكنه ما لبث ان مزّق راكباً من ركاب عربته بسبب نقود زهيدة ومن غير الممكن ان لا تلقي مثل هذه الوقائع ، التي تحدّثوا بها أحياناً ليس من دون مبالغة ، شيئا من الرعب اللاارادي على سكان كولومنا المتواضعين ولم يشك أحد في وجود قوة قذرة شريرة في هذا الانسان وقيل انه كان يعرض تلك الشروط التي منها كان الشعر يقف ، والتي لن يستطيع التاعس المسكين ابلاغها بحال لأحد من الناس فيما بعد، وان لنقوده خصيصة الجذب ، وانها تتوهّج وتحمى بنفسها وانها تحمل علائم ما غريبة... وبكلمة ، كان الكثير من الأحاديث الخرقاء ومما يجدر ذكره ، هو ان كل سكان كولومنا هؤلاء ، وكل هذا العالم من العجائز البائسات ، والموظفين الصغار ، والممثلين الصغار ، وبكلمة كل هؤلاء البؤساء الصغار

ممن ذكرنا قد اتفقوا على انه من الأفضل الصبر والتحمّل الى أقصى حدّ من المضيّ الى المرابي الرهيب ، بل ووجدوا عجائز ماتت جوعاً ، فضّلت أن تميت اجسادها على أن تميت أرواحها . .وكان من يلتقيه في الشارع ، يتحسس ، دون ارادته ، بالرعب وكان الماشي يتقهقر حذراً ، وكان يظلّ يتلفت الى الوراء طويلا بعد ذلك ، متتبعاً قامته العالية المتلاشية في البعيد وفي صورته وحدها كان قدر وافر من غير الطبيعي ، بحيث انه كان يحمل كلاً على ان ينسب له قوة خارقة ان هذه الملامح القوية ، المحفورة بمثل هذا العمق ، الذي لم يحدث لانسان من قبل ، هذا اللون البرونزي الحارّ للوجه ، وهذه الكثافة في الحاجبين اللاضريب لها ، وهاتين العينين الرهيبتين اللتين لا تطاقان ، بل حتى اوسع طيات بدلته الآسيوية ، ان كل هذا بدا كما لو انه يقول ان كافة أهواء وشهوات الناس الآخرين انما هي شاحبة امام الشهوات التي تعتمل في هذا الجسم . وكان أبي يتوقف ، دون حراك ، كل مرة ، حين يلتقيه ، وفي كل مرة لم يكن يستطيع التماسك دون ان يقول « الشيطان ، انه الشيطان ذاته ! » ولكن هاقد آن الأوان لتعريفكم بابي الذي كان هو

الموضوع الحقيقي لهذه الواقعة كان ابي انساناً رائعا بكثير من المعاني وكان رساماً من اولئك الرسامين النادرين ، احدى تلك المعجزات ، التي لا تنفثها سوى روسيا من احضانها السخية ، فنانا عصاميا علّم نفسه بنفسه ، وجد في روحه ، دون معلم او مدرسة ، القواعد والقوانين ، مولعاً فقط بالطموح الخالص الى التطور والتكامل ، وماضيا لأسباب ، لعله هو نفسه لايعرفها ، في الطريق التي اختطّتها له روحه ؛ كان هو معجزة من تلك المعجزات الفطرية ، التي غالبا ما يسميها المعاصرون بكلمة مهينة هي «اجلاف» ، والتي لا تبرد ولا تفتر من الوهم والانتقاص والحبوطات الخاصة ، وتظل تتلقى دفعات وقوى جديدة ليس إلا عميقا في ارواحهم يبتعدون عن تلك النتاجات ، التي تلقوا بسببها لقب الجلف وكان قد شمّ بالغريزة الداخلية الرفيعة وجود الفكرة في كل موضوع ، وأدرك تلقائياً المعنى الحقيقي للكلمة الرسم التاريخي ، أدرك مثلاً لماذا يمكن تسمية الرأس البسيط ، والصورة البسيطة التي يرسمها رفائيل ، وليونارد دي فينشي ، وتيتسيان وكوريجو رسماً تاريخياً ، ولماذا تكون اللوحة الضخمة

ذات المحتوى التاريخي ، مع ذلك، *tableau de genre
بصرف النظر عن كافة ادعاءات الرسام بالرسم التاريخي.
ان كلا من الشعور الداخلي والقناعة الخاصة قد وجّها
فرشته الى المواضيع المسيحيّة ، الى أعلى وآخر درجة
للسامي في الفّن لم يكن لديه حب للمجد او تهيّج ،
هذا الذي لايمكن فصله من طبع كثير من الفنانين
كان طبعه قوياً ، شريفا ، كان انسانا مستقيما صريحا ،
وحتى خشنا ، مغطى من الخارج بقشرة متيبسة بعض
الشيء ، وليس دونما شيء من الاعتزاز في الروح
يعطي رأيه في الناس بحدة وبتساهل في آن معا « لماذا
النظر اليهم ؟ ، كان يقول عادة ، ــ ذلك اني لم أعمل
لأجلهم لا إلى صالات الاستقبال أحمل لوحاتي ،
وإنما ستوضع في الكنيسة من يفهمني سيشكرني ،
ومن لا يفهم ــ سيصلي الى الله ، على أية حال لايصح
اتهام علية القوم بكونهم لايفهمون الرسم ، فانهم بالمقابل
يفهمون الورق ، ويدركون سرّ الخمرة الجيدة ، وسرّ
الخيل ــ فلماذا ينبغي للسيد ان يعرف اكثر من هذا ؟
لعله ما ان يجرّب هو هذا الأمر اوذاك فانه سينهدّ

* يعني بالفرنسية تجسيد حوادث الحياة المترجم

يتحذلق ، واذ ذاك لا خير يرجى منه ولا غناء ! ان لكل أمره الخاص ، دع كلاً ينشغل بأمره الخاص ! وفي رأيي فانه لأفضل ان يكون ذلك الانسان الذي يتكلم مباشرة ، فيقول انه لا يفهم هذا الأمر من ذلك الذي يتكلف الحديث ، منافقاً ، فيزعم انه يعرف ، ما لا يعرفه هو في الحقيقة ، ويظل يهرف فيفسد » لقد كان يعمل مقابل أجر ليس بالكبير ، أجر يكفيه لأعالة العائلة ولأتاحة الامكانية للعمل فحسب وفضلاً عن ذلك فهو لا يرفض ، بحال من الأحوال ، مساعدة الغير ، ومدّ يد المساعدة الى الرسام الفقير ؛ كان يؤمن لعقيدة الاجداد الورعة ، ولعله ، لذلك ، كان يظهر على الوجوه التي صوّرها ذلك التعبير الرفيع الذي لم تستطع الوصول اليه المواهب المشرقة ! وأخيراً ، فبالمثابرة في عمله وبثبات الطريق الذي رسمه لنفسه ، صار هو يحظى باحترام حتى اولئك الذين منحوه لقب الجلف والبلدي المتعلم بنفسه فجعلوا يعطونه ، دون انقطاع ، التوصيات الكنيسية ، وكان العمل لديه مستمرا دون انقطاع وكانت احدى لوحاته قد اشغلته جدا لم أعد أتذكر فيم انحصر موضوعها فقط أعرف انه كان ينبغي احلال روح الظلام في اللوحة . وطويلاً

فكرّ هو في ذلك ، في مسألة أي صورة ينبغي ان يعطيها فقد كان يريد ان يحقّق في شخصه كل ما هو ثقيل ، يرهق الانسان ولدن مثل هذه التأملات كانت تبرق أحياناً في رأسه صورة المرابي الغامض ، فكان يفكر ، عفو ارادته «ها هو من ينبغي تصوير الشيطان فيه» فاحكموا ، اذن ، على مدى دهشته ، حين سمع في احدى المرات ، وهو يعمل في ورشته ، طرقاً في الباب ، ليدخل اليه في اثر ذلك المرابي الفظيع. فلم يستطع ان لا يحسّ بانتفاض داخلي ما ، سرى ، دون ارادته ، في جسمه

— أ أنت رسام ؟ — قال لأبي من دون احتفال

— رسام ، — قال أبي في حيرة ، منتظراً ماذا سيكون بعد ذلك

— حسناً ، ارسم صورتي فربما سأموت قريباً ، ولايوجد لي أعقاب ، ولكني لا أريد أن أموت نهائيا ، اني أريد ان أخلد أفتستطيع ان ترسم لي تلك الصورة ، التي أكون فيها مثل الحيّ تماما ؟

فكرّ أبي برهة «أي شيء أفضل من هذا ؟ إنه نفسه جاءني لأرسمه شيطاناً في لوحة» وأعطى وعدا واتفقا على الوقت والسعر ، وفي اليوم التالي كان أبي

لديه ، وقد اختطف معه لوحة الألوان والفرشة ان البيت العالي ، والكلاب ، والأبواب الحديدية ، والترابيس ، والشبابيك على شاكلة القوس ، والصناديق المغطاة بالسجاجيد الغريبة ، واخيراً صاحب البيت غير الاعتيادي ذاته ، الجالس دونما حراك أمامه ، ان كل هذا قد ترك فيه انطباعاً غريبا كانت الشبابيك كمالو خصيصاً قدحُشّيت من الاسفل بذلك الشكل الذي لا تسمح معه بالنور الا من قمتها فحسب « الى الشيطان ، لشدّما أنير الآن وجهه ! ـ قال هو في سرّه وانهد متلهفاً يرسم ، كما لو انه يخشى أن تختفي بشكل من الاشكال الانارة الحسنة . ـ أية قوة ! ـ كرر هو في نفسه ـ لو صورته ولو نصفه بهذا الشكل ، على ما هو عليه الآن ، فانه لكان قد قضى على كل قديسيّ وملائكتي ، فانهم سيتضاءلون أمامه أية قوة شيطانية ! إنه سيقفز من الخامة بالتأكيد لوكنت فقط أميناً ولو شيئاً للأصل أية ملامح خارقة ! » كان يكررّ هو دونما انقطاع ، وهو يضاعف من حميّته ، وها قد صار يرى بنفسه كيف جعلت ترتسم على الخامة بعض الملامح ولكن كلما أوغل في الاقتراب منه ، كلما اشتدّ احساسه بذلك الشعور المرهق ، المقلق ، غير المفهوم

له هو نفسه وعلى أية حال ، فبالرغم من ذلك ، فانه قد آلى على نفسه ان يتتبّع بدقة حرفية كل ملمح وتعبير خفيّ وقبل أي شيء شُغل هو بانجاز تصوير العينين ففي هاتين العينين كان ذلك القدر من القوة ، الذي كان يلوح معه غير ممكن التفكير في نقلها بدقة ، كما كانت هي في الطبيعة وعلى اية حال فقد قررّ هو البحث عن والتوصّل ، بايما ثمن ، الى آخر ملمح صغير وأتفه ظل وجزئية ، وادراك سرّهما... ولكن ما ان بدأ هو التغلغل فيهما والتعمّق بالفرشة حتى ولد في روحه ذلك التقزّز الغريب ، وذلك الضيق غير المفهوم ، بشكل كان مضطراً معه لأن يرمي الفرشة بعضاً من الوقت ، ويقبل عليها من جديد وفي النهاية ، لم يعد يستطيع الاحتمال فقد شعر بأن هاتين العينين تغلغلتا في روحه وبعثتا فيه قلقاً لايدرك سره وفي اليوم الثاني والثالث اشتدت الوطأة عليه وبات الأمر رهيباً عليه فرمى الفرشة ، وقال على نحو جازم ، انه لم يستطع المزيد في تصويره وكان ينبغي ان يرى كيف تغيّر المرابي الغريب لدن سماعه هذه الكلمات

فقد ارتمى عند قدميه وتضرّع اليه أن يُنهي الصورة ، قائلا ، انه يتوقّف على هذا مصيره ووجوده

في العالم وانه قد مسّ بفرشته ملامحه الحية الحقيقية ، وانه إذا ما نقلها بامانة ، فان حياته ستُذخر وتخلد بقوة ما فوق طبيعية في صورة ، وانه بذلك لن يموت تمام الموت ، وانه يريد ان يبقى في العالم فاحسّ أبي بالرعب من مثل هذه الكلمات فقد تراءت له رهيبة جداً وبالغة الغرابة ، بحيث انه رمى بالفرشة وبلوحة الالوان جانبا واندفع راكضاً من الغرفة وأقلقه التفكير بذلك وأقض مضجعه طول النهار وطوال الليل ، وعند الصبح تسلّم هو من المرابي الصورة التي حملتها إليه إمرأة ما ، هي الكائن الوحيد ، الذي كان في خدمته ، ومعلنةً في الحال ان سيدها لا يريد الصورة ، ولا يعطي شيئا لقاءها ، وانه يرجعها اليه وفي مساء ذلك اليوم ذاته عرَف هو ان المرابي قد توفي ، وان الاستعداد يجري لدفنه وفقاً لمراسيم وطقوس دينه . ولاح له كل هذا أمراً بالغ الغرابة ، عصياً على التفسير وبالمناسبة ، فمنذ الوقت ظهر في طبعه تحّول محسوس فقد صار يشعر بحال من القلق والاضطراب ، ولم يفهم هو نفسه سببه ، وسرعان ما اقترف هو ذلك العمل ، الذي لم يكن أحد ما لينتظره منه فمنذ وقت قصير صارت أعمال أحد تلامذته تجتذب اهتمام حلقة غير كبيرة من العارفين

والهواة وكان أبي قد لحَظ فيه دائماً الموهبة ، فكان يمنحه ، لقاء ذلك ، عطفه الخاص وتشجيعه وفجأة أحس ّ هو الحسد تجاهه فكانت المشاركة العامة والنقاشات بخصوصه أمراً لا يطاق بالنسبة اليه واخيراً ، واتماماً للمصيبة ، يعرف هو ، انه قد عُهد تلميذه برسم لوحة لكنيسة غنية كانت قد شُيدت من جديد فنسفه هذا نسفاً « كلا ، لن أسمح للرضيع بالانتصار ! — قال هو ، — ان من السابق للأوان ، يا صاحبى ، ان تقدم على رمي الشيوخ في الوحل ! لا زالت لدي ، ولله الحمد ، قواي ها إننا سنرى من سيرمي الآخر في الوحل » وانهد الرجل البسيط القلب ، الشريف الروح يستعمل ألوان المكائد والدسائس ، التي كان يتقزّز منها دائماً لحد ّ ذلك الوقت ؛ وتوصل ، أخيراً ، الى اعلان مسابقة على اللوحة ، واستطاع رسّامون آخرون الاشتراك في ذلك بأعمالهم وبعد ذلك انحبس هو في غرفته وأقبل بحميّة على فرشته وبدا انه كان يريد ان يضع هنا كافة قواه ، وكامل كيانه وبالضبط ، طلعت هذه اللوحة واحدة ً من أفضل نتاجاته ولم يكن أحد ليشك ّ في انه سيحوز الاولوية وقُدّمت اللوحات ، وبدت اللوحات الباقية أمامها مثل الليل امام النهار .

وفجأة نطق أحد الأعضاء الحاضرين ، وهو ، إن لم اخطىء ، شخصية كنسيّة مرموقة ، نطق بملاحظة اذهلت الجميع « في لوحة الرسام يوجد ، حقاً ، الكثير من الموهبة ، – قال هو ، – ولكن ليست ثمة قدسيّة في الوجوه ، بل انه ليوجد حتى العكس من ذلك ، يوجد شيء ما شيطانيّ في العيون ، لكأن يد الرسام وجّهها شعور غير طاهر » فنظر الجميع ولم يستطيعوا عدم الاقتناع بصحة هذه الكلمات فاندفع أبي إلى لوحته ، كما لو انه يريد التوثّق بنفسه من صحة هذه الملاحظة المزعجة ، ولحظ برعب ، انه قد منح كافة الاشخاص تقريباً عيني المرابي فانهم كانوا ينظرون بذلك الشكل الشيطاني – الماحق ، بحيث انه هو نفسه انتفض دون ارادته واستبعدت اللوحة ، وكان عليه ان يسمع ، لحزنه الذي لا سبيل إلى وصفه ، ان الأولوية قد حازها تلميذه ولم يكن بالامكان تصوير ذلك السعار ، الذي عاد به أبي الى البيت فقد كاد يضرب والدتي ، وطرد الاطفال ، وحطم الفرشة والمنصّة ، واختطف من الحائط صورة المرابي ، وطلب سكينا وأمر بان تُشعل النار في الغرفة ، عازماً تقطيعه إربا وحرقه . وعند هذه الحركة أدركه صديقه الذي كان

قد دلف الى الغرفة ، وهو رسّام مثله ، ولكنه رجل مرح طروب راض على نفسه دائماً ، ولا تشغله أيما رغبات او مطامح بعيدة ، ينتج بمرح كل ما يتفق أن يقع له ، وبمزاج أشد من ذلك مرحاً يجلس الى المائدة والولائم

ــ ماذا تصنع ، ماذا تريد ان تحرق ؟ ــ قال هو ، وتقدم من اللوحة ــ تسامح ، انها أحد أفضل نتاجاتك انه المرابي ، الذي توفي قبل أمد قصير ، أجل انه لشيء تامّ الاكتمال انك قد اصبت قلب الهدف ، أصبت كبد عينيه وتغلغلتهما هما بالذات لم يقع في الحياة ان تنظر عينان بشريتان بمثل ما تنظران لديك في هذه الصورة

ــ إذن دعني أرى كيف ستنظران هما في النار ، ــ قال أبي وقد صنع حركة لرمي اللوحة في مدفأة في الحائط

ــ توقف ، لخاطر الله ! ــ قال الصديق وقد صده عن ذلك ، ــ الأفضل من ذلك ان تعطيني الصورة ، إن كانت تشكّ عينيك لهذه الدرجة .

وفي البداية عاند أبي ، ولكنه وافق أخيراً ، وحمل الرجل المرح الطروب الصورة معه ، مسروراً للغاية بمقتناه .

وبمغادرته أحسّ أبي فجأة بالهدوء وسكينة الروح. لكأنه بالضبط قد ازيح بازاحة الصورة عبءٌ جسيم عن روحه ودهش هو نفسه لشعوره الحاقد ، ولحسده والتغيّر الواضح في طبعه وإذ تفحّص تصرفه ، حزنت روحه ، وأعلن لا بدون تفجّع داخلي «كلا ، انه الربّ قد عاقبني ، فان لوحتي كانت في واقع الأمر قد أتت بالخزي . فقد كانت مدبّرة الصنع بشكل تهلك فيه أخاي أجل ، انه الاحساس الشيطاني بالحسد قد وجّه فرشتي ، وانه الاحساس الشيطاني ما كان ينبغي ان ينعكس فيها» وتوجّه هو في الحال يبحث عن تلميذه السابق ، وعانقه بحرارة ، وطلب لديه الصفح وحاول بقدر ما استطاع ان يكفّر عن ذنبه أمامه وتتابعت اعماله من جديد ، كما في السابق ، على نحو هادئ ، ولكن التأمل جعل يرين غالباً على وجهه فجعل يستزيد تعبّده وصار غالباً ما يُرى صامتاً ، ولم يعد يعبر عن رأيه في الناس بقوة ، وتلطّفت ورقّت اشد المواضع خشونةً في طبعه . وسرعان ما هزّه حادث آخر بقوة اكبر اذ لم ير هو منذ زمن زميله الذي طلب الصورة منه وكان قد تهيأ للخروج بحثا عنه ، وإذا بهِ هو نفسه قد دخل دون توقّع الى الغرفة وبعد بضع

من الكمات والاسئلة المتبادلة بين الطرفين ، قال هو

ـ حسناً ، يا أخي ، ليس عبثاً أنك أردت احراق الصورة فليأ خذها الشيطان ، فان فيها شيئا ما غريبا انا لا اعتقد بالارواح الشريرة ، ولكن صدّق او لا تصدق فان فيه تكمن قوة شريرة

ـ كيف ؟ ـ قال أبي

ـ هكذا ، فمنذ ذلك الوقت الذي حملت فيه الصورة الى غرفتي ، وانا أحس بتلك اللوعة بالضبط كما لو اني أردت تقطيع أحدٍ ما انا لم أعرف في حياتي ما هو الأرق ، ولكني الآنّ لم أعانِ الأرق فحسب ، بل ورأيت تلك الاحلام ... بل أنا نفسي لا استطيع القول أأحلام هي ام شيء آخر ، لكأن روحا شريرة تخنقك ويظلّ الشيخ اللعين يطوف بك طوال الوقت وبكلمة واحدة ، انا لا استطيع أن أحدثك بحالي إذ لم يقع لي قط مثل هذا من قبل كنت أجول مثل مخبول كل هذه الأيام كنت أشعر بخوف ما ، وبتوقّع غير مريح لشيء ما أشعر ، باني لا استطيع ان أقول لأيٍ من الناس كلمة مرحة ، مخلصة بالضبط كأن حولي يجلس جاسوس ما وفقط منذ ذلك الوقت ،

الذي أُعطيت فيه الصورة لابن أخي ، الذي التمسها مني ، صرت أحس ّ كما لو ان حجرا ثقيلا قد أزيح فجأة عن كتفي ؛ فجأة أحسست بنفسي مرحاً كما تراني . ايه ، يا اخي ، إنك خلقت لنا الشيطان

وإبّان هذا الحديث كان أبي قد استمع اليه بعظيم الاهتمام وسأل أخيرا

ــ وهل الصورة الآن لدى ابن اخيك ؟

ــ علامَ ابن اخي ! انه لم يصمد هو الآخر ، قال الرسام الطروب ، ــ يبدو إن روح ذات المرابي قد حلّت فيها فهو يتملّص من اطاره ، ويخطو في الغرفة وما يحكيه ابن اخي ببساطة لا يمكن للذهن ان يدركه كنت ساعتبره مجنونا ، لو لم أعان ذلك الأمر جزئيا بنفسي لقد باعه هو لأحد جامعي الصور ، وهذا أيضا لم يتحمله فتخلّص منه كذلك دافعاً به الى آخر

وأحدثت هذه الحكاية انطباعاً قوياً لدى أبي فتأمل الأمر بجدّ وألم به الوسواس ، وأخيراً أمن تمامَ الايمان في ان فرشته انما كانت آلة للشيطان ، وان بعضاً من حياة المرابي قد انتقلت في الواقع ، بشكل ما ، الى صورته وهي الآن تقلق الناس ، وتبثّ الميول الشيطانية ، مضلّة الفنان عن طريقه ، مولدة العذابات

الرهيبة للحسد وما إلى ذلك والخ وقد اعتبر الفواجع الثلاث التي وقعت إثر ذلك ، وهي الوفيات الفجائية الثلاث للزوجة والابنة والابن الاصغر عقاباً سماوياً لنفسه واعتزم بصورة اكيدة ان يهجر الدنيا وما ان بلغت التاسعة حتى أدخلني هو أكاديمية الفنون ـ وبعد ان سدّد ديونه ، اعتزل في دير ناءٍ ، حيث ترهبن هناك وبالحياة الصارمة في الدير ، والتقيّد الدقيق بكافة قواعد الرهبنة ، أذهل هو أخوانه الرهبان واذ عرف رئيس الدير بفنّ فرشته طلب منه تصوير اللوحة الرئيسية في الكنيسة غير ان الاخ المتواضع قال بصورة جازمة باتة ، انه لا يستحقّ الاضطلاع بالفرشة وانها مدنّسة وأنه ينبغي عليه بالعمل والتضحيات الكبيرة ان يطهّر روحه قبل كل شيء ، كي يستحق الشروع في هذا الأمر . ولم يريدوا إرغامه وقد بالغ هو لنفسه ، بمقدار ما استطاع ، صرامة حياة الرهبنة وأخيرا ، أضحت حتى هذه الحياة لا تكفيه وصرامتها لا تشبعه فاعتزل بتبريك رئيس الدير في الخلاء كي يبقى لوحده تماما وهناك أقام لنفسه صومعةً من أغصان الاشجار ، وجعل يتغذّى بالجذور النية لوحدها ، وصار ينقل الاحجار على ظهره من مكان الى آخر ، وكان يقف منذ شروق الشمس حتى

غروبها في ذات مكان بيدين مرفوعتين الى السماء قارئاً الصلوات دونما انقطاع وبكلمة ، بحث ، كما يبدو ، كافة امكانيات درجات الصبر وترويض الروح وتلك التضحية بالذات التي لا تدرك ، والتي لا يمكن العثور على امثلتها اللهم الا في حيوات القديسين فقط وعلى هذه الحال ، وطوال عدة سنوات ، اضعف هو جسده وهو في قواه ، ساندا اياه في الوقت ذاته بقوة الصلوات التي تبعث فيه الحياة واخيرا جاء هو الديرّ يوماً من الأيام وقال على نحو جازم للرئيس « الآن أنا مستعد إذا شاء الله سأنجز عملي » وكان الموضوع الذي اختاره هو ميلاد المسيح عمل عاماً كاملا فيه ، دون ان يبارح صومعتَه ، وهو يطعم نفسَه بالكاد طعاما بدائيا ، مصلياً دونما انقطاع وعند انصرام العام كانت اللوحة جاهزة كانت هي ، حقاً ، معجزة الفرشة وإنه لينبغي معرفة انه لم تكن لا لدى أخوية الرهبان في الدير ولا لدى رئيسها معارف وافية في فن الرسم ، ولكنهم جميعاً كانوا مذهولين تماماً بالقدسية الخارقة للاشخاص المصوّرين وكان الأحساس بالتواضع الالهي والوداعة في وجه الام العذراء المنحنية على طفلها ، والذكاء النافذ في عيني الطفل الا لهي ، كما لو انه يستشفّ

شيئاً ما في البعيد ، والصمت الاحتفالي للملوك المذهولين بالمعجزة الالهية ، المنكبين عند قدميه ، وأخيراً السكينة المقدسة التي لا يمكن التعبير عنها ، والتي تتسربل اللوحة بكاملها ــ كان كل هذا قد مثل في تلك القوة المنسّقة وجبروت الجمال ، بحيث ان الانطباع كان سحريا وخرّ الرهبان جميعا في الاخوية على ركبهم امام الصورة الجديدة ، ونطق الرئيس المتأثر تماماً «كلا ، لا يمكن للانسان بواسطة الفنّ الانساني وحده إبداع مثل هذه اللوحة إنما القوة القدسية الرفيعة هي التي ألهمت فرشتك ووجّهتها ، كما ان بركة السماوات قد رقدت على عملك وظللّته»

وفي هذا الوقت كنت قد أنهيت دراستي في الأكاديمية ، وتسلّمت مدالية ذهبية ومعها الأمل السعيد برحلة الى ايطاليا ــ افضل حلم لفنان في سنّه العشرين . ولم يتبق على سوى توديع أبي ، الذي كنت قد افترقت عنه ١٢ عاما واني لاعترف ، انه حتى ذات صورته قد اختفت ، منذ زمن ، من ذاكرتي وكنت قد سمعت شيئاً عن القدسية الصارمة لحياته ، وتخيّلت سلَفاً لقائي بالمظهر الجاسيء لناسك غريب على كل شيء في العالم ، ماخلا صومعته وصلاته ، مضنى ،

متيبّس من الصوم المستمر واليقظة المتطاولة ولكن كم كانت دهشتي حين مثل امامي شيخ رائع ساحر ، إلهي تقريبا ! ولم يكن لآثار الضنى ظل على وجهه فقد كان مشرقاً بقدسية السرور السماوي كانت لحيته البيضاء كالثلج وشعره الرقيق المتطاير تقريبا بذات اللون الفضي قد ارتسم بجمال على صدره وعلى طيّات غفّارته السوداء وكانت تتهدّل حتى الحبل ذاته ، الذي تتمنطق به ملابسه الرهبانية البائسة ، ولكن اكثر ما أدهشني كان سماعي من شفتيه تلك الكلمات والافكار عن الفن ، التي اعترف اني سأذخرها طويلاً في روحي ، ولكنت أتمنى مخلصاً ان يصنع صنيعي كل زميل في الفّن

« لقد انتظرتك ، يا ولدي ، ـــ قال هو ، حين اقتربت منه ليباركني ـــ أمامك يشخص درب ، تجري حياتك الآن فيه إن دربك طاهر فلا تتحوّل عنه إن لديك موهبة ، والموهبة هي أغلى هبة إلهية ـــ فلا تجهز عليها ابحث ، ادرس كل شيء مما تراه ، أخضع كل شيء للفرشة ، ولكن أتقن إيجاد الفكرة الداخلية في كل شيء ، وحاول اكثر من كل شيء إدراك السرّ الرفيع للابداع إنه لسعيدٌ ذلك المختار الذي يتملّكه . ليس هناك في

الطبيعة من موضوع حقير بالنسبة له ففي الموضوع التافه يكون الفنان ــ المبدع كذلك كبيراً بذات القدر الذي يكونه في الموضوع الجليل ، وليس في المقيت شيء ممقوت بالنسبة له ، ذلك لانه تتخللّه على نحو غير مرئي الروح الرائعة للمبدع ويتلقّى المقيت تعبيراً رفيعاً ، وذلك لأنه قد جرى عبر مطهر روحه إن التلميح والايماء الى الألهي ، والجنّة السماوية ينحصر بالنسبة للانسان في الفنّ ، وبذلك وحده يكون الفنّ أرفع من كل شيء فبالقدر الذي يكون فيه السكون المهيب ارفع من أيما اضطراب دنيوي ، وبمقدار ما يكون الابداع أرفع من التدمير ، وبمقدار ما يكون الملاك أرفع بروحه البريئة الطاهرة المشرقة لوحدها من كافة القوى التي لا تعد والشهوات الجريئة للشيطان ــ بمقدار ما يكون الأمر على هذا النحو ، فبذات المقدار يكون الابداع الرفيع للفنّ أرفع من كل ما هو موجود في الكون فضحّ بكل شيء من اجله وتعشّقه بكل ما لديك من شغف وشهوة ، لا بتلك الشهوة التي تنضح بالاطماع الدنيوية ، وإنما بذلك الهوى السماوي الهادئ ، فبدونه لا يكون بوسع الانسان الارتفاع عن الأرض ولا يعود بمكنته ان يعطي الأصوات الساحرة لراحة النفس وطمأنينتها ذلك انه لاجل تهدئة الجميع

ومصالحتهم يهبط الى العالم الابداع الكبير للفن   فانه لا يستطيع ان يزرع الهيجان في الروح، ولكنه يطمح عامرا بالصلاة بصورة أبدية إلى الله   بيد انه توجد دقائق ، دقائق مظلمة   ، ــ وتوقّف هو ، فلاحظت انه قد اقتم فجأة وجهه المشرق ، كما لو انه قد مرقت عليه سحابة بسرعة البرق ، ــ ثمّة واقعة في حياتي ، ــ قال هو ، ــ حتى الآن لا استطيع أن أفهم ماذا كانته تلك الصورة الغريبة التي رسمتها   كان هذا بالأحرى ظاهرةً شيطانيةً ما   إني لأعرف   ان الدنيا ترفض وجود الشيطان ، ولذلك لن أتحدث عنه   ولكني سأقول فقط انني رسمته بتقزّز ، وانني لم أستشعر في ذلك الوقت أيّما حبّ لعملي   لقد أكرهت نفسي اكراهاً على ان أكون أمينا للطبيعة   بعد ان قمعت في نفسي كل شيء ، وعملت دون روح   إن هذه الصورة لم تكن ابداعاً فنياً ، ولذلك فان الاحاسيس التي تكتنف الجميع عند النظر إليها ، إنما هي ، في الجوهر ، احاسيس متمرّدة ، احاسيس قلقة مثيرة ، وليست أحاسيس الفنّان ، وذلك لأن الفنان يتنفس السكينة حتى في القلق   لقد قيل لي ان هذه الصورة تتداولها الأيدي وتبذر الانطباعات المرهقة ، مولدة في الفنان شعور الحسد ، والمقت الظالم للأخ ، والتعطّش الضاري

لممارسة المطاردة والاضطهاد فليحفظك الله من هذه الشهوات ! فلن يوجد أرهب منها الافضل ان تكابد كل مرارة الظلم الممكن وقوعه ، من ان تُلحق أنت بأحد ولو ظل الظلم وحده صُنْ لطهارة روحك إن من يحتوى الموهبة في داخله ينبغي ان يكون أطهر الجميع روحاً إنه ليمكن ان يغفر الكثير لانسان آخر ، ولكن هذا لن يُغتفر بالنسبة للفنان الموهوب وبالنسبة للانسان الذي خرج من البيت في ملابس عيدية احتفالية ألقة يكفيه أن يُرشّ ببقعة واحدة من الوحل من تحت عجلة ما حتى يكون الناس جميعاً قد احتشدوا حوله ليشيروا إليه بالأصابع ويلغطوا بقذارته ، فيما لا يلاحظ هؤلاء الناس أنفسهم البقع الكثار على المارّة الآخرين ، المرتدين ملابس عادية . ذلك لأنه لا تلاحظ البقع على ملابس عادية » وباركني وعانقني لم أك قط في الحياة بمثل هذا التصعيد والتسامي وبشعور من الأجلال والتبجيل اكثر من كونه شعور البنوّة ، التصقت انا بصدره وقبّلت شعره الفضي المتناثر فتألق الدمع في عينيه « ألا فلتنفذ ، يا ولدي ، التماستي الوحيدة ، — قال هو ، عند غاية الوداع ، — لعلّه سيقع لك ان تشهد في مكان ما تلك الصورة ، التي حدثتك عنها . إنك ستعرفها فوراً من العينين غير

الطبيعيّتين وتعبيرهما الخارق ، ـ فدمّرها ، بكل ما يتطلّبك الأمر من ثمن » إنكم لتستطيعون الحكم بانفسكم أكنت استطيع أن لا أعده وأعاهده مقسماً بتنفيذ مثل هذه الالتماسة وفي مدى خمسة عشر عاماً كاملة لم يقع لي ان ألتقي بأيما شيء يشبه ولو من بعيد تلك الصورة التي رسمها والدي ، حتى إذا بي فجأة وأنا الآن في المزاد

وهنا حوّل الفنان ، دون ان يُنهي حديثه بعد بصره الى الحائط ليتطلع كرة إخرى الى الصورة وصنع حشد المستمعين باكمله ذات الحركة باحثاً عن عيني الصورة الخارقتين ولكن لفرط العجب لم تعد الصورة على الحائط . فسرى اللفط المبهم والضجيج في الحشد كله وفي إثر ذلك سُمعت على نحو جلي كلمات « سُرقت » فان أحدهم كان قد أفلح في اختطافها مستغلاً تعلّق اهتمام المستمعين الشديد بالحكاية ولأمد طويل ظلّ الحاضرون في حيرة ، دون ان يعرفوا أرأوا فعلاً هاتين العينَين الخارقتين ، أم ان هذا كان مجرد حلم مثل لحظة فحسب أمام عيونهم التي كلّت من النظر المطيل في اللوحات القديمة

عام ١٨٣٥

الأنف

— ١ —

وقعت في الخامس والعشرين من آذار في بطرسبورغ واقعة عجيبة غريبة فان الحلاق ايفان ياكوفليفيتش ، الذي يعيش في شارع فوزنيسينسكي (ضاع لقبه ، وحتى اليافطة المعلقة على صالونه — حيث كانت صورة سيد غطّ ذقنه في الصابون ، وكتابة «ويريقون الدم» * — ولا شيء اكثر من هذا) ، استيقظ في وقت مبكر تماماً ، وشم رائحة الخبز الحار ورأى ، ناهضاً بعض الشيء على الفراش ، ان زوجته ، السيدة المحترمة ، التي تحب جداً شرب القهوة ، أخرجت من الموقد خبزاً أعدّ لتوه

* المقصود بذلك الحجامة التي كان يمارسها الحلاقون المترجم .

— اليوم لن أشرب القهوة ، يا براسكوفيا أوسيبوفنا ، — قال ايفان ياكوفليفيتش ، — ولكن بدلاً من ذلك أشتهي الخبز الحار مع البصل (اى ان ايفان ياكوفليفيتش اشتهى هذا وذاك معاً ، ولكنه عرف انه من المستحيل تماماً طلب شيئين مرة واحدة ذلك لأن براسكوفيا أوسيبوفنا كانت تمقت للغاية هذه النزوات)

«دع الاحمق يأكل الخبز فذلك أفضل لي ، — فكرّت الزوجة في سرها ، — اذ ستبقى القهوة فنجاناً زائداً» ورمت بقطعة واحدة من الخبز على المائدة

وارتدى ايفان ياكوفليفيتش ، مراعاةً للذوق ، بدلته الرسمية ، فوق القميص ، واذ جلس إزاء المنضدة ، نثر شيئا من الملح ، وأعدّ رأسين من البصل ، وأخذ بيده السكين ، وقد حمل وجهه سيمياء معبرة ، وأقبل يقطع الخبز ونَظَرَ الى اللب ، وقد قطع الخبز الى نصفين ، ولعجبه هو رأى شيئا ما يبيض ونكش ايفان ياكوفليفيتش بالسكين بحذر ، وتحسّس باصبعه «شيء صلب ! — قال هو في سره ، — يا ترى ما يمكن ان يكون هذا ؟»

ودس أصابعه وأخرج شيئا من هناك — أنف !.. وأسبل ايفان ياكوفليفيتش يديه وجعل يمسح عينيه

ويتلمس أنف ، أنف بالضبط ! والى ذلك ، بدا له كما لو انه أنف أحد ما يعرفه وارتسم الذعر في وجه ايفان ياكوفليفيتش ولكن هذا الذعر كان لا شيء مقابل السخط الذي تملكّ زوجته

ـ أين أنت ، أيها الوحش ، قد قطعت الأنف ؟ ـ صرخت هي بغضب ـ نصّاب ! سكّير ! سأخبر الشرطة عليك بنفسي أيّ وغد انت ! ها اني قد سمعت من ثلاثة اشخاص ، انك اثناء الحلاقة تتشبّث بالانوف وتجذبها بقوة بحيث انها لا تنخلع بالكاد

بيد ان ايفان ياكوفليفيتش كان في عداد الاموات من هول الفزع فقد عرف ان هذا الأنف لم يكن سوى أنف مساعد المستشار كوفاليوف ، الذي كان يحلق ذقنه كل يوم اربعاء ويوم أحد

ـ مهلاً ، يا براسكوفيا أوسيبوفنا ! سأضعه ، ملفوفاً في خرقة في الزاوية ودعه هناك يرقد قليلا ، اما بعدئذ فسأخرجه

ـ لا أريد حتى السماع كيف لي ان اسمح لأنف مقطوع بان يرقد لدي في الغرفة ؟ أيها الجاف المتيبّس ! لا يحسن سوى شخذ موسى الحلاقة بحزام الجلد ، اما واجبه فقريباً لن يكون قادراً على ادائه ،

ايها العاهر ، ايها الحقير ! تريد ان أمثل أمام البوليس بسببك ؟ ايها القذر ايها القرمة الغبية ! أخرجه ! أبعده ! احمله الى حيث تشاء ! لكيلا أحس حتى بوجوده

وقف ايفان ياكوفليفيتش تماماً كالقتيل لقد فكر فكر ، ولم يعرف ، كيف سينتهي من تفكيره « الشيطان يعرف ، كيف حدث هذا ، ــ قال هو أخيراً ، حاكاً بيده ما وراء اذنه . ــ أسكران عدت بالأمس أم لا ، ان هذا لأمر لا استطيع ، على الأرجح ، تقريره ولكن قياساً على كل أعراض المسألة ينبغي ان تكون هذه الواقعة لا ضريب لها من قبل ذلك ان الخبز يُخبز في الموقد ، اما الأنف فليس كذلك لا أدرك شيئا !

وصمت ايفان ياكوفليفيتش ان فكرة ان البوليس يعثر لديه على أنف ويتهمه ، قد أدت به الى غيبوبة تامة وقد تراءت له تلك الياقة القرميزية المحيكة بالفضة على نحو جميل ، وذلك السيف وارتجف بكامل جسمه واخيراً تناول هو البسته الداخلية وحذاءه ، وألقى على جسمه كل سقط متاعه ، ولفّ الأنف في خرقة ، وخرج الى الشارع ، مصحوبا بمواعظ براسكوفيا أوسيبوفنا التي لا تطاق

وقد أراد أن يخبئه في مكان ما اما في العمود عند البوابة، او اسقاطه صدفة ، وكأنه لا يعلم بذلك والانعطاف في زقاق ولكن لسوء حظه التقاه انسان يعرفه ، فبدأ التحقيق معه في الحال « الى أين تمضي ؟ » أو « من أردت أن تحلق ؟ » ، وهكذا فان ايفان ياكوفليفيتش لم يستطع ان يظفر بدقيقة واحدة وفي مرة اخرى رماه هو تماما غير ان الحارس أشار له حتى من بعيد ، بسلاحه معلناً « ارفعه ! لقد أسقطتَ شيئا ما ! » وكان على ايفان ياكوفليفيتش ان يرفع الأنف ، وأخفاه في جيبه وهيمن اليأس عليه ، خصوصا ، وان الناس باتوا يتكاثرون دون انقطاع في الشارع ، مع ابتداء فتح المخازن والحوانيت

وقرّر هو المضيّ الى جسر ايساكييفسكي أفلا يفلح في رميه بشكل ما في نهر النيفا ؟ على اني مذنب ، بعض الشيء ، في اني لم أقل ، لحد الآن ، شيئاً عن ايفان ياكوفليفيتش ، الانسان المحترم ، بكثير من الاعتبارات والمعاني كان ايفان ياكوفليفيتش مثل أي ماهر روسي مستقيم ، سكيراً رهيباً وبالرغم من انه كان كل يوم يحلق ذقون الآخرين ، فان ذقنه غير حليق بصفة دائمة . وكان الفراك لدى ايفان ياكوفليفيتش

(لم يلبس ايفان ياكوفليفيتش سترة قط) أبقع ، اي انه كان اسود ، ولكنه كان كله في بقع بنية ــ صفراء ورمادية ، وكانت الياقة تلمع ، ولكن بدلاً عن الازرار الثلاثة كانت تتدلى الخيوط التى ثبتتها فقط وكان ايفان ياكوفليفيتش مستهتراً كبيرا ، وحين كان مساعد المستشار كوفاليوف يقول له ، جرياً على عادته ، اثناء الحلاقة « ان يديك نتنتان أبداً ، يا ايفان ياكوفليفيتش ! فان ايفان ياكوفليفيتش كان يجيبه على هذا ، بسؤال « مِم هما نتنتان ؟ » ــ « لا أعرف أيها الأخ لكنهما نتنتان » ــ كان مساعد المستشار يقول ، ــ وينهدّ ايفان ياكوفليفيتش ، الذي كان قد تنشق نشوقه ، ينهدّ يغمره برغوة الصابون ، مقابل هذا ، في خدّه ، وتحت الأنف ، ووراء الاذن ، وتحت اللحية ، وبكلمة ، أينما شاء

تكشّف هذا المواطن المحترم على جسر ايساكييفسكي وقبل كل شيء تفحّص هو المكان وانحنى بعدئذ على سياج الجسر ، كأنه ينظر تحت الجسر أكثير من السمك يتراقص ، ورمى بهدوء الخرقة التي لُفّ فيها الأنف وأحسّ كأنه قد أزيح عن كتفه عبءُ عشرة أرطال مرة واحدة : بل ان ايفان

ياكوفليفيتش ضحك بسخرية وبدلاً من المضي لحلاقة ذقون الموظفين ، فانه انطلق الى مبنى يحمل لوحة « شاي ومأكولات » ، ليطلب هناك قدحاً من خمر البونش ، حين لاحظ فجأة ، في نهاية الجسر رجل البوليس ذا المنظر الوجيه بفودين عريضين ، وقبعة مثلثة الزوايا وشيش فتسمّر وفي اثناء ذلك أشار رجل البوليس له باصبعه ، قائلا « تعال هنا ، أيها اللطيف !

ورفع ايفان ياكوفليفيتش ، الذي كان يعرف القاعدة ، سدارته ، وقال وقد اقترب بخفة

— أتمنى العافية لفخامتكم !

— كلا كلا أيها الأخ لا فخامة ولكن قل لي ما الذي فعلته هناك وأنت واقف على الجسر ؟

— قسماً بالله ، ايها السيد الكريم ، مضيت لعملي في الحلاقة ، وكل ما في الامر نظرت أيجري النهر سريعا

— تكذب ، تكذب ! لن تزوغ مني بهذا تفضل بالاجابة !

— انني مستعد لان احلق فخامتكم مرتين في الاسبوع بل وحتى ثلاث ، دون مماحكة ، — اجاب ايفان ياكوفليفيتش

– كلا ، ايها الصديق هذه ترهات ! يحلقني ثلاثة حلاقين ، بل ويعدّون ذلك شرفاً كبيراً ولكن تفضل واحكي ما الذي فعلته أنت هناك ؟

وشحب ايفان ياكوفليفيتش ولكن الواقعة هنا تتلفّع كليةً بالضباب ، اما ما الذي جرى بعدئذ فلا شيء معروف البتة

– ٢ –

استيقظ مساعد المستشار كوفاليوف في وقت مبكر تماما ، وصوّت بشفتيه « بر... » ، الأمر الذي كان يفعله دائماً ، حين كان يستيقظ ، رغم انه نفسه لم يستطع ان يوضح سبب ذلك وتمدّد كوفاليوف ، وأمر بان تُقدم له المرآة الصغيرة المتخذة مكانها على المنضدة لقد أراد أن ينظر الى البثرة ، التي ظهرت مساء امس لديه على الأنف ، ولكنه ، لبالغ عجبه رأى بدلاً من الأنف مكاناً في غاية الملاسة ! فأمر كوفاليوف ، وقد ارتعب ، بان يعطى ماء ومسح عينيه بمنشفة لكأنه لا يوجد أنف ! وابتدأ هو يتحسّس بيده ، كي يعرف : أفلا ينام هو ؟ كلا ، الظاهر انه لاينام وثب مساعد المستشار كوفاليوف من الفراش ، وانتفض : لا يوجد

أنف ! وأمر بان تعطى له ملابسه في الحال وطار رأساً الى رئيس البوليس

ولكن ، فان من الضروري ، في اثناء ذلك ، ان نقول شيئا ما عن كوفاليوف ، لكي يرى القارئ أي نوع كان هذا مساعد المستشار فان الذين يتسلمون لقب مساعد المستشار هذا ، بفضل الشهادات الدراسية ، لا يمكن مقارنتهم قط باولئك الذين تسلّموا مثل هذا اللقب في القفقاس ، واصبحوا يحملون رتبة مساعد المستشار . انهم نوعان متغايران تماماً ان الذين يحملون لقب مساعد المستشار عن طريق العلم والدراسة ولكن ما العمل ، ان روسيا بلاد غريبة تماماً ، بحيث اذا تحدثت عن مساعد المستشار ، فان كل الذين يحملون هذا اللقب ، بشتّى الطرق ، امتدادا من ريغا الى كامتشاتكا ، يرفعون رؤوسهم باعتبار ان الأمر يعنيهم وتصوّر مثل هذا عن كافة الالقاب والمناصب وكان كوفاليوف هذا مساعد مستشار تسلم هذا اللقب في القفقاس ، اي كان مساعد مستشار قفقاسياً وقد تسلّمه منذ عامين فقط ، ولذلك فهو لم يستطع ان ينساه ولو لدقيقة ؛ ولكن لأجل أن يمنح نفسه قدراً اكبر من الرفعة والوزن ، فانه لم يسمّ نفسه مساعد مستشار

وإنما رأساً اسمى نفسه على الدوام « ماجورا » « اسمعي ، ايتها العزيزة ، – كان يقول عادة ، حين يلتقي امرأة في الشارع ، كانت تبيع صدور القمصان ، – تعالي الي ، في البيت ، ان شقتي تقع في سادوفايا ، فقط اسألي أهنا يعيش الماجور كوفاليوف وسيدلّك أي أحد » اما اذا التقى بامرأة لطيفة ، فانه كان يصدر لها أمراً خصوصيا ، مضيفاً « اسألي ، ياروحي ، عن شقة الماجور كوفاليوف » – ولهذا بالذات فاننا سنسمي هذا الذي تسلم رتبة مساعد مستشار ، سنسميه في فصول قصتنا اللاحقة ، « بالماجور »

وكانت من عادة الماجور كوفاليوف ان يسير ، كل يوم ، في شارع نيفسكي كانت ياقته بالغة النظافة ، منشاة وكان فوداه من ذلك النوع الذي يمكن رؤيته الآن لدى مساحي الأراضي في المقاطعات والأقضية ، ولدى المعماريين وأطباء الأفواج ، وكذلك لدى موظفى اقسام البوليس المختلفة ، وعموماً لدى كافة الرجال المحترمين الذين لهم خدود ممتلئة مورّدة ، ويلعبون جيداً بالورق لعبة البوستون كان هذان الفودان يمضيان حتى منتصف الخد ، ويبلغان الأنف مباشرة وكان الماجور كوفاليوف يحمل الكثير من الأختام

العقيقية، مع الشعارات والتي نُقش عليها « الاربعاء ، الخميس ، الاثنين » والخ وقد ارتحل الماجور كوفاليوف الى بطرسبورغ في أمر يلزمه ، وبالذات البحث عن مكان يليق بلقبه فان وُفق فسيكون نائب المحافظ ، والا فوظيفة ناظر في مديرية ما بارزة ولم يكن الماجور كوفاليوف يعارض في الزواج ، ولكن فقط في تلك الحالة، التي يحصل فيها من الخطيبة على رأسمال بمئتى الف روبل. ومن هنا فان القارئ يستطيع الحكم الآن بنفسه، أيّ وضع كان وضع الماجور هذا ، حين رأى بدلاً من الأنف المعتدل المقبول مكاناً أملس ، مسطحاً ويدل على غباء

وللمصيبة لم يظهر ولا حوذيّ واحد في الشارع وكان عليه ان يمضي ماشياً ، متلفّفاً بممطره ، وساتراً وجهه بمنديل ، فيظهر بذلك ، بمظهر مَن يسيل دمه « ولكن لعل ذلك تراءى لي فحسب اذ لا يمكن ان يكون ان الأنف قد ضاع بلا سبب » فعرج على محل للحلويات ، خصيصا ، لغرض ان يرى نفسه في المرآة . ولحسن الحظ لم يكن أحد في المحل فقد كان الصبية ينظفون الغرف ، ويصفّون الكراسي كما كان بعضهم يحمل ، بعينين مغمضتين ، فطائر حارة ،

وترامت على المناضد والكراسي جرائد المساء ملطخة بالقهوة «حسناً ، الحمد لله ، لا أحد هناك ، – نطق هو ، – والآن يمكن القاء نظرة . – جاء المرآة بتهيب ونظر . – الشيطان يعرف ماذا أيّ قبح ! نطق هو باصقاً ... – ليت شيئا ما كان عوضاً عن الأنف ، والا فكيف هذا لا شيء تماماً !

وعض شفتيه بأسى ، وخرج من محل الحلويات ، وقرّر ، خلافاً لعادته ، عدم النظر الى أي أحد ، وعدم الابتسام لأحد . وفجأة تسمّر بلا حراك لدى باب أحد البيوت ، وحدثت امام عينيه واقعة تعصى على التفسير فأمام المدخل توقفت عربة ، وانفتحت الابواب ، وقفز ، منحنياً ، سيّد في سترة رسمية ، وارتقى عجلاً السلم أي هول ، وأية دهشة ، كانا معا ، حين عرف كوفاليوف ان هذا انما كان هو أنفه ولدن هذا المشهد غير الطبيعي تراءى له ان كل شيء قد انقلب في عينيه ؛ فقد أحسّ انه بالكاد يستطيع الوقوف ، ولكنه قرّر ان ينتظر ، بأيما ثمن ، عودته الى العربة ، وهو يرتجف بكلّيته كما لو انه محموم وبعد دقيقتين خرج الأنف حقاً لقد كان في سترة رسمية محيكة بالذهب ، بياقة كبيرة منتصبة ، وكان يرتدي بنطلونا

من جلد الشموة وعلى جنبه شيش ومن القبعة ذات الريش كان يمكن الاستنتاج ، انه كان يُعدّ في صنف المشاورين ومن كل شيء كان يمكن ملاحظة انه قد ارتحل الى مكان ما في زيارة ونظر الى كلا الجانبين وهتف بالحوذي « هيا ! » ، وقعد وارتحل

وكاد كوفاليوف المسكين ان يُجن انه لم يدر كيف تفسير هذه الواقعة الغريبة كيف يمكن في الواقع ، ان الانف الذي كان في وجهه بالأمس ، الأنف الذي لا يستطيع لا المشي ولا الارتحال كيف يمكن له ان يكون في سترة رسمية ! وانهدّ يعدو وراء العربة ، التي لم تكن قد مضَت بعيداً ، لحسن الحظ ، وتوقفت أمام كاتدرائية كازانسكي وعجّل كوفاليوف الى الكاتدرائية، وشقّ طريقه عبر صفّ من الشحاذات العجائز، بوجوه ملفوفة لم تترك الا ثقبين للعينين ، العجائز اللواتي كان يضحك منهن سابقاً ، ودخل الى الكنيسة وكان عدد المصلّين في الكنيسة قليلا وكانوا جميعاً يقفون عند مدخل الكنيسة وأحس كوفاليوف بنفسه فى جوّ من الاثارة والاهتياج ، بحيث انه لم يكن يقوى على الصلاة وبحث بعينيه عن ذلك السيّد في كافة الزوايا وأخيراً رآه واقفاً في جانب .

وأخفى الأنف وجهه تماماً في الياقة الكبيرة المنتصبة ، وقد اكتسى سيمياء التقوى البالغة

كيف لي أن أقربه ؟ — فكر كوفاليوف . — من كل شيء ، من السترة الرسمية من ذات القبعة مفهوم انه مشاور مدني ليس الا الشيطان وحده يعرف كيف تم هذا !

وابتدأ يسعل بقربه سعالا خفيفاً ، غير ان الأنف لم يكف ولا دقيقة واحدة عن وضعه التقي وهو يصلي ويتعبّد

يا سيّدي الكريم — قال كوفاليوف مرغماً نفسه على التنشط ، — يا سيّدي الكريم

— ما الذي يلزمك ؟ — قال الأنف ملتفتا

— انه لغريب بالنسبة لي يا سيّدي الكريم انه ليبدو لي ان عليك ان تعرف مكانك وفجأة أجدك وأين ؟ — في الكنيسة ألا توافقني على ما أقول

— سامحني انا لا أستطيع أن أفهم عمّ تتحدث أوضح !

« كيف لي أن أوضح له ؟ » — فكرّ كوفاليوف ، وابتدأ ، وقد جمع اطراف شجاعته

ـ بالطبع انا على أية حال ، أنا ماجور أن أسير بلا أنف ، وافقني هذا غير مناسب ان أيما بائعة تتجر على جسر فوسكريسينسكي بالبرتقال المقشور، تستطيع القعود دون أنف، يعني: اذا أخذنا بعين الاعتبار الاستلام والى ذلك ، فان لدي معارف من السيّدات في كثير من البيوت تشيختيريفا ، زوجة المشاور المدني ، وغيرها احكموا بأنفسكم أنا لا أعرف، يا سيّدي الكريم (وعند ذلك هز الماجور كوفاليوف كتفيه) سامحني اذا نظرنا الى هذا بمقتضى قواعد الواجب والشرف فانك تستطيع أن تفهم

ـ لا أفهم شيئا على نحو جازم ، ـ أجاب الأنف . ـ أوضح على نحو مقنع

ـ يا سيّدي الكريم ـ قال كوفاليوف باحساس من يستشعر كرامته ـ أنا لا أعرف كيف أفهم كلماتك يبدو ان كل المسألة هنا واضحة جداً للعيان ام انك تريد انك أنفي الخاص !

ونظر الأنف الى الماجور ، وقطّب حاجبيه

ـ انك تخطئ ، يا سيّدي الكريم أنا ملك نفسي ، وأنا في وضعي الطبيعي والى ذلك فبيننا لا

يمكن ان تكون أيما علاقات وثيقة قياساً على أزرار فراكلك ، ينبغي ان تكون موظفاً في ادارة اخرى . — واذ قال الأنف هذا استدار وواصل الصلاة

وارتبك كوفاليوف متحيراً للغاية ، غير عارف ما العمل بل وحتى كيف التفكير وترامى الى الأسماع ، في هذا الوقت ، حفيف لذيذ لفستان نسائي ، فقد جاءت امرأة مسنّة غاصت كلها في الدنتلا ، ومعها فتاة رقيقة في فستان ابيض ، تجسّم بكل لطف على قدّها الرشيق ، في قبعة صفراء — وردية ، خفيفة مثل كعكة. ووقف وراءهما ، خادم في زيه الرسمي ، بفودين كبيرين ودزينة كاملة من الياقات

واقترب كوفاليوف ، وأظهر عمداً ياقة صدر قميصه الفاخرة من التيل الرفيع وسوّى من أختامه المعلّقة على سلسلته الذهبية وأعار مبتسماً على جانبيه ، اهتمامه الى الفتاة الرشيقة ، التي كانت قد انحنت قليلا بلطف ، مثل زهرة ربيعية ورفعت الى جبهتها يدها البيضاء ، باصابع شبه شفافة واتسعت الابتسامة في وجه كوفاليوف ، اذ رأى تحت القبعة ذقنها المدوّر ، ذا البياض الألق ، وبعضاً من الخد ، منوراً بلون الورد في الربيع الباكر. ولكنه فجأة انفصل من مكانه ،

كما لو انه قد تشيّط وتذكر انه لا يوجد لديه أيما شيء بدلاً من الأنف ، وذرفت عيناه الدموع واستدار ليقول مباشرة للسيد في السترة الرسمية ، انه لا يعدو ان يكون قد تظاهر بهيئة مشاور مدني ، وانه غشاش ونذل ، وانه لا يعدو ان يكون أنفه هو لكن الأنف لم يعد موجوداً فقد أفلح في الفرار ليعرج ، من جديد ، على أحدهم في زيارة

وقاد هذا كوفاليوف الى اليأس فتقهقر وتوقف دقيقة تحت صفّ الأعمدة وناظراً بعناية الى كافة الجوانب ، ليرى اذا ما كان الانف قد ظهر في مكان ما وتذكر جيداً ان القبعة كانت عليه بالريش كما كانت سترته الرسمية موشاة بالذهب ، غير انه لم يلاحظ معطفه الرسمي ، ولا لون عربته الفخمة ولا الخيل ، ولم يلاحظ حتى هل انه كان خلفه خادم وفي أي زيّ خاص كان هذا الخادم والى ذلك فان العربات كانت تمرق كثيرة الى امام والى وراء وبتلك السرعة التي كان صعباً معها ملاحظتها ، ولكن هبه لاحظ إحداها فانه لم تكن لديه وسيلة لايقافها كان اليوم رائعاً ومشمساً وكان الناس وافري العدد في شارع نيفسكي وانصبّت النساء شلالاً ملوناً ضخما في

الرصيف كله ، ابتداءً من جسر بوليتسييسكي الى جسر آنجكين ها هو أحد معارفه ، الموظف العادي الذي كان يسميه المقدّم ، خصوصا اذا ما كان التقاؤهما بحضور الغير وها هو أيضاً ياريغين ، رئيس قسم في مجلس الشيوخ ، الصديق الحميم ، الذي كان يربح أبداً حين يلعب الورق وها هو ماجور آخر ، تسلم رتبة مثله في القفقاس ، يلوح له بيده ، كي يأتي اليه

— آ فليأخذه الشيطان ! قال كوفاليوف ، — أي ، أيها الحوذي ، خذني مباشرة الى رئيس البوليس !

وجلس كوفاليوف في عربة الركوب الخفيفة ، فقط كان يهتف بالحوذي « أسرع بقدر ما تستطيع!

— أرئيس البوليس موجود في غرفته ؟ — صرخ هو داخلا الى المدخل

— كلا ، قطعاً ! أجاب البواب ، — لقد ارتحل لتوّه

— يا لسوء الطالع !

— أجل ، — أضاف البواب ، — حدث هذا قبل وقت قصير ، غير انه ارتحل لو جئت قبل دقيقة ، فربما أدركته حيث هو

ودون ان ينزع المنديل عن وجهه ، جلس

كوفاليوف في العربة ، وهتف بالحوذي بصوت يائس «امض !

ــ الى أين ؟ ــ سأل الحوذي

ــ امض باستقامة !

ــ كيف باستقامة؟ هنا منعطف : أ إلى اليمين أم الى اليسار ؟

أوقف هذا السؤال كوفاليوف ، وحمله على التفكير من جديد ففي وضعه هذا كان ينبغي عليه ، قبل كل شيء ، الذهاب الى مديرية المحافظة على النظام ، لا لأنها كانت ذات صلة مباشرة بالبوليس ، ولكن لان اجراءاتها كان يمكن ان تكون أسرع ، مما هو عليه الحال في الاماكن الاخرى اما البحث عن حل لدى رئاسة ذلك المكان ، الذي أعلن الأنف نفسه لديه موظفاً ، كان أمراً غير معقول ، وذلك لأنه من أجوبة الأنف الخاصة كان ممكناً التحقق من انه بالنسبة لهذا الانسان لم يكن شيء ما مقدساً ، وبامكانه كذلك ان يكذب مثلما كذب ، في تلك المرة ، موكداً انه لم يلتق به قط وهكذا ، فان كوفاليوف أوشك أن يأمر الحوذي بالرحيل الى المديرية ، حتى خطرت على باله ، ثانية ، فكرة ان هذا النصّاب النذل ، الذي تصرف

في اللقاء الأول بمثل ذلك الاسلوب المنعدم الضمير ، فانه يمكنه هنا أيضاً الخروج ، منتهزاً الفرصة ، والانسلال بشكل ما من المدينة ، ـ وآنذاك فان كافة البحوث اما انها ستكون عقيمة لا جدوى فيها ، أو انها يمكن أن تستمر ، والعياذ بالله ، شهراً كاملا وأخيراً ، بدا كما لو ان السماء ذاتها قد هدته وبصّرته فقد قرر الانطلاق رأساً الى مكتب الارسال الصحفي ، لينشر هناك في الجرائد اعلانا بوصف مفصل ، كي يستطيع كل من يلتقيه في تلك الدقيقة ايقافه ، أو على الأقل التعريف بمكان إقامته وهكذا أبلغ الحوذي ، وقد اعتزم هذا الأمر فعلا بالارتحال الى مكتب الارسال الصحفي ، ولم يكف هو عن لزّ الحوذي ، طوال الطريق ، بجمع يده مدمدماً «اسرع ، ايها الوغد ! أسرع أيها النصاب ! » ـ « ايه ، ايها السيد ! » ـ كان الحوذ ي يردّ ، هازاً رأسه ، وسائطا بسوطه فرسه ، التي كان شعرها طويلاً مثلما لدى كلبة البولونكا وأخيرا توقفت عربة الركوب الخفيفة ، وهرع كوفاليوف ، لاهثا الى غرفة استقبال ليست بالكبيرة حيث اتخذ مكانه الى المنضدة موظف أشيب ، في فراك عتيق ونظارات ،

ممسكاً بالقلم باسنانه ، وهو يعد النقود النحاسية التي استلمها من أحدهم

ـ من يتسلـّم هنا الأعلانات؟ ـ هتف كوفاليوف ، ـ عفوا ، مرحباً !

ـ احتراماتي ، ـ قال الموظف الأشيب ، رافعاً لدقيقة عينيه ، وهابطاً بهما من جديد على اكوام النقود الموضوعة على المنضدة

ـ أريد أن أنشر شيئاً

ـ تفضلوا . أرجو الجلوس قليلا ، ـ نطق الموظف ، مثبتاً باحدى يديه رقماً على الورقة ، ومحركاً بأصابع يده اليسرى زر ّين على المعداد وكان الخادم في زيـّه ذي الأشرطة المقصّبة الزاهية الدالة على وجوده في بيت ارستقراطي قد وقف بجوار المنضدة ، مع مذكرة في يديه ، وقد ارتأى مناسباً اظهار دماثة خلقه وحلاوة معشره « صدقني ، ياصاحبي ، ان الكلب لا يسوى ثمانين كوبكا ، اي انني ما كنت أعطي حتى ثمانى كوبكات ، اما الكونتيسة فتحبه ، أقسم بالله ، تحبّ، ـ وهكذا فلمن يلقى هذه الكلبة مائة روبل ! واذا تحدثنا حسب اللياقة والعرف الجاري لقلنا ان أذواق الناس لا تتفق البتـّة : فحين تكون صياداً ، فانذاك اقتن كلب

صيد او بودل ، لا تبخل بخمسمائة أعط ألفاً ، ولكن على ان يكون هذا بالمقابل كلباً جيداً »

واستمع الموظّف الوقور الى ذلك بسيمياء معبّرة ، واشتغل في ذات الوقت بالمقايسة يعدّ عدد الحروف في الورقة التي أُتي بها وفي جوانب الغرفة وقفت كثرة من العجائز ، وخدم وناظرون للتجار ، وبوابون ، بالاوراق والمذكرات وفي احدى هذه الاوراق ، كان اعلان يقول ذووه انهم يقدمون للعمل حوذياً ذا سلوك وقور ، وتحدث اعلان آخر عن عربة استعملت وقتاً قصيراً ، أُتي بها عام ١٨١٤ من باريس ويعلن اعلان ثالث عن خادمة في التاسعة عشر دُرّبت في قضايا الغسل ، وهي مؤهّلة للأعمال الاخرى أيضاً ، وكذلك ثمة اعلانات عن عربة نقل خفيفة متينة بدون زانبرك واحد ، وعن فرس شابة وثاّبة في بقع رمادية تبلغ السابعة عشر وعن بذور فجل ولفت جديدة مجتلبة من لندن ، وعن بيت صيفي بكافة مرفقاته اسطبلاّن للخيل ، ومكان يمكن ان تقام فيه حديقة رائعة لاشجار البتولا او الشوح وهناك ايضاً كان نداء لمن يرغب في شراء نعال عتيقة ، مع دعوة بالحضور الى مزاد البيع النهائي كل يوم من الثامنة حتى الثالثة صباحاً . وكانت الغرفة التي احتشد فيها كل هذا

الجمع صغيرة ، وجوّها خانقاً للغاية ، غير ان الماجور كوفاليوف لم يستطع أن يشمّ الرائحة ، ذلك لأنه قد ستر وجهه بمنديل ، ولأن أنفه نفسه كان في مكان ما لا يعرفه سوى الله

— سيدي الكريم ، اسمح لنا بسؤالك انه ليلزمني جداً ، — قال هو ، أخيراً بنفاد صبر

— الآن ! الآن ! روبلان وثلاثة كوبكات ! في هذه الدقيقة ! روبل وأربع وستين كوبكا ! — قال السيد الاشيب الشعر ، رامياً الى العجائز والبوّابين بالمذكرات ، — ما يلزمكم ؟ — قال اخيراً ، مخاطباً كوفاليوف

— أرجوك ، ... — قال كوفاليوف ، — وقع نصب أو غش واحتيال ، أنا حتى الآن لا أستطيع أن أعرف بحال فقط ألتمس أن تنشروا ، ان ذلك الذي يعثر لي على هذا الحقير ، يتسلّم مكافأة سخية

— أتسمحون لي بأن أعرف ما هو اسمكم ؟

— كلا ، علامَ الاسم ؟ لا أستطيع الأفضاء به . ان لديّ الكثير من المعارف تشيختيريوفا زوجة المشاور المدني ، و بيلاغيا غريغوريفنا بودتوجينا ، زوجة الضابط الاقدم كيف اذا عرفوا فجأة ، والعياذ

بالله! تستطيعون ان تكتبوا مساعد المستشار او الافضل: الموجود في منصب ماجور

– وهل كان الفارّ بوابك ؟

– أي بواب ؟ لو كان الامر هكذا ، اذن لما كانت عملية نصب كبيرة جداً ! لقد فر مني الأنف

– هم ! أي اسم غريب ! وكل هذا المبلغ الكبير سرقه السيد الانف منك ؟

– الأنف ! – اي إنك لا تفكر كما ينبغي ! انه أنفي ، أنفي الخاص ، قد هوى في مكان ما غير معروف لقد أراد الشيطان ان يهزل معي !

– ولكن بأي شكل هوى ؟ أنا لا أستطيع أن أفهم جيداً

– أنا لا أستطيع أن أقول لك ولكن الأمر الأساسي انه يرتحل الآن في المدينة ويسمي نفسه مشاورا مدنيا ولذلك فاني أرجوك ان تعلن ، ان على من يمسكه أن يقدمه لي دون ابطاء احكموا ، في واقع الأمر ، كيف لي ان أكون من دون هذا العضو البارز من أعضاء الجسم ؟ ان هذا ليس باصبع ما ، خنصر في القدم – استطيع اخفاءه في الحذاء الطويل – فلا يلحظ

أحد وجوده. أغشى في أيام الخميس بيت زوجة المشاور المدني تشيختيريوفا وبيت الضابط الاقدم بودتوجينا بيلاغيا غريغوريفنا ولديها فتاة لطيفة جداً ، وكذلك معارف طيبون آخرون ايضاً واحكموا بانفسكم كيف سيكون حالي الآن فان المجيء اليهم أضحى الآن أمراً غير ممكن

وتأمل الموظف برهة الامر الذي عنته الشفتان المزمومتان باحكام

ـ كلا لا أستطيع أن أنشر مثل هذا الاعلان في الجرائد ! ـ قال هو أخيراً بعد صمت طويل

ـ كيف ، لماذا ؟

ـ ببساطة يمكن للجريدة هكذا ان تفقد سمعتها اذا بدأ كل واحد بالكتابة ان أنفه هرب فانه بل من دون هذا كله يقول الناس ان الجرائد تنشر الكثير من السخافات والاشاعات الكاذبة

ـ أي سخف في هذه القضية ؟ انه ليبدو انه لا يوجد شيء من هذا القبيل هنا

ـ ان هذا ليبدو لك فقط ، انه لا يوجد ولكن هاك الواقعة التي حدثت في الاسبوع الماضي جاءنا موظف بمثل هذا الشكل كما جئت الآن وأتى

بمذكرة كانت قيمة نشر الاعلان الذي جاء فيها روبلان و ٧٣ كوبك وانحصر الاعلان كله ، في انه قد هرب كلب بودل اسود ويبدو أي شيء غريب هنا ؟ ولكن ظهر طعن يقول ان هذا الكلب كان خازناً لا أتذكر لأية مؤسسة

ـــ ولكني لا اقدم اعلاناً عن كلب ما ، بل عن أنفي الخاص واذن ، فهذا تقريباً ، كما لو كان عن نفسي

ـــ كلا ، لن أستطيع بحال إدراج مثل هذا الاعلان

ـــ حتى في الوقت الذي يضيع فيه أنفي بالضبط !

ـــ لو كان ضاع ، فان هذه قضية الطبيب يقال انه يوجد الآن أناس يستطيعون أن يركّبوا أيما أنف غير اني الاحظ ، على أية حال ، انكم ينبغي ان تكونوا انساناً ذا مزاج مرح ، وتحبّون أن تهزلوا في المجتمع

ـــ اقسم لك بالله ، أن لا شي ء من هذا القبيل ، واني صادق ! لعله ، ما دام ان الأمر قد بلغ هذا الحدّ ، فاني سأريك

ـــ لماذا القلق ! ـــ واصل الموظف الكلام ، متنشقا سعوطه . ـــ على أية حال ، ان لم يكن في الأمر

مضايقة ـ أضاف هو بحركة فضول وحبّ استطلاع ـ فاني لأود أن ألقي نظرة

ونزع الماجور المنديل عن وجهه

ـ في الواقع ، غريب جداً ! ـ قال الموظف ، ـ المكان ناعم تماماً ، كما لو انه فطيرة وقد أُعدت لتوها أجل انه مستوٍ بشكل خارق

ـ طيب ، أستناقش بعد هذا ؟ انكم ترون بنفسكم ، انه لا يمكن عدم النشر سأكون ممتناً منكم جداً ، واني لمسرور للغاية أن هذه الحادثة قد أتاحت لي متعة التعرف بكم ... ـ وواضح من هذا ، ان الماجور اعتزم في هذه المرة ان يرتكب بعض الحطّة في سلوكه

ـ ان النشر بحد ذاته ، قضية ليست بالكبيرة ، طبعاً ، ـ قال الموظف ؛ ـ فقط اني لا أرى في هذا أية جدوى لك فاذا رغبت ، فكلّف مَن يتمتع بريشة فنية مرهفة ، ليصف هذه الواقعة كأثر نادر للطبيعة ، ولتنشر هذه المُقيلة في « نحلة الشمال » (وتنشّق هنا سعوطه مرة اخرى) ، وذلك لاجل مصلحة الشبيبة (ومسح هنا أنفه) او هكذا لاجل الفضول العام

فقد مساعد المستشار أمله تماماً وهبط بنظره

الى أسفل الجريدة ، حيث كان نبأ عن المسرحيات ؛ وكان وجهه مستعداً للابتسام اذ التقت عينه باسم ممثلة جميلة ، وأقبل يبحث في جيبه ، أفلا توجد فيه ورقة مالية زرقاء ذلك لأن الماجورات ، وفقاً لرأي كوفاليوف ينبغي ان يجلسوا في الكراسي الامامية ، ـ لكن التفكير بالأنف أتلف كل شيء !

وبدا ، كما لو ان الموظف ذاته كان متأثراً بوضع كوفاليوف الصعب ورأى من المناسب رغبةً منه في التهوين من حزنه ولو الى حدّ ما فقال « انه ليؤسفني جداً في الواقع انه قد وقعت لك مثل هذه الواقعة الغريبة أفلا ترغب في تنشّق السعوط ؟ ان هذا يقضي على أوجاع الرأس والهموم والاحزان ، بل انه ناجح حتى بالنسبة للبواسير » واذ فاه الموظف بهذا ، قدم الى كوفاليوف مسعطه ، فاتحاً بمنتهى اللباقة الغطاء الذي كان يحمل صورة فتاة تعتمر قبعة

وأخرج هذا التصرف غير المقصود كوفاليوف من طوره « انني لا أفهم كيف تجدون مكاناً للهزل ، ـ قال هو بغضب . ـ أفحقاً لا ترون انه لا يوجد لديّ بالذات ما استطيع التنشّق به ؟ ليت الشيطان يمحق نشوقك ! انا الآن لا أستطيع النظر اليه ،

وليس فقط الى تبغك الرخيص التافه ، ولكن حتى لو قدّمت اليّ افخر نوع فرنسي من صنف « رابيه ! » واذ قال هذا ، خرج بالغ الحزن من مكتب الارسال الصحفي ، وانطلق الى رئيس ادارة البوليس في الحيّ ، المولع للغاية بالسكر وكانت غرفة الاستقبال في بيته ، وهي غرفة الطعام ايضاً ، مفعمةً بقوالب السكر ، التي كان التجار يقدمونها اليه بدافع الصداقة وكانت الطباخة قد نزعت في هذا الوقت عن سيدها الاحذية الطويلة ، والشيش وكافة التحف الحربية كانت معلقة في الزوايا ، وكانت هناك القبعة المثلثة الرهيبة التي صار يدركها ابنه البالغ الثالثة من العمر ، وقد استعدّ هو ، بعد حياته القتالية العسكرية ، لاقتطاف متع الحياة السلمية

دخل كوفاليوف اليه في الوقت الذي تمطى فيه ، وهتف قائلاً « ايه فلأنم هنيئاً ساعتين ! » ولذلك كان يمكن التنبّؤ ان مجيء الماجور كان تماماً في غير وقته ولا أعرف ، انه حتى لو نفحه في هذا الوقت ببضعة أرطال من الشاي ، او الجوخ ، فانه ما كان ليستقبله ببالغ الارتياح وكان رئيس قسم البوليس في الحيّ مشجعاً كبيراً لكافة الفنون والصنائع ، ولكنه كان يفضّل الاوراق المالية الحكومية على كل

شيء «ان هذا الشيء ، — كان يقول هو عادة ، — لا يوجد شيء افضل منه: فانه لا يسألك أكلا، ويُشغل مكاناً صغيراً ، ويجد لنفسه مكاناً دائماً في الجيب ، وان أسقطته — فلا ينكسر »

واستقبل هذا الرئيس كوفاليوف بمنتهى الجفاف ، وقال انه بعد الغداء ليس بالوقت الذي يُجرى فيه التحقيق ، وان الطبيعة ذاتها قد خصّصت هذا الوقت من اجل الاستراحة البسيطة بعد تناول طعام الغداء (ومن هذا فهم الماجور ان رئيس قسم البوليس في الحيّ لم يَفته سماع أحاديث الحكماء القدماء) ، وانه لدى الانسان المستقيم لا يُقطع الأنف ، وان في الكون كثيرين من صنوف الذين يحملون رتبة الماجور ، الذين ليس لديهم حتى ألبسة داخلية جيدة ويتسكعون في كافة الاماكن غير اللائقة وهكذا فقد أصاب قلب الهدف ! وينبغي ملاحظة ان كوفاليوف كان انساناً سريع التأثر والزعل وكان يستطيع ان يغفر كل شيء مما يقولونه عنه شخصياً ، لكنه لم يكن ليغفر بحال اذا مسّ الأمر الوظيفة أو اللقب بل انه كان يعتقد انه يمكن السماح ، في التمثيليات المسرحية ، بكل شيء يتعلق برئيسي البوليس ، ولكن على الضباط الاقدم لا

ينبغي الهجوم بحال من الاحوال وقد أخجلته وحيّرته مقابلته لرئيس قسم البوليس في الحي ، لدرجة انه هز رأسه وقال بشعور من يعتزّ بكرامته ، رافعا يديه بعض الشيء «اني لأعترف ، انني لا استطيع ، بعد مثل هذه الملاحظات المهينة من جانبكم أن أضيف شيئا ... » — وخرج

وصل بيته وهو بالكاد يحس الارض تحت قدميه وكان الغسق قد بسط لواءه ولاحت له الشقة ، بعد كافة هذه البحوث عديمة الجدوى حزينة او بالغة التفاهة واذ دخل غرفة الاستقبال رأى على الديوان الجلدي الملوّث خادمه ايفان ، الذي كان يبصق في السقف راقداً على ظهره ، وكان بصاقه يقع في مكان واحد بالضبط وقد أثارت ثائرته لامبالاة هذا الانسان ، فصفعه بقبعته على جبهته ، متمتما «انك أيها الخنزير تنشغل دائماً بالسفاسف !

فوثب ايفان من مكانه في الحال ، وانقض انقضاضاً ينزع عن الماجور ممطره

دخل الماجور غرفته تعباً وحزيناً ، وارتمى على الكرسي ذي المساند ، وبعد بضع تنهدات ، قال

— يا الهي ! ياالهي ! لِمَ هذه التعاسة ! لوكنت

قد فقدت احدى يديّ أو قدمي ــ لكان الحال أفضل ! لو كنت بلا اذنين ــ لكان الحال سيئا ، ولكنه سيطاق ، لكن انساناً بلا أنف ... ــ الشيطان وحده يعرف هذا فلا هو بالطير طائراً ، ولا هو بالانسان انسان ؛ ببساطة خذه وارمه وراء الشباك ! حتى لو كنت في الحرب قد قطعت انفي ، أو في مبارزة ، أو أنا نفسي كنت السبب لكنه سقط هباء سقط سدى ! فقط كلا لا يمكن ان يكون ، ــ أضاف هو ، مفكراً بعض الشيء . ــ ان من الصعب ان يكون الأنف قد ضاع ، فان هذا أمر بعيد الاحتمال ، بأي شكل لعله حلم طاف لي ، او خُيل الي فقط ، أو لربما أنا ، بصورة ما ، شربت خطأ ، بدلاً من الماء فودكا تلك التي أرش بها ذقني بعد الحلاقة ان ايفان أحمق ، لم يتناولها ، وانا شربتها » . ــ ولاجل التأكد من انه ليس سكراناً ، في الواقع ، فان الماجور قرص نفسه بشكل بالغ الايلام ، بحيث انه صرخ نفسه وقد أقنعه هذا الألم تماماً انه يعمل ويعيش في اليقظة واقترب بهدوء من المرآة وضيّق عينيه ، في البداية ، بفكرة انه لعل الانف سيظهر في مكانه ، ولكنه ارتدّ متقهقراً ، قائلا : « أي منظر قبيح ! »

لقد كان هذا غير مفهوم على وجه الدقة فلو سقط زرّ ، او ملعقة فضية ، أو ساعة أو شيء ما يماثل ذلك ولكن ان يضيع شيء – ولدى مَن ؟ والى ذلك في الشقة الخاصة ! وكان الماجور كوفاليوف ، آخذاً بعين الاعتبار كافة الظروف ، قد افترض شيئا ما يكاد يكون أقرب الامور الى الحقيقة ، ان المذنب في ذلك ينبغي ان لا يكون غير زوجة الضابط الاقدم بودتوتشينا ، التي كانت ترغب في ان يتزوج هو من ابنتها وهو نفسه أيضاً كان يحب ان يغازلها ، ولكنه تجنب الحلّ النهائى وحين أعلنت له زوجة الضابط الاقدم بصراحة انها تريد ان تزوجها منه ، فانه تملص بخفة تحت ستار من عبارات المديح والمجاملة قائلاً ، انه لا يزال شابا ، وان عليه ان يخدم خمسة أعوام ، كي يبلغ الثانية والاربعين تماماً ولذلك فان زوجة الضابط الاقدم قررت ، ولعل ذلك لغرض الانتقام ، ان تشوّهه واستأجرت لذلك بعضاً من النساء السواحر ، وذلك لأنه لم يكن ممكناً الافتراض بكل صورة بأن الأنف كان قد قُطع اذ لم يدخل أحد اليه في الغرفة ؛ كما ان الحلاق ايفان ياكوفليفيتش قد حلق ذقنه في الاربعاء وكان الأنف سليماً طوال الاربعاء وطوال الخميس ، – كان

يتذكر هذا ويعرفه حقّ المعرفة ، زد على ذلك ، انه كان سيحس بالالم ، كما ان الجرح ، دون شك ، ما كان ليلتئم بهذه السرعة ويكون مستوياً املس مثل زلالية الفطيرة. ورسم الخطط في ذهنه أيستحق الامر استدعاء زوجة الضابط الاقدم الى المحكمة ، بصورة رسمية ، ام الاكتفاء بمجرد الذهاب اليها وفضحها وقطعت تأملاته بالنور المتسرب عبر ثقوب الابواب ، الذي دلّ ان ايفان قد أشعل الشمعة في غرفة الاستقبال وسرعان ما ظهر ايفان نفسه ، حاملاً الشمعة أمامه ، ومنيراً الغرفة كلها على نحو ألق وكانت أول حركة قام بها كوفاليوف هي اختطاف المنديل ، وستر ذلك المكان ، حيث كان الأنف بالأمس ، كيلا يذهل الخادم الغبي ، فعلا ، وهويطالع بعينه في سيده مثل هذه البشاعة .

وما أفلح ايفان في الخروج الى غرفته حتى سُمع في غرفة الاستقبال صوت غير معهود ، يسأل « أهنا يعيش الماجور كوفاليوف ؟ »

— ادخلوا ان الماجور كوفاليوف هنا — قال كوفاليوف ، واثباً على عجل ، وفاتحاً الباب

ودخل رجل بوليس جميل المظهر بفودين ليسا أبيضين تماماً ولا بالأسودين ، وبخدين غاية في

الامتلاء ، وهو ذاك الشخص نفسه ، الذي كان يقف ، في بداية القصة ، في نهاية جسر ايساكيفسكي

ــ هل سمحتم بفقدان أنفكم ؟

ــ هكذا بالضبط

ــ لقد عـُثر عليه الآن

ــ عجباً ، ماذا تقولون ؟ــ صرخ الماجور كوفاليوف لقد اشلّ الفرح لديه لسانه ونظر مليّاً الى رجل بوليس المنطقة الواقف أمامه والى شفتيه وخديه الممتلئين اللذين ومضا على نحو ألق في ضوء الشمعة المرتعش . ــ كيف ، بأي صورة ؟

ــ واقعة غريبة لقد أمسكوا به في عرض الطريق ، تقريباً وكان قد جلس في عربة ركاب كبيرة وأراد الارتحال الى ريغا كان جواز سفره مكتوبا منذ زمن باسم أحد الموظفين ومن الغريب انني نفسي اعتبرته سيداً ولكن لحسن الحظ كانت معي نظاراتي ، ورأيت في الحال ان هذا كان هو الأنف وذلك لأني قصير النظر ، وان وقفتم أمامي ، فاني سأرى فقط ان لديكم وجهاً فقط ولكني لن ألاحظ لا أنفاً ولا لحية ولا أيما شيء ان حماتي اي ام زوجتي ، لا ترى شيئاً كذلك

وخرج كوفاليوف عن طوره

– أين هو ؟ أين ؟ ساهرع الآن

– لا تقلقوا لقد جلبته معي ، عارفاً انه يلزمكم

وغريب ان المساهم الرئيسي في هذه القضية كان هو الحلاق ، النصّاب من شارع فوزنيسينسكي ، الذي يجلس الآن في موقف البوليس لقد كنت أشكّ فيه منذ زمن بالسكر والسرقة ، زد على ذلك انه ليومه الثالث يختطف صفا كاملا من الازار من أحد الحوانيت. ان أنفكم هو بالضبط ، كما كان وعند ذلك دسّ رجل البوليس يده في جيبه وأخرج من هناك الأنف ملفوفاً في ورقة

– انه هو ! – هتف كوفاليوف ، – هو بالضبط! تناولوا معي اليوم قدحاً من الشاي

– اعدّ هذا مسرّة كبيرة لي ولكني لا أستطيع بحال فانه ليلزمني العروج على بيتي المسعور... لقد عمّ الغلاء الفاحش كافة الارزاق ان لدي في البيت تعيش حماتي ، أي أم زوجتي ، والاطفال خصوصاً وان اكبرهم يعد بآمال عراض انه صبي في غاية الذكاء ، ولكن لا يوجد لديّ مال للأنفاق على تعليمه .

وحزر كوفاليوف ما يلمح اليه ، واختطف من المنضدة ورقة مالية حمراء دسّها في يد الناظر ، الذي قدم شكره الجزيل وخالص احتراماته ، انحنى مودعاً وخرج من الباب وفي تلك الدقيقة بالذات سمع كوفاليوف صوته في الشارع ، حيث ناول أحد القرويين الاغبياء ضربة في أسنانه ، فقد كان هذا قد ارتحل في عربته للنقل في المنتزه العام بالذات

وبقي الماجور بضع دقائق ، بعد خروج رجل البوليس ، في حالة يصعب تحديدها ، عاد وبالكاد بعد عدة دقائق ، الى امكانية الرؤية والتحسّس فقد قادته الفرحة غير المتوقّعة الى مثل حالة فقدان الوعي هذا وتناول الانف المعثور عليه ، بحرص ، بكلتا يديه ، المعقودتين في قبضة ونظر اليه مرة اخرى باهتمام

« انه هو ، هو بالضبط ! — قال الماجور كوفاليوف . — ها هي البثرة على الجانب الأيسر ، التي نتأت في يوم الأمس » وكاد الماجور ان يضحك من فرط سروره

بيد انه لا يوجد في الكون شيء طويل الأمد ولذلك فان السرور في الدقيقة التالية لم يعد كبيراً ،

مثلما كان في الاولى ، اما في الدقيقة الثالثة فقد باتت أضعف ، والتحم ، في النهاية ، بالوضع العادي للروح ، كما هو الحال في الماء ، حين تلتحم الدائرة التي يولّدها وقوع الحجر ، في النهاية بالسطح المستوي . وابتدأ كوفاليوف يتأمل وتنبّه ، الى ان القضية لم تنته بعد فالانف قد تمّ العثور عليه ، ولكن ينبغي تركيبه ، ووضعه في مكانه الطبيعي

« ولكن ماذا لو لم يلتئم ؟ »

ولدن مثل هذا السؤال ، الذي طرحه الماجور على نفسه ، شحب وجهه

واندفع الى المنضدة بشعور من الرعب غير المفهوم سببه ، وحرّك المرآة ، كيلا يلتحم الأنف بصورة عوجاء كانت يداه ترتجفان ووضعه في المكان السابق بحذر وتبصّر اوه ، أي رعب ! فالانف لم يلتئم ! فرفعه الى فمه ، ودفأه شيئا بأنفاسه ، وحمله ثانية الى حيث المكان الناعم الاملس ، الموجود بين كلا الخدّين ، ولكن الأنف لم يتماسك بحال من الاحوال

« حسناً هيا ! ثِبْ ، ايها الاحمق ! » — قال هو له . لكن الأنف كان كأنه قطعة من الخشب ،

ووقع على المنضدة بصوت غريب للغاية كما لو انه سداد من الفلّين وصعّر الماجور وجهه بتشنج « أفحقاً لا يلتحم ؟ » ـ قال هو في رعب ولكن مهما كان عدد المراّت التي رفعه هو فيها الى حيث مكانه الطبيعي الخاص ، كانت المحاولات تظلّ دون جدوى ، كما في السابق

ونادى ايفان وأرسله الى الطبيب ، الذي كان يشغل شقّة ممتازة في الطابق الأول في ذات البيت وكان هذا الدكتور رجل طلعة ، وكان لديه فودان بلون الراتينج رائعان ، وزوجة معافاة ، وكان يأكل عند الصباح تفاحاً طازجاً ، ويحتفظ بفمه في نظافة خارقة ، مغرغراً اياه كل صبح حوالي ثلاثة أرباع الساعة ومسلكاً الاسنان بخمسة صنوف من فرش الاسنان وجاء الدكتور في تلك الدقيقة بالذات وبعد ان سأل كم مر من الوقت على وقوع المصيبة ، ورفع الماجور كوفاليوف من ذقنه ووجّه اليه نقرَة بابهامه ، في ذلك المكان نفسه ، حيث كان الأنف ، نقرةً كانت من الشدة بحيث انه كان على الماجور ان يلقي رأسه الى الوراء بقوة بحيث ان قفاه اصطدم بالحائط وقال الطبيب ، ان هذا لا شيء ، واذ نصحه بالابتعاد بعض الشيء عن

الحائط ، أوصاه بان يثني رأسه في البداية الى اليمين ، ومتحسّسا ذلك المكان حيث كان الأنف نطق « هِمْ ! » ، ثم أوصاه بان يثني رأسه الى اليسار ونطق ثانية « هِمْ ! » وفي الختام وجّه اليه ، كرّة اخرى ، نقرة كانت من القوة ، بحيث ان الماجور هزّ رأسه مثل حصان ، ينظرون في أسنانه وهزّ الطبيب رأسه ، بعد ان قام بهذه التجربة ، وقال

— كلا ، غير ممكن انه لأفضل ان تبقى هكذا ذلك لأنه من الممكن ان يحدث لك ما هو أسوأ بالطبع ، يمكن تركيبه يمكنني ان اركبه لكم في الحال ، ولكني اؤكد لكم ان هذا أسوأ بالنسبة لكم .

— يا للعجب ! كيف لي أن أبقى دون أنف ؟ — قال كوفاليوف — لا يمكن ان يكون الحال أسوأ مما هو حاصل الآن ليس سوى الشيطان يعرف هذا ! أين يمكنني الظهور بمثل هذه الشناعة ؟ ان لديّ معارف طيبين ها أنا اليوم ملزم بان أكون في المساء في بيتين أنا أعرف الكثيرين تشيختيريوفا زوجة المشاور المدني ، وبودتوتشينا ، زوجة الضابط الاقدم التي لم تبق لي علاقة معها مؤخرا ، ولله الحمد الا بواسطة

البوليس تلطّفوا ، اعملوا معروفاً ، ـ نطق كوفاليوف بصوت متوسل ، ـ أفلا توجد وسيلة ؟ ركّبوه بأيما طريقة ولو بصورة غير جيدة ، ممكن شيء واحد ـ دعه يتماسك ، بل مستعد حتى لأن أمسكه بيدي في المناسبات الخطرة وبالمناسبة فاني لا أرقص ، كي أوذيه بشكل ما بحركة غير حذرة ان كل شيء يتعلق بأثابتكم عن الزيارة ، كونوا على ثقة ، اني سأدفع بكل ما ملكت يميني

ـ أتصدقون ، ـ قال الدكتور بصوت غير عال وغير واطئ ، وانما بصوت جذّاب لطيف للغاية ، ـ اني لا أعالج مرضاي قطّ بدافع المصلحة ان هذا ليناقض قواعدي وأسلوبي في العمل والحياة . صحيح ، اني اقبض عن الزيارات ، وذلك لا لشيء الا كيلا أغيظ المريض برفضي بالطبع كنت ركّبت أنفكم ، ولكني أؤكد لكم بشرفي ، ان لم تؤمنوا بكلمتي هذه ، فان ذلك سيكون اسوأ بكثير الأفضل ان تتركوا الطبيعة ذاتها تعمل بنفسها ، امنحوها الفرصة للعمل ، اغسلوا غالباً بماء بارد ، واؤكد لكم انكم بدون أنف ستكونون معافون كما لو كنتم تمتلكونه اما بخصوص الأنف فاني أنصحكم بأن تضعوه في زجاجة بالاسبرتو ، او الافضل

ان تصبّوا هناك ملعقتين كبيرتين من الفودكا القوية والخلّ المسخن ــ وآنذاك تستطيعون ان تتسلّموا لقاءه نقوداً وافرة بل اني نفسي سآخذه ، شرط ان لا تبهظوا السعر

ــ كلا ، كلا ! لا أبيعه مهما كان الثمن ! ــ هتف الماجور كوفاليوف يائسا ، ــ الافضل من هذا أن يضيع !

ــ سامحوني ! ــ قال الدكتور منحنياً . ــ أردت أن أصنع معروفاً لكم ما العمل ! على الاقل ، تحققتم بنفسكم من مجهودي

واذ فاه الدكتور بهذا ، خرج من الغرفة بسيماء الشهامة تعمر وجهه ولم يلاحظ كوفاليوف حتى وجهه وفي غمرة انعدام الاحساس لديه ، لم ير سوى كميّ قميصه النظيف الابيض الناصع ، كالثلج ، وقد نتأ من فراكه الأسود

واعتزم في اليوم التالي ان يقوم بمجهود قبل ان يقدم شكواه على زوجة الضابط الاقدم ، وذلك بان يكتب لها ، ألا توافق هي ان تعيد له دون نزاع ، ما ينبغي وكانت الرسالة بالمضمون التالي

السيدة الكريمة

الكساندرا غريغوريفنا !

اني لا أستطيع ان أفهم التصرّف الغريب من جانبكم كونوا واثقين انكم ، بتصرّفكم بهذا الشكل ، لن تربحوا شيئاً ، ولن تلزموني مثقال ذرة بالزواج من ابنتكم صدقوا ان حكاية أنفي معلومة لديّ تماماً ، مثلما أعرف ايضاً انكما المشاركان الرئيسيان في هذا ، وليس أي شخص آخر ما عداكما ان انفصاله الفجائي عن مكانه وفراره واختفاءه تارة بشكل موظف ، وتارة وأخيراً بشكله الطبيعي الخاص ، لايعدو أن يكون نتيجة سحر وشعوذة ، قمتم بها نفسكم أو أولئك الذين يشتغلون في أعمال نبيلة ، مثلكم اني لأحسب واجباً ، من جانبي ، أن أنذركم بانه ان لم يلتحم الأنف الذي ذكرته في مكانه الطبيعي ، اليوم ، فسأكون مضطراً الى الالتجاء الى الدفاع والى حماية القانون

وتقبلوا ، مع هذا ، كل احترامي

لكم ، ولي الشرف ان أبقى

خادمكم المطيع

بلاتون كوفاليوف

سيدي الكريم

بلاتون كوزميتش !

لقد أدهشتني جداً رسالتكم أعترف لكم بصراحة، انني لم انتظر قط ، وخصوصاً بشأن ملامتكم غير العادلة من جانبكم أعلمكم ان الموظف الذي تذكرونه لم أستقبله قطّ في بيتي لا مختفياً بشكل ما ، ولا بشكله الحقيقي. حقاً، كان لديّ فيليب ايفانوفيتش بوتانتشيكوف. وبالرغم من انه ، على وجه التحديد ، طلب يد ابنتي ، وهو المعروف بسلوكه الطيب ، الرضي وعقله الراجح وغزارة معارفه ، الا اني لم أمنحه أيما أمل وتذكرون أيضاً عن الأنف فاذا كنتم تعنون بذلك انني أردت أن أخدعكم ، اي اعطاءكم رفضاً شكلياً ، فانه ليذهلني انكم نفسكم تقولون ذلك ، في حين كنت انا ، كما هو معلوم لديكم ، صاحبة رأي مناقض تماماً لذلك ، واذا كنتم الآن تخطبون ابنتي بالشكل القانوني فاني لمستعدة لأن أرضيكم بالايجاب ، ذلك لأن هذا كان يشكل على الدوام منتهى رغبتي ، الذي أبقى ، بأمله ، في خدمتكم وتحت تصرفكم

الكساندرا بودتوتشينا

« كلا – قال كوفاليوف وقد قرأ الرسالة – انها على وجه الدقة ليست مذنبة لا يمكن ان يكون هذا ! ان الرسالة مكتوبة بشكل ، لا يمكن أن يكتبها به انسان مذنب في الجريمة » وكان مساعد المستشار يعرف ذلك جيداً ذلك لانه قد أرسل عدة مرات للتحقيق منذ كان في مقاطعة القفقاس « تُرى ، بأي صورة حدث هذا ؟ ليس الا الشيطان وحده يفهم ذلك ! » – قال هو أخيراً ، باسطاً يديه

وفي اثناء ذلك كانت الاشاعات عن هذه الواقعة الخارقة قد انتشرت في كل أرجاء العاصمة ، وكالعادة ، ليس من دون زيادات خاصة فآنذاك كانت عقول الجميع موجّهة بالذات الى الخارق فقبل وقت قصير ، ليس الا ، هيمنت على المدينة تجارب التنويم المغناطيسي. والى ذلك فان حكاية الكراسى الراقصة في شارع كونيوشينايا كانت لا تزال طريئة، ولذلك فلا غرو انه سرعان ما عُقدت الحكايات التي تقول بأن الأنف انف مساعد المستشار كوفاليوف ، كان يتجول في الساعة الثالثة بالضبط في شارع نيفسكي وكان يتجمع الكثير من الفضوليين كل يوم وقال أحدهم كما لو ان

الانف يوجد في مخزن فاجتمع حول هذا المخزن حشد هائل وكان زحام شديد بحيث اضطر البوليس للتدخّل وأقام أحد المضاربين بمظاهر الاحترام ، بفودين بارزين ، والذي كان يبيع لدى المدخل الى المسرح فطائر جافة بالسكر ، أقام ، خصيصاً ، دكاكا خشبيّة متينة دعا إليها الفضوليين ، متسلماً ٨٠ كوبيك عن كل زائر وخرج عقيد في الجيش ممتاز ، خصيصاً لاجل ذلك ، مبكراً من بيته ، وشقّ طريقه بصعوبة وسط الحشد ولكنه ، لسخطه البالغ ، رأى في نافذة المخزن ، بدلاً من الأنف بلوزاً صوفياً اعتيادياً ولوحة مطبوعة تصور فتاة ترتق جورباً ، وغندوراً بلحية غير كبيرة ، وصديريّ مفتوح شيئاً ، يتطلع إليها من تحت شجرة – لوحة ظلت لاكثر من عشرة أعوام معلّقة في مكان واحد فابتعد وقال بأسف « كيف يمكن لمثل هذه الاشاعات السخيفة ، والمخالفة للواقع ان تضلّل الشعب ؟ » – وسرت بعد ذلك اشاعة تقول بأنه لا في شارع نيفسكي وإنما في حديقة تافريجيسكي يتجول أنف الماجور كوفاليوف ، وكما لو انه يقيم منذ أمد بعيد هناك ، وانه حين عاش هناك الامير الفارسي حضرت ميرزا فانه عجب جداً لهذه

اللعبة الغريبة للطبيعة وتوجه بعض طلبة الاكاديمية الجراحية الى هنالك وطلبت سيدة محترمة مرموقة في رسالة خاصة الى ناظر الحديقة أن يُري لأولادها هذه الظاهرة النادرة ، واذا امكن مع الشرح الوعظي الأرشادي للفتيان .

وبكل هذه الوقائع سُرّ للغاية كافة زوار حفلات الاستقبال المدنيين اللاغنى عنهم الذين كانوا يحبون أن يسلّوا السيدات بالنوادر ، التي نفذ احتياطيها تماماً في ذلك الوقت لديهم وكان شطر غير كبير من الناس المحترمين وذوي النيّة الحسنة ساخطاً جداً وقال أحد السادة باستياء انه لا يفهم كيف تنتشر في مثل هذا القرن المتنور بدع خرقاء كهذه ، وانه يعجب من عدم اكتراث الحكومة بذلك وكما يبدو فان هذا السيد كان ينتسب الى عداد اولئك السادة ، الذين كانوا يريدون توريط الحكومة في كل شيء ، حتى في النقاشات اليومية مع الزوجة وتتلفّع الواقعة كلها بالضباب ، من جديد ، في اثر ذلك ، وليس من المعلوم قطعاً ما الذي حصل بعد ذلك

— ٣ —

إن سخافات عديدة تحدث في الكون وأحياناً تحدث اشياء لا تطابق الواقع بحال من الاحوال :

ففجأة تكشّف ذلك الأنف نفسه الذي ارتحل بشكل مستشار مدني وأثار كثيراً من الضجيج في المدينة ، تكشّف من جديد في مكانه الطبيعي ، أي بالذات ما بين خدّي الماجور كوفاليوف حدث هذا في سابع من ابريل فمستيقظاً ، وناظراً صدفة في المرآة ، يرى هو الأنف ! ويأخذه بيديه – انه الانف بالضبط! « اهه ! » – قال كوفاليوف ومن فرط سروره كاد يرقص حافياً في الغرفة رقصة الدبكة ، غير ان ايفان ، الخارج من غرفته ، أعاق دون ذلك وأمر بان يعدّ له الحمّام في الحال ، واذ اغتسل نظر لمرّة أخرى الى نفسه في المرآة الانف ! وكرة اخرى نظر في المرآة ، وقد نشف جسده الانف !

– انظر يا ايفان ، يبدو ان على انفي شئيا كأنه البثرة – قالها وفكر في ذات الاثناء « إنها الكارثة ، إنْ قال ايفان كلا ، ايها السيد ، هذه ليست ببثرة ، وانما الأنف غير موجود»

غير ان ايفان قال

– لا شيء ، لا توجد أيما بثرة أنف سليم !

« حسناً ، فليأخذك الشيطان ! » – قال الماجور لنفسه ، وفقّع أصابعه وفي هذا الوقت كان ينظر في

الباب الحلاق ايفان ياكوفليفتش، ولكن بخوف القطة المضروبة التي التقمت لتوها شحماً

ــ قل أولا أيداك نظيفتان ؟ ــ هتف به كوفاليوف ، وهو لا زال بعيداً

ــ نظيفتان .

ــ تكذب !

ــ اقسم بالله ــ نظيفتان ، يا ايها السيد

ــ حسناً ، احذر .

جلس كوفاليوف ولفّه ايفان يا كوفليفتش بالفوطة ، وفي لحظة واحدة ، وبفضل الفرشة دهن لحيته وشطراً من خده بصابون ، من ذلك الذي يقدّم في أعياد ميلاد التجّار «أترى أنت ! ــ قال ايفان يا كوفليفتش لنفسه ، ناظراً الى الانف ، وأدار بعدئذ الرأس الى الجهة الاخرى ، ونظر اليه من جانب ــ ها هو ! عجباً، من أين جاء ! ما الذي يمكن عمله بعد كل هذا ! » ــ استطرد هو ، وظلّ ينظر طويلاً الى الأنف وأخيراً رفع بحرص وخفة من أقصى ما يتصوره المرء ، رفع اصبعين ، من أجل ان يمسك به من نهايته هكذا كانت طريقة ايفان ياكوفليفتش

ــ طيب ، طيب ، احذر ! ــ صرخ كوفاليوف .

واسبل ايفان ياكوفليفتش يديه ، وخجل وارتبك كما لم يرتبك سابقاً وجعل يدغدغ بموساه في النهاية ، تحت الذقن ، وبالرغم من انه لم يكن ذلك مريحاً له ، فمن الصعب الحلاقة هنا دون الامساك بعضو الشمّ ، غير انه ، وقد استند ، بشكل من الاشكال باصبعه الحرشاء الى خده والى اللثة السفلى ، ذلّل ، أخيراً ، كافة الصعوبات ، وأتم حلقه

وحين تمّ كل هذا ، عجّل كوفاليوف بارتداء ملابسه في الحال ، واستأجر حوذيا ، ارتحل مباشرة الى محل الحلويات وإذ دخل ، صرخ بالصبيّ ، وهو لا يزال بعيدا «فنجانا من الشوكولاته !» اما هو فنظر في تلك الدقيقة بالذات الى المرآة يوجد أنف والتفت بجذل الى الوراء ، ونظر بصورة هجائية انتقادية ، مضيقاً من عينيه ، الى العسكريّين اللذين كان أنف أحدهما لا يزيد في الحجم على زرّ صديريّ وتوجه بعد ذلك الى مكاتب تلك الادارة ، حيث كان قد جاهد من اجل الظفر بمنصب نائب محافظ ، أو في حالة الفشل بوظيفة ناظر في المديرية ونظر الى المرآة ، إذ اجتاز غرفة الاستقبال الحمد لله الانف موجود وارتحل بعدئذ الى مساعد مستشار يماثله في الرتبة او

ماجور آخر ، منكّت كبير ، كان يقول له ، بمثابة جواب وتعليق على الملاحظات المشاكسة المختلفة «حسناً ، انا اعرفك ، انك خبيث ! وفي الطريق فكر هو «إذا لم ينفجر الماجور من الضحك عن ما يراني ، فانذاك تكون هذه علامة حقّة على ان كل ما هو موجود في وجهي يستقرّ في مكانه الطبيعي» غير ان الماجور لم يلاحظ شيئاً «حسناً حسناً ، فليأخذه الشيطان !» ـ فكر كوفاليوف في سرّه والتقى هو في الطريق بزوجة الضابط الاقدم بودتوتشينا سوية مع ابنتها ، فحيّاهما وقوبل بهتافات جذلة ، اذن لا شيء ، لا يوجد أي عيب لديه لقد تحدث معهما طويلاً جداً ، واستخرج المسعط عمداً ، وحشى كلا منخريه بالنشوق فترة طويلة من الزمن بمحضرهما متمتماً مع نفسه «ها انكن ، جميعاً على هذا الشكل ، ايتها النساء ، يا عقل الدجاج ! اما ابنتك فلن أتزوجها ، مهما كان الحال ! هكذا ببساطة مجرد حب ومتعة حب ! ـ على هذا أوافق !» وجعل الماجور كوفاليوف منذ ذلك الوقت يتنزه كما لم يقع ذلك من قبل في شارع نيفسكي ، وفي المسارح ، وفي كل مكان وكذلك الانف ، فانه كما لو لم يكن ذلك قطعاً ،

استقر في وجهه ، دون ان يعطي مظهراً كأنه انفصل عن مكانه يوماً من الايام وبعد ذلك كانوا يرون الماجور كوفاليوف في روح فكاهية طيبة ومعنويات عالية ، مبتسماً ، ملاحقاً محوماً بعناد حول كافة السيدات الحسناوات ، بل حتى توقف امام حانوت في مخزن عام كبير ، واشترى لنفسه شريطاً لوسام ، لا يعرف سبب شرائه له ، لانه نفسه لم يكن حاملاً لوسام ، في يوم من الأيام

هذه هي الواقعة التي حدثت في العاصمة الشمالية لدولتنا الواسعة ! والآن ، فاستنتاجاً من كل شيء ، نرى ان فيها الكثير مما يخالف الواقع ناهيك عن القول انه لا يمكن ان يكون الانفصال البالغ الغرابة ، الفوق طبيعي للأنف وظهوره في اماكن مختلفة بشكل مشاور مدني ـ كما انه كيف لم يدرك كوفاليوف انه لا يمكن ان يكون هذا الامر مستحقاً للنشر عن طريق مكتب الارسال الصحفي ؟ إنني هنا لا أتحدث بمعنى انه قد لاح لي غالياً جداً الدفع عن هذا الاعلان فهذا هراء ، وأنا لست قطعاً من عداد اولئك الناس الطماعين ولكن هذا غير لائق غير منطقي ، غير حسن ! ومع ذلك ، اعني كيف ظهر الأنف في

الخبز المخبوز، وكيف استطاع ايفان ياكوفليفتش نفسه ؟.. كلا انني لا استطيع أن أفهم هذا بحال قطعاً لا أفهمه ! ولكن ما هو أشد غرابة من كل شيء ، وما لا يفهم تماماً — هو كيف استطاع المؤلفون اختيار امثال هذه الموضوعات؟ واعترف، ان هذا هو أمر تماماً غير مدرك ، ان هذا بالضبط كلا ، كلا ، لا أفهم ذلك قطعاً فأولا ، ليست هناك قطعاً أيّما فائدة للوطن من ذلك ، وثانيا وثانيا ايضاً لا توجد فائدة انني لا أعرف ، ما هذا

ولكن على أية حال فمع كل هذا الذي حكيناه ولو انه يمكن بالطبع افتراض هذا الامر ، وامراً آخر ، وامراً ثالث ، بل وحتى يمكن ولكن قل لي أين لا تحدث الحماقات والسخافات ؟ — ولكن مع ذلك ، فاذا تأملت الأمر ، وجدت انه في كل هذا يوجد شيء ما فمهما قال هذا او ذاك هذا الشيء او ذاك فانه لتظّل الوقائع المماثلة لهذا تقع في الكون نادراً ولكن تقع

عام ١٨٣٦

العربة

كانت بلدة ب قد غدت في غاية المرح ، حين رابط فيها فوج الخيالة اما قبل ذلك الوقت فكانت مُضجِرة جداً فكنت حين تمر بها وانت مرتحل ، وتنظر الى بيوت الطين الواطئة ، التي تطلّ على الشارع بشكل غاية في الكآبة فان من المستحيل التعبير عما يجيش في قلبك إذ ذاك تغطّ في الحزن كما لو انك خسرت ، او اقترفت دونما سبب حماقةً ما و بكلمة واحدة وضع سيىء لقد تساقط عنها الطين من المطر واستحالت الجدران من بيضاء الى بقعاء ، وأغلب السقوف مغطاة بالقصب ، كما هو الحال ، عادة في مدننا الجنوبية ، اما الحدائق ، فلتوفير منظر أفضل فان حاكم البلدة أمر ، منذ

زمن طويل ، باقتطاعها ولا تصادف في الشوارع أيما شخص ، اللهم ما عدا الديك يسير على الرصيف ، المريح ، مثل مخدة ، من كثرة التراب الذي قد صار ثخنه فتراً ، والذي يستحيل عن أصغر وابل للمطر الى وحل وقذارة وآنذاك فان شوارع مدينة ب تمتلىء بتلك الحيوانات البدينة التي يسميها حاكم البلدة المحلي بالفرنسيات . إنها تطلع أبوازاً كئيبة من مغاطها ، وترفع صوتاً كالقباع ، بحيث لا يجد المار المرتحل معدى من استحثاث خيله للجري أسرع ومع ذلك ، فانه لمن الصعب عليك ان تلتقي ماراً غريباً في مدينة ب . فمن النادر ، من النادر جدا ان يكون ملاّك ما ، لديه ١١ فلاحا ، في سترة من القطن الرخيص يرتحل في الطريق في عربة هي للركوب وللحمل مطلاً من بين اكياس الطحين ويسوط فرسه الكميت التي يجري مهرها في اثرها ولساحة السوق منظر حزين بعض الشيء فهناك يطلّ بيت الخياط على نحو غاية في الغباء وليس بكامل واجهته ، وإنما بزاويته وقباله تُبنى ، منذ ١٥ عاما بناية ما حجرية تُشاد بنافذتين وأبعد من ذلك يقف مستقلاً سياج من الالواح الخشبية مصبوغ بصبغة رمادية

تشبه لون الوحل ، وهو الذي كان قد أقامه حاكم المدينة ، على نسق البنايات الاخرى ، في شبابه حين لم تستحكم فيه بعد عادة النوم فوراً بعد الغداء وشرب منقوع نباتات طبية مخلوط بثمار عنب الثعلب الجافة في الليل وفي الاماكن الاخرى كان كل شيء تقريبا كالوشيعة ، ففي وسط الساحة كانت أصغر الحوانيت ، وفيها كان يمكن على الدوام ملاحظة حزما من الكعك الحلقيّ الشكل ، وامرأة في منديل أحمر وبضعة أرطال من الصابون ، وارطال من اللوز المرّ وخردق الاسلحة النارية ، ونوعاً من النسيج القطني السميك وناظرين للتجار ، يلعبان طوال الوقت قرب الابواب لعبة سفايكا ولكن ما إن بدأ فوج الخيالة المرابطة في مدينة ب حتى كان كل شيء قد تغير فقد تلونت الشوارع ، وتبعثت حياتها ، وبكلمة ، فانها اكتسبت شكلاً آخر وغالباً ما كانت البيوت الواطئة ترى الضابط الفارع ، الرشيق يمر بجنبها وعلى رأسه قبعة محلاة بالريش ماضياً إلى احد رفقائه ليتحدث معه بخصوص الترقية وحول نوع من التبغ الرائع وأحياناً لتحديد من سيفلح باستعمال عربة الركوب الخفيفة ، التي كان ممكناً تسميتها بالفوجية ، وذلك

لأنها كانت تفلح في سد رغبات الجميع دون ان تخرج من الفوج ، فاليوم يقلهـّا الماجور وغداً تظهر في اسطبل الملازم ، وبعد اسبوع ترى خادم الماجور يدهنها بالشحم من جديد وكان السياج الخشبي بين البيوت قد زُرع كله بسدائر الجنود معلقة تحت الشمس اما المعطف العسكري الاغبر فكان ينتأ بارزاً ، حتماً في مكان ما على الابواب وفي الأزقة كان الجنود يظهرون بشواربهم العاتية ، مثل فرش الاحذية وكانت هذه تُرى في كافة الأمكنة فما إن تجتمع حفنة النساء ضيقات الافق سوية مع اباريقهن حتى طالعتك الشوارب ، حتماً من وراء اكتافهن وفي مكان بارز كان جندي ذو شوارب قد صوبن لحية قروي أخرق ما كان الا يتأوّه ويئن محملقاً بعينيه إلى فوق وقد احيى الضباط المجتمع ، الذي كان يتألـّف حتى هذا الوقت ، من قاضٍ يعيش في بيت واحد مع شماسة ما ، وحاكم البلدة الانسان الحصيف ولكن الغاطّ في النوم طوال اليوم من الغداء حتى المساء ومن المساء حتى الغداء وكان المجتمع قد أصبح حاشداً وظريفا حين تحول الى هنا بيت جنرال الفرقة . فجعل الملاّكون

المجاورون ، الذين لم يفطن الى وجودهم أحد ، يرتحلون غالباً الى المدينة ، ليلتقوا بالسادة الضباط ، واحياناً للعب الورق الذي بالكاد يجد لنفسه صورة واضحة في رؤوسهم الحاشدة بمشاغل البذار والزراعة ، وتوصيات الزوجات وصيد الأرانب وإني لآسف جداً اني لا استطيع أن اتذكر السبب الذي دعا جنرال الفرقة لأن يقيم مأدبة كبيرة ، كانت الاستعدادات لاجلها ضخمة إذ كان قرع السكاكين في مطبخ الجنرال يُسمع حتى بالقرب من نقطة حرس المدينة وكان السوق بأكمله قد أُخِذ لاجل الوليمة وهكذا فقد كان على القاضي وشمّاسته ان يكتفي فقط بأكل أرغفة خبز الحنطة السوداء وسحلب النشا وامتلأ الحوش غير الكبير لبيت الجنرال ، بكامله ، بالعربات والمركبات الخفيفة كان المجتمع المدعوّ يتألف من حيث الرجال — من الضباط وبعض الملاكين المجاورين وكان أبرز الملاكين هو بيفاغور بيفاغوروفيتش تشيرتوكوتسكي ، احد الارستقراطيّين الرئيسيين في مدينة ب ، واكثر الجميع ضجيجاً في الانتخابات ، والقادم الى هنالك بمركبة أنيقة وكان قد خدم سابقاً في أحد أفواج الخيّالة ، وكان واحداً من عداد الضباط

البارزين والمهمين فعلى الأقل كان يـرى في كثير من حفلات الرقص والاجتماعات حيث كان يتنقل فوجهم ، وعلى أية حال فعن ذلك يمكن ان نسأل لدى بنات مقاطعتي تامبوفسكايا وسيمبيرسكايا وانه ليمكن جداً ، انه كان سيختار لنفسه مجداً مؤثلا في المقاطعات الاخرى ، لو لم يتقاعد لسبب واحد، يدعى عادة بواقعة غير مسرّة وعلى الأرجح فاني لا أتذكر أصفع هو أحداً ام انه هو نفسه قد تلقىّ الصفعة في زمن بعيد ، كل ما في الأمر انه قد طلب منه ان يتقاعد وعلى أية حال، فانه إطلاقاً لم يحطّ من قدره بذلك فقد كان يحمل الفراك مع خصر عال ، على نسق السترة العسكرية ، والمهاميز على حذائه الطويل ، والشوارب تحت أنفه ذلك لأنه من دون هذا كان يمكن للنبلاء أن يعتقدوا انه قد خدم في سلاح المشاة الذي كان يسميه احياناً هو ، باحتقار ، « على الأقدام » ، واحياناً « المشّائين » وكان يظهر في كافة الأسواق الدورية الغاصة بالناس ، في قلب روسيا ، تلك الاسواق التي كانت تتألف من الامهات ، والاولاد ، والبنات ، والملاكين البدينين الذين كانوا يرتحلون للمرح في المركبات الخفيفة ذات الاغطية المفتوحة ، والمركبات الخفيفة ذات العجلتين

وعربات الطرق البعيدة ذات العجلات الاربع ، وبتلك العربات الفخمة ، التي لم تطف لأحد حتى في الأحلام لقد كان يشمّ الامكنة ، حيث كان يرابط فوج الخيالة ، وكان يرتحل دائماً ليلتقي بالسادة الضباط وبشكل جد حاذق كان يثب أمامهم من عربته أو مركبته الخفيفة المفتوحة ويعقد أواصر التعارف والصداقة ، على نحو غاية في السرعة وقد أقام في الانتخابات السابقة وليمة مطمهة للنبلاء ، أعلن لهم فيها ، انهم اذا ما انتخبوه رئيساً ، فانه سيضعهم في خير مكانهم ، ويحمي ذمارهم وعلى العموم كان يتصرّف كالاسياد ، كما جرى العرف عادة في الحديث ، في الاقضية والمقاطعات ، وتزوّج من حسناء ، تلقّى عنها مائتي انسان وبضعة آلاف كرأسمال . وقد استثمر هذا الرأسمال في الحال ، فاشترى ستة احصنة فاخرة جداً حقاً ، وأقفالا مذهبة للابواب ، وقرداً بيتياً ، ورئيس خدم فرنسياً ورهن المائتي شخص سوية مع المائتين ممن كان يملكهم هو من اجل بعض المبادلات التجارية وبكلمة ، كان هو ملاّكاً كما ينبغي ملاّكاً ممتازاً ، نموذجياً . ــ وفيما عداه ، كان في وليمة الجنرال عدة ملاّكين آخرين ، ولكننا

لا نجد داعياً للحديث عنهم اما الباقون فكانوا كلهم عسكريين من الفوج ذاته ، وضابطين أقدمين عقيد وماجور بالغ البدانة وكان الجنرال نفسه قوي البنية ، مكتنزاً ، ورئيساً طيباً كما كان الضباط يصفونه وكان يتكلم بصوت أجشّ ، غاية في الرصانة كانت الوليمة باذخة ، وحوت كل نوع : فقد كانت هناك اللحوم المتبّلة ، وسمك الحفش الكبير والصغير ، وطير الحبارى ، وخضرة الهليون وطير السمانى ، الحجل والفطر الأمر الذي اثبت ان الطباخ لم يتناول ، منذ الامس ، حساءاً حاراً ، كما ان أربعة من الجنود قد عملوا والسكاكين بأيديهم لمساعدته طوال الليل معدين قطع اللحم المغلي والمقلي ، ومحلّى الجيليه . وكانت وفرة القناني الطويلة بخمر العنب الاحمر ، والقصيرة بنبيذ الماديرا واليوم الصيفي الرائع والنوافذ المفتوحة ، والآنية بالثلج على المنضدة ، والزر الأخير المفتوح لدى السادة الضباط ، وصدور القمصان المفتوحة لدى لابسي الفراك المريح الرحب والحديث الذى يقاطع بعضه بعضاً ، والذي يطغى عليه صوت الجنرال والشمبانيا المراقة ــ كان كل هذا يجيب بعضه البعض الآخر ونهض الجميع بعد الغداء بثقل لذيذ

في اجوافهم ، مدخّنين الغلايين ذات الشبوق ، ومضوا بأقداح القهوة في الأيدي إلى الطنف.

كانت الستر الرسمية لدى الجنرال ، والعقيد ، وحتى الماجور مفتوحة ، تماماً ، بحيث انه كانت تُرى ، بعض الشيء ، حمالات البنطلون الحريرية الفاخرة ، غير ان السادة الضباط ، عند مجيئهم لم يفتحوا ازرار ستراتهم بما في ذلك الازرار الثلاثة الأخيرة حفاظاً على الاحترام اللازم

ـ الآن يمكن ان نراها ، ـ قال الجنرال ، ـ من فضلك أيها العزيز ، ـ نطق بهذا مخاطباً ياوره ، الشاب الحاذق جدا ، ذا المظهر اللطيف ، ـ أبلغهم ، أن يأتوا الى هنا بالفرس الكميت ! ها انكم سترون بأنفسكم . ـ وهنا اجتذب الجنرال نَفَساً من غليون ، واطلق الدخان ـ إنها لم تلق بعد عناية كبيرة المدينة لعينة ، لا يوجد اسطبل جيد ان الفرس ، بوف ، بوف ، رائعة جداً

ـ امنذ زمن طويل اقتنيتموها يا صاحب الفخامة ، بوف بوف ؟ ـ قال تشيرتوكوتسكي

ـ بوف ، بوف بوف حسناً . . . بوف ،

ليس منذ زمن بعيد جدا كل ما في الامر عامان منذ ان اخذتها من عزبة تربية الجياد !

– وهل تفضلتم باستلامها مروّضة ام انكم روّضتموها هنا ؟

– بوف ، بوف ، بو ، بو ، بو أو أو ف ، هنا ، واختفى الجنرال ، إذ قال هذا ، كلية في الدخان

وفي هذه الاثناء قفز جندي الاسطبل ، وسمع وطء السنابك ، وأخيراً ظهر شخص آخر في رداء واسع بسيط ، أبيض ، ذو شاربين أسودين ضخمين ، قائداً باللجام ، فرساً مرتعبة ، مرتجفة ، كادت ان ترفع الى الاعلى ، برفعها رأسها فجأة ، جندياً كان قد قعد القرفصاء على الارض ، سوية مع شاربيه « حسناً ، حسناً ! يا آغرافينا ايفانوفنا ! » – قال هو ، وهو يقتادها الى الطنف

كانت الفرس تسمّى آغرافينا ايفانوفنا ، قوية وغير أنيسة ، مثل حسناء جنوبية ، ودقّت بحوافرها في ارضية الطنف الخشبية ، وتوقفت فجأة

وطفق الجنرال ، الذي اسدل يده وبها غليون ، ينظر بمظهر المرتاح الى آغرافينا ايفانوفنا . والعقيد

نفسه ، هابطاً من الطنف ، آخذا بآغرافينا ايفانوفنا من بوزها   اما الماجور ذاته فجعل يربّت على قدمها ، واما الآخرون فجعلوا يطقطقون بألسنتهم

هبط تشيرتوكوتسكي من الطنف ، وأتاها من الخلف   اما الجندي ، فقد نظر ، منتصباً وممسكاً باللجام ، نظر الى الزوار في عيونهم مباشرة ، لكأنه أراد ان يقفز فيها

— رائعة ، رائعة جداً ! — قال تشيرتوكوتسكي . — فرس رشيقة ! هل تسمحون ، فخامتكم ، بمعرفة كيفية سيرها ؟

— إن سيرها جيد ، — فقط الشيطان يعرفه   إن هذا الطبيب البيطري الأحمق أعطاها بعضاً من المساحيق بصفة دواء ، وها هى تعطس طوال يومين

— رائعة ، رائعة جداً   ولكن هل لديكم ، يا صاحب الفخامة ، مركبة مناسبة ؟

— مركبة   إن هذه فرس ركوب

— أعرف ذلك   ولكني سألت فخامتكم كي أعرف   أتوجد لديكم مركبة مناسبة للأفراس الاخرى !

— ليست مركباتنا بالوافرة جداً   ينبغي أن أعترف

لكم ، بالقول انني أودّ منذ أمد طويل ان امتلك عربة عصرية وقد كتبت بذلك الى أخي الذي هو الآن في بطرسبورغ ، ولا أعلم أسيرسل لي ذلك أم لا

ـ يبدو لي ، يا صاحب الفخامة ، ـ لاحظ العقيد ، ـ ليست هناك عربة افضل من العربة المصنوعة في فيناّ

ـ حقاً ما ترون بوف ، بوف ، بوف

ـ إن لدي ، صاحب الفخامة ، عربة رائعة جداً ، من صنع فينّا الأصيل

ـ أيّها ؟ أهي تلك التي ارتحلتم فيها ؟

ـ اوه ، لا هذه مجرد عربة تنقل ، خصيصاً لرحلاتي ، لكن تلك انها عجيبة ، خفيفة مثل ريشة ، ولكن حين تجلس فيها ، فانك تشعر ، ببساطة ، اذا أذنتم لي يا صاحب الفخامة بالقول تشعر كما لو ان المربية تهزّك في المهد !

ـ ينتج من هذا ، اذن ، انها هادئة ؟

ـ جداً هادئة جداً مخدات ، زنبرك كل هذا موجود كما لو انه مرسوم في لوحة

ـ هذا جيد

ـ لكن ، ما اعظم رحابتها ! انها ، يعني ،

يا صاحب الفخامة ، لم أر عربة مثل هذه حين خدمت ، فانه كان لديّ في الصناديق عشر قناني روم ، وعشرون رطلاً من التبغ ، وفضلاً عن ذلك كان معي ست سترات رسمية تقريباً وألبسة داخلية وشبوقان ، طويلان جداً ، يا صاحب الفخامة ، بحيث انها اذا أذنتم لي بالتعبير مثل الدودة الوحيدة ، اما في جيوبها وطيّاتها فيمكن إدخال ثور كامل

— هذا جيد

— لقد دفعت يا صاحب الفخامة ، أربعة آلاف ثمناً لها

— قياساً على الثمن ، ينبغي ان تكون جيدة ، وهل ابتعتموها أنتم بنفسكم ؟

— كلا ، يا صاحب الفخامة ، لقد حصلت عليها صدفة فقد اشتراها صديقي ، انسان رائع ، رفيق طفولتي انسان كنتم ستنسجمون معه تماماً ؛ وحالي معه سيان ما له وما لي لقد ربحتها لديه في لعب الورق أفلا ترغبون يا صاحب الفخامة ، ان تمنحوني شرف التفضّل لدي غداً ، للغداء ، وسوية مع ذلك سترون العربة

— لا أدري ، ما اقوله لكم لقاء هذا . بالنسبة

لي نوعا ما اللهم اذا سمحتم لي سوية مع السادة الضباط

– والسادة الضباط ألتمسهم بخضوع أيها السادة ، أعتبر شرفاً كبيراً لي بان أراكم في بيتي !

فشكره العقيد والماجور والضباط الآخرون بانحناءة عرفان وتقدير

– انني ، يا صاحب الفخامة ، أؤمن بذلك الرأي إن اشتريت شيئا ، فينبغي ان يكون جيداً ، اما إذا كان رديئا فلا يستحق الاقتناء . ها إني سأريكم ، حين ستمنحونى شرف التفضّل لدي في الغد ، بعض البدعات التي كنت قد ادخلتها على امور الاقتصاد والتدبير

وتطلع الجنرال ، واطلق الدخان من فمه

وكان تشيرتوكوتسكي في غاية الارتياح لكونه دعا إلى طرفه السادة الضباط ، وحجز في ذهنه ، مقدماً ، معاجين اللحم والصلصات ، ونظر بشكل مرح جداً إلى السادة الضباط ، الذين ضاعفوا له بدورهم ، كذلك ، من جميل عطفهم ، وهو ما كان ملحوظاً ، واضحاً في عيونهم ، وفي حركات الانحناء القصيرة . وأطلق

تشيرتوكوتسكي لنفسه العنان ، وارتخى جسمه ، فتحرّر لسانه ، وتعبير صوته ، المستقل بالسرور

– هناك ستتعرفون ، يا صاحب الفخامة ، بربـّة البيت

– إنه ليسرّني جداً ، – قال الجنرال ، ماسحاً شاربيه

وأراد تشيرتوكوتسكي ، بعد هذا ، التوجـّه فوراً إلى البيت ، ليهيء كل شيء ، في الوقت المناسب ، لاستقبال الضيوف في مأدبة الغد ، وكاد ان يأخذ قبعته في يديه ، ولكن حدث شيء غريب نوعاً ما ؛ فقد تلكأ قليلاً وفي هذه الأثناء كانت قد صفـّت في الغرفة موائد الورق الخضراء وسرعان ما انقسم الجمع كله الى مجموعات رباعية للعب « الويست » وتناثروا في الزوايا المختلفة لغرف الجنرال

وجلبت الشموع ولم يقرر تشيرتوكوتسكي ، وقتاً طويلاً ، أعليه الجلوس ام عدم الجلوس للعب الورق ولكن ما إن بدأ السادة الضباط بالدعوة ، حتى لاح له ان الرفض لاينسجم بحال هنا ، مع قواعد العرف وآداب المجتمع وجلس فتكشف امامه ، دون ان يلاحظ هو قدح بخمر البونش الذى شربه

ساهياً في الحال وبعد ان لعب دورتين ، وجد طوع يديه قدحاً آخر بالبونش الذي شربه ساهياً كذلك بعد ان قال « لقد آن الأوان لي أيها السادة ، ان امضي إلى البيت ، حقاً آن الأوان » ولكنه جلس من جديد ليلعب الدور الثاني وفي اثناء ذلك كان الحديث في مختلف زوايا الغرفة قد اكتسب طابعاً خصوصياً تماما كان لاعبو الورق صموتين ، لكن غير اللاعبين ، الجالسين على الأرائك ، جانباً ، كانوا يتجاذبون أطراف حديثهم وفي إحدى الزوايا كان النقيب الركن ، الذى وضع مخدة تحت جنبه ، وغليوناً في شفتيه ، يتحدث بمنتهى الحرية والذلاقة عن وقائعه الغرامية ، وقد استأثر كلية بانتباه الجماعة التي تحلّقت حوله وكان أحد الملاّكين البالغ البدانة ، ذو اليدين القصيرتين ، اللتين تشابهان ، بعض الشيء ، بطاطتين ناميتين ، كان يستمع بسيمياء المغتبط جداً ، وليس إلا بين وقت وآخر كان يحاول ان يطلق يده القصيرة وراء ظهره العريض ، من أجل ان ينتشل مسعطه من هناك وفي زاوية اخرى انعقد نقاش حامٍ جداً حول مناورات الكتائب ، وتدخّل تشيرتوكوتسكي ، الذي رمى مرتين في هذا الوقت ، ورقة « ولد » بدلاً من

ورقة « الملكة » ، تدخّل فجأة في حديث الآخرين ، وصرخ من زاويته « في أيّ عام؟ » أو « أي فوج؟» دون ان يلاحظ ، ان السؤال لا يمتّ بصلة الى الحديث ، أحياناً وأخيراً ، وقبل العشاء ببضع دقائق ، توقف لعب الورق ، ولكنه استمر بالكلمات أيضاً وبدا كما لو ان رؤوس الجميع مملوءة بلعب الورق وتذكر تشيرتوكوتسكي جيداً ، انه قد ربح الكثير ولكنه لم يأخذ بيديه أيما شيء ، وإن نهض من المنضدة ، وقف طويلا بهيئة إنسان ، ليس لديه منديل أنف في جيبه وفي اثناء ذلك قدموا طعام العشاء وإنه لمفهوم طبعاً انه لم يكن في الخمر نقص ، وان تشيرتوكوتسكي كان عليه أحياناً ، ان يريق الخمر في قدحه عفو ارادته تقريباً ، وذلك لأن القناني كانت عن يمينه وعن يساره

وامتدّ الحديث ازاء مائدة العشاء طويلاً غير انه كان على أية حال يجري بشيء من الغرابة وقد حكى أحد الملاكين الذي اشترك في حملة عام ١٨١٢ حكى قصة معركة لم تقع ابدا ولسبب غير مفهوم تماماً ، أخذ بعد ذلك غطاء الدورق الزجاجي وغرزه في احدى الفطائر وبكلمة ، فحين ابتدأوا بالتفرّق مرتحلين ، فان الساعة كانت الثالثة

صباحاً ، وكان على الحوذيّة تناول بعض الشخصيات بالاحضان مثل رزم المشتريات ، وبالرغم من ارستقراطيته فان تشيرتوكوتسكي ، انحنى ، جالساً في العربة ، انحناءة كبيرة جداً ، وأحنى رأسه الى الارض بذلك القدر ، بحيث انه وصل البيت وقد جلب في شاربيه زهرتي راعي حمام

وفي البيت كان كل شيء قد رقد ، اما الحوذي فبالكاد استطاع العثور على الخادم ، الذي قاد السيد عبر غرفة الاستقبال ، وسلمه الى الوصيفة ، التي سار تشيرتوكوتسكي وراءها حتى بلغ بغرفة نومه ، واضطجع بجانب زوجته الشابة الجميلة ، التي كانت نائمة بأروع شكل ، في ثوب نوم ناصع البياض ، كالثلج ويقظتها الحركة التي نجمت بسبب وقوع زوجها على الفراش. وفتحت ، متمططة ورافعة رموش عينيها ثم مضيّقة عينيها ثلاث مرات بسرعة ، فتحت عينيها بابتسامة شبه غاضبة ، ولكنها إذ رأت انه لا يريد جازماً ان يقوم في هذه المرة بأية مداعبة ، انقلبت ، من الاسى الى الجانب الآخر ، وسرعان ما غفت بعده ، واضعة خدها على يدها

كان ذلك الوقت ، الذي لا يسمى في القرى مبكراً ، حين استيقظت السيدة الشابة بجنب الزوج الذي كان غاطاً في شخيره لقد أشفقت هي عليه فلم تُرد إيقاظه ، متذكرة انه قد عاد بالأمس الى البيت في الساعة الرابعة صباحاً ، ولبست خفّي المنام ، اللذين أوصى هو لها عليهما من بطرسبورغ ، ومضت الى غرفة الثياب والمغسل ، وهي في بلوز ابيض يلتصق عليها متموجاً مثل ماء الشلال المسكاب واغتسلت بماء نضر مثل نضارتها وإن تطلعت إلى نفسها مرتين ، رأت انها رائعة اليوم إن هذا الظرف غير الهام ، هو الذي أرغمها ، فيما يبدو ، على المكوث امام المرآة ساعتين أخريين. وأخيراً ارتدت هي افخر حللها ، ومضت الىِ الحديقة للتنشط والانتعاش وكما لو كان الامر عمداً ، فان الجو كان بالغ الروعة ، من مثل ما يمكن لنهار الصيف في الجنوب التباهي به وكانت الشمس ، وقد أشرعت لواء ظهيرتها ، تكوي بأشعتها ، ولكن في طرق الحديقة الوارفة الظلال كان التنزّه منعشاً ، كما ان الزهور ، المدفئة بالشمس ، أدفقت شذاها بقوة ثلاثة أضعاف وقد نست السيدة الجميلة ، تماما ، ان زوجها لا يزال غاطاً في نومه ، فيما بلغت

الساعة الثانية عشرة ظهراً وبلغ مسامعها شخير حوذية العربة النائمين بعد الغداء في الاسطبل الموجود في الحديقة ولكنها ظلّت طوال الوقت جالسة في ممشى الحديقة الوارف الظل والذي كان يطلّ على الطريق العام حتى إذا تطلّعت بذهول إلى اقفار الطريق تماماً من الناس ، كان التراب الذي ثار في البعيد ، على حين غرّة قد استأثر بانتباهها وإذ تفحصت ما طالعته عيناها سرعان ما رأت بضعاً من العربات والمركبات في الامام كانت عربة خفيفة مفتوحة تتسع لاثنين كان يجلس فيها الجنرال بكتفيّاته السميكة المتألقة في ضوء الشمس ، والى جانبه جلس العقيد وأعقبتها اخرى تتسع لأربعة جلس فيها الماجور مع ياور الجنرال وضابطين آخرين جلسا قبالهما ووراء هاتين العربتين كانت المركبة الخفيفة المفتوحة الشهيرة في الفوج كله والتي كانت في هذه المرة تحت تصرّف ماجور بدين ، ووراء هذه المركبة كانت عربة كبيرة نسبياً تتسع لأربعة ، جلس فيها أربعة ضباط ، والخامس على الرُكَب وبعد هذه العربة كان ثلاثة ضباط قد ارتحلوا على ثلاثة أحصنة كميت ذات بقع قاتمة .

« تُرى أكل هؤلاء قصدونا ؟ — طفقت سيدة البيت تفكر . — آه يا إلهي ! في واقع الأمر استدارت العربات الى الجسر ! » فندّت منها صرخة ، وصفقت بيديها ، وجرت عبر أحواض الزهور ، وشجيرات الأوراد مباشرة إلى مخدع زوجها الذي كان يغطّ في نوم عميق ، كأنه الميت

انهض ! انهض ! انهض بسرعة ! — صرخت هي ، وهي تهزّه من يده

— آ ؟ — تمتم هو ، متمطياً ، دون أن يفتح عينيه

— انهض يا حبيبي ! أتسمع ؟ ضيوف !

— ضيوف ، أي ضيوف ؟ — وأطلق قائلاً هذا ، جؤاراً غير كبير ، مما يطلقه العجيل حين يبحث ببوزه عن ضروع أمه . — ام ام — غمغم هو ، — مدّي إليّ رقبتك ، ياحبيبتي ! سأقبلك

— ياروحي ، انهض لخاطر الله ، اسرع إنه الجنرال مع الضباط ! آه يا الهي إن زهرة راعي الحمام في شاربيك

— الجنرال ؟ إذن فهو قد جاء ؟ ما يعني هذا ، سحقاً للشيطان ، لماذا لم يوقظني أحد ! والغداء ، أين الغداء ، أكل شيء جاهز هناك كما ينبغي ؟

ـ أي غداء ؟

ـ أفحقاً لم أوص بذلك ؟

ـ أنت ! إنك جئت في الساعة الرابعة صباحاً ، ومهما سألتك ، فانك لم تُجبني بشيء ولهذا فاني لم اوقظك يا حبيبي ، لأنني إشفقت عليك ، فانك لم تنم . . ـ قالت الكلمتين الأخيرتين بنبرة متكاسلة ، متضرعة .

وفرك تشيرتوكوتسكي عينيه ، ورقد دقيقة على الفراش ، مثل مصعوق بصاعقة وثب اخيراً في قميصه وحده من الفراش ، ناسياً ان هذا غير مقبول بحال من الاحوال

ـ آه ، انني شارد اللب مثل فرس ! ـ قال هو ، صافعاً نفسه في جبينه . ـ لقد دعوتهم الى الغداء ما العمل ؟ أهم بعيدون ؟

ـ لا أدري انهم ينبغي ان يصلوا في هذه الدقيقة

ـ يا روحي . اختفي ! ايه ، مَن هناك ! انت ، ايتها البُنيّة ! امض من هنا ، ممّ تخافين ، ايتها الحمقاء ، سيصل الضباط في هذه الدقيقة فقولي لهم إن ربّ البيت غير موجود ، وقولي لهم انه

لن يكون اليوم أبداً ، وانه قد مضى منذ الصبح ، اتسمعيني ! وأبلغي كافة الخدم بذلك ، عجلي هيا !

وإذ قال هذا ، اختطف روباً على عجل ، وهرع للاختفاء في سقيفة المركبات ، مفترضاً ان الوضع هناك سيكون مأموناً تماماً غير انه رأى واقفاً في زاوية السقيفة ، انه هنا ايضاً يمكن رؤيته بشكل من الاشكال «لكن هنا سيكون أفضل» ــ برقت هذه الفكرة في ذهنه ، وفي دقيقة انزل السلم الذى كان فى العربة الواقفة ، وقفز الى هناك ، وأغلق باب العربة وراءه ، ولاجل المزيد من الأمان أغلق الكوة بالغطاء الجلدي أيضاً ، وسكن تماما ، منحنياً في روبه

وفي هذه الاثناء كانت المركبات قد وصلت إلى الطنف .

وخرج الجنرال ونفض نفسه من وعثاء السفر ووراءه العقيد وهو يصلح من شأن حزمة الريش المنتصبة على قبعته وبعد ذلك قفز من المركبة الخفيفة المفتوحة الماجور البدين ، ممسكاً بالسيف تحت أبطه ثم قفز من العربة الكبيرة ملازمون ثانون نحفاء مع الملازم الذي كان جالساً على الرُكَب ، وأخيراً ترجّل من السرج الضباط المتبخترون على الخيل .

ـ إن ربّ البيت غير موجود ، ـ قال الخادم ، خارجاً من الطنف

ـ كيف غير موجود ؟ لعله اذن سيكون عند الغداء ؟

ـ كلا ـ قطعاً لقد رحلوا لقضاء النهار كله اللهم غداً سيكون حوالي هذا الوقت

ـ يالهْ من مفاجأة ! ـ قال الجنرال ، ـ كيف يكون هذا ؟

ـ الحق يقال إنها لَعَمْلة ، ـ قال العقيد ضاحكاً

ـ كلا ، كيف يمكنه عَمَلُ مثل هذا ؟ ـ استطرد الجنرال ممتعضاً ، ـ تبا للشيطان طيب ، إذا كنت لا تستطيع استقبال أحد ، فلماذا تدعوه ؟

ـ أنا ، يا صاحب الفخامة ، لا أفهم كيف يمكن التصرّف على هذا النحو ، ـ قال ضابط شاب

ـ ماذا ؟ ـ قال الجنرال ، الذي كانت له عادة التفوّه دائماً بأداة الاستفهام هذه ، كلما كلم الضابط الأقدم

ـ لقد قلت ، يا صاحب الفخامة ، كيف يمكن التصرّف بهذا الشكل

ـ طبعاً   ولكن أوَلم يحدث شيء ـ دعنا نستفسر على الأقل ، او لا تسأل

ـ ثم ماذا ، يا صاحب الفخامة ، ليس ثمة خيار ، فلنقفل راجعين ! ـ قال العقيد

ـ طبعاً ، ليس ثمة من وسيلة اخرى   وعلى أية حال ، فان العربة نستطيع ان نراها من دونه   فلعله ، لم يأخذها معه   أي ، من هناك ، تعال ، ايها الاخ ، الى هنا !

ـ بماذا تأمرون ؟

ـ أأنت سائس ؟

ـ سائس ، يا صاحب الفخامة

ـ ارنا العربة الجديدة ، التي اقتناها السيد حديثاً

ـ تفضلوا إلى السقيفة !

وتوجّه الجنرال سوية مع الضباط إلى السقيفة .

ـ اسمحوا لي ان ادفعها بعض الشيء ، المكان هنا مظلم

ـ كفى ، كفى ، طيب !

وطاف الجنرال والضباط بالعربة وتفحصوا جيداً العجلات والزنبرنكات

ـ طيب ، لا شيء هنا يستحق الاعتبار ، ـ قال الجنرال ، ـ العربة عادية تماماً

ـ في غاية الرداءة ، ـ قال العقيد ، ـ لا شيء طيب هنا أبداً

ـ إنه ليبدو لي ، يا صاحب الفخامة ، انها لا تسوى قط أربعة آلاف ـ قال أحد الضباط الشبان

ـ ماذا ؟

ـ أقول يا صاحب الفخامة ، فيما يبدو لي ، انها لا تسوى الأربعة آلاف

ـ أية أربعة آلاف ! إنها لا تسوى ألفين ببساطة ، لا شيء يستحق الاعتبار . اللهم إلا في الداخل ، فربما يوجد شيء هناك من فضلك ، ايها العزيز ، ارفع الجلد

واصطدمت عيون الضباط بتشيرتوكوتسكي ، جالساً في روب ، ومنحنياً بشكل غير اعتيادي

ـ آ ، أنت هنا ! ـ قال الجنرال الذاهل

وإذ قال الجنرال هذا ، صفق الباب ، وألقى الغطاء الجلدي على تشيرتوكوتسكي ، وارتحل راجعاً سوية مع السادة الضباط

عام ١٨٣٦

في مديرية والأفضل ان الا نقول في أية مديرية اذ لا يوجد اغضب من أيما مديرية ، أو فوج ، او ادارة وبكلمة من أيما صنف من مراتب الموظفين فالآن يعتبر كل فرد المجتمع كله مهاناً ، اذا اهين هو نفسه ويقال ، انه ورد قبل زمن ليس بالبعيد تماماً رجاء من نقيب – رئيس شرطة قضاء ، لا اتذكر من أية مدينة ، يعرض فيها بوضوح ان قرارات الدولة تندثر ، وان اسمه المقدس يُذكر ببالغ الاهمال ولاثبات ذلك ألحق برجائه مجلداً ضخماً من مؤلف رومانسيّ النزعة ، يأتي فيه بين كل عشر صفحات وأخرى ذكر النقيب – رئيس شرطة القضاء ، بل ويظهر فيه في بعض الاماكن بمظهر المتمادي بالسكر

وهكذا ، فتجنباً لكل أذى وكريهة ، الافضل ان نسمي المديرية التي يدور عنها الحديث ، « باحدى المديريات » التي كان يعمل فيها « موظف ما » ، موظف لا يمكن القول عنه وسيم فهو قصير القامة ، مجدور بعض الشيء ، أمعر الشعر شيئاً ، بل ومن حيث المظهر ضعيف البصر نوعما بصلعة غير كبيرة في جبهته ، وغضون في كلا جانبي خديه ، ووجه بلون وجه مرضى البواسير ما الحيلة هنا ، فان مناخ بطرسبورغ هو المذنب اما فيما يخصّ الوظيفة (ذلك انه ينبغي لدينا ، قبل كل شيء ، اعلان الوظيفة) فانه كان ، من يُدعى أبداً بالموظف فى الدرجة التاسعة ، من صنف الموظفين الذين سخر منهم ، كفاية ، كما هو معلوم وحط من قدرهم كتّاب مختلفون ، لديهم عادة « حميدة » هي امتطاء مَن لا حول له ولا قوة كان لقب الموظف باشماجكين وواضح من مجرد التطلع الى هذا الاسم ، انه جاء فى وقت من الاوقات من كلمة «باشماك*» ، ولكن متى وكيف كان هذا قد حصل أمر لا يعرف عنه شيء البتة وكان كل من الأب والجد

---

* يعني بالروسية حذاء المترجم .

وحتى السلف ، وكافة آل باشماجكين كانوا كلهم يسيرون في احذية طويلة ، فقط مغيرين نعالها حوالى ثلاث مرات في العام كان اسمه هو آكاكي آكاكيفيتش ولعله يبدو غريباً للقارئ بعض الشيء ، وُجد بعد تنقيب ، ولكن يمكن التأكيد انه لم يُبحث عن هذا الاسم بحال ، وانما بحد ذاتها نشأت تلك الظروف ، التي لم يمكن معها اعطاء اسم آخر ، وان هذا انما جرى على النحو التالي بالذات ولد اكاكي آكاكيفيتش ان لم تخن الذاكرة في ليلة الثالث والعشرين من مارس (آذار) وكانت الام المرحومة ، زوجة الموظف والامرأة الطيبة جدا ، قد سعت ، كما ينبغي ، لتعميد الطفل ، وكانت الام لا تزال راقدة على الفراش مقابل الباب ، وعلى جانبها الأيمن وقف العراب ، الانسان المحترم جداً ، ايفان ايفانوفيتش يروشكين ، رئيس احد الاقسام في مجلس الاعيان والعرابة ، زوجة ضابط بوليس منطقة امرأة من المحسنات القلائل ، آرينا سيميونوفنا بيلوبروشكوفا وُطرح امام الوالدة اختيار اي اسم من الثلاثة اسماء التالية موكيا ، سوسيا ، او تسمية الطفل باسم المعذّب خوزدازات « كلا » ـــ فكرت المرحومة ، ـــ ان كل هذه الاسماء

ليست بالمرضية على كل حال » ولأرضائها فتحوا التقويم الكنسي في مكان آخر فظهرت من جديد ثلاثة اسماء: تريفيلي، دولا وفاراخيسي « ان هذا لعقاب ، — غمغمت العجوز ، — أية أسماء هذه الحق انني لم أسمع قطّ بمثلها . هَبْ ، على الاقل ، لوكان فارادات أو فاروخ ، وهذا أفضل ايضاً من ان يكون تريفيلي او فاراخيسي وقلبوا صفحة اخرى — فظهرت بافسيكاكي وفاختيسي « حسناً ، لقد صرت أرى ، — قالت العجوز ، — ان من الواضح ان هذا هو مصيره ما دام الأمر كذلك ، اذن فالأفضل ان يسمّى باسم أبيه كان الأب يُدعى آكاكي ، فدع الابن يكون كذلك آكاكي . » وعلى هذه الشاكلة صار اسمه آكاكي آكاكيفيتش وعمّدوا الطفل ، وبالمناسبة فانه بكى وصعّر وجهه ، بشكل كما لو أنه استشعر مقدماً بانه سيكون موظفاً في الدرجة التاسعة. وهكذا ، وبمثل هذا الشكل ، جرى كل هذا وقد تطرّقنا الى هذا الأمر ، كي يستطيع القارئ أن يرى بنفسه ان هذا حدث بفعل الضرورة تماماً ، وان اسماً آخر لم يمكن ان يُعط بحال اما متى ، وفي اي وقت انتسب هو إلى المديرية ومن عيّنه ، فان هذا أمر لم يستطع أحد

تذكرّه كم من المدراء وكم من الرؤساء تغيرّوا ، ومع ذلك كان يُرى قابعاً طيلة الوقت في ذلك المكان ذاته ، في ذلك الوضع نفسه ، وفي تلك الوظيفة ذاتها ، اي موظفاً في وظيفة كتابيـة ، وهكذا فانهم جعلوا يؤكدون ، فيما بعد انه ، فيما يبدو ، قد ولد في هذا الكون جاهزاً تماماً ، في سترة رسمية وصلعة على الرأس ولم يحظ هو في المديرية بأيما احترام فالحراس ليس فقط لم ينهضوا عند مقدمه ، بل كانوا حتى لا ينظرون إليه ، كما لو ان ذبابة عادية لا اكثر قد اجتازت غرفة الاستقبال وكان الرؤساء يعاملونه ببرود مستبدّ وكان أي مساعد لرئيس القسم يدس له الأوراق مباشرة تحت أنفه ، وحتى دون ان يقول « استنسخها » ، أو « هناك قضية طيبة ، ممتعة » ، او أن يقول أيّ شيء مسرّ ، كما جرى العرف عادة في الدوائر المهذّبة . وكان هو يتسلّم الأوراق ، مسمراً نظره اليها فقط ، دون ان يجشم نفسه عناء مطالعة من الذي وضعها أمامه ، وهل يملك الحقّ في ذلك كان يأخذها ، ويقبل ، في الحال ، على معالجتها وكان الموظفون الشبان يضحكون ويسخرون منه ، بمقدار ما وهبوا من حس النكتة وقابلية المزاح وكانوا ينهدّون يحكون أمامه

الوقائع المؤلّفة عنه ، وعن ربّة بيته ، العجوز السبعينيّة ، فكانوا يروون انها تضربه ، وكانوا يسألونه متى ستكون وليمة العرس ، وينثرون الأوراق على رأسه ، مسمين ذلك ثلجاً ولكن آكاكي آكاكيفيتش لم يجب عن ذلك ولو بكلمة واحدة كما لو انه لم يكن أمامه أحد ، بل حتى ان ذلك لم يؤثر أدنى تأثير على عمله ففي غمرة كل الازعاجات لم يرتكب هو أيما خطيئة في عمله الكتابي فقط ، حين تكون النكتة غير محتملة إطلاقاً ، او حين كانوا يلزّونه في يده ، معرقلينه في عمله ، فآنذاك فقط ينطق هو « دعوني ، لماذا تسيئون إليّ ؟ » وكان ثمة شيء ما غريب ينحصر في هذه الكلمات ، وفي الصوت الذى كانت تُلفظ فيه ففيه كانت تُسمع نبرة تدعو الى الاشفاق ، بحيث ان أحد الشبان ، ممن عُيّن حديثاً ، وممن كان يسمح لنفسه ، محتذياً حذوَ الآخرين ، بالسخرية منه ، كفّ فجأة ، كأنه مطعون ، ومنذ ذلك الوقت بات وكأن كل شيء تغيّر أمامه ، وجعل يظهر بشكل جديد ان قوة علوية غير طبيعية ، قد فصلته عن رفقائه ، الذين كان قد تعرّف عليهم ، معتبراً إياهم ناساً متمدّنين أسوياء وبعد ذلك بوقت طويل ،

وفي أمرح أوقاته كان يتراءى له الانسان القصير القامة ذو الصلعة في جبهته ، وهو يردّد كلماته الثاقبة « دعوني ، لماذا تسيئون إليّ ؟ » — وفي هذه الكلمات كانت تدوّي كلمات أخرى « أنا أخوك » وكان الشاب المسكين يحجب وجهه بيديه ، وكان في كثير من المرات ، طوال حياته اللاحقة ، قد ارتجف اذ يرى ما اكثر اللاانسانيّ في الانسان ، وما اشدّ الفظاظة الوحشية المختفية لدى المثقفين المتمدنين المهذبين ، ويا الهي ، حتى في ذلك الانسان الذي يدعونه شهماً وشريفاً

ان من الصعب العثور على انسان في ايما مكان ، عاش بذلك الشكل الذي عاش به آكاكي آكاكيفيتش في وظيفته

ان من القليل ان نقول انه كان يخدم بحمية كلا ، بل انه كان يعمل بمحبة لعمله فقد كان يرى في هذا الاستنساخ عالمه اللذيذ ، المتنوع وكانت المتعة تنعكس في وجهه ، وكانت بعض الحروف لديه أثيرة ، فكان اذا بلغها يتغير كلية فكان يضحك ، ويلمز بعينه ، ويساعد بشفتيه بحيث انه بدا من الممكن ان يُقرأ في وجهه كل حرف كانت تخطّه

ريشته واذا ما منح الجوائز طبقاً لغيرته وحميّته او لعمل ، فلعله كان قد بلغ ، وحتى لفرط دهشته هو ، رتبة مشاور مدني ، ولكنه استحقّ ، كما كان المنكتون يعبرون ، من رفقائه في العمل ، ابزيماً في عروة ، بل وتمرض بالبواسير أيضا وعلى أية حال ، لا يصحّ القول ، انه لم يعر قط أيما انتباه فقد أمر أحد المدراء ، بصفته انساناً طيباً ، ورغبةً منه في تعويضه لقاء الخدمة الطويلة ، أمر باعطائه عملاً اهمّ من الاستنساخ الاعتيادي ، وبالذات كان عليه ان يعدّ من الوثيقة الجاهزة وثيقة مشابهة لارسال الى دائرة اخرى ، وكان الامر يحصر في تغيير العنوان ، وتحويل الأفعال ، في بعض المواضع ، من صيغة الشخص المتكلم الى صيغة الشخص الغائب. وقد كلفه هذا نصباً بالغاً ، بحيث انه كان يعرق كلية ، ويمسح جبهته ، ليقول اخيراً « كلا ، الأفضل ان تعطوني شيئاً ما أستنسخه »

ومنذ ذلك الوقت تركوه يستنسخ الى الابد وكان يبدو انه فيما عدا هذا الاستنساخ ، لم يكن لديه شيء جوهري ولم يفكر هو البتّة في ملبسه فالسترة الرسمية لم تكن لديه خضراء ، إنما بلون طحيني ــ أمغر اما الياقة فكانت قصيرة ، ضيقة ، ولذلك فان رقبته ، رغم

انها لم تكن طويلة في الواقع كانت تبدو ، متلعةً من مثل هذه الياقة طويلة على نحو غير طبيعي كمثل تلك القطيطات الجبسية التي تتمايل رؤوسها والتى توضع على القبعات التي يلبسها الروس المولعون بتقليد الاجانب عموما وكان دائما ثمة شيء يلتصق بسترته الرسمية فاما ان يكون هذا شيء من القش أو خويَط ما ، والى ذلك كان يتمتع بقدرة خاصة ، تتجلّى في كونه يفلح في الوصول ، سائراً في الشارع ، تحت الشباك ، بالذات في ذلك الوقت الذي تُرمى منه كل صنوف الاوساخ ، وبسبب ذلك كان يحمل دائماً على قبعته قشور الرقّي والبطيخ وما ماثل ذلك ولم يعرهو ، ولا مرة واحدة في حياته اهتماما ، إلى ما يجري ويقع كل يوم في الشارع ، إلى ما كان سيستأثر مثلاً بانتباه اخيه ، الموظف الشاب ، الذي كان يتمتع بنظر نافذ يمتد بعيداً بحيث انه كان يلاحظ عند أي من الناس في الجانب الآخر من الرصيف قد انفتق البنطلون ، الأمر الذي كان يثير دائماً السخرية في وجهه غير ان آكاكي آكاكيفيتش كان ، حتى اذا نظر الى شيء فانه كان يرى منه سطوره النظيفة ذات الخطّ المتناسق ، اللهم الا اذا داهمه في كتفه

من جهة غير معلومة بوز فرس ، تنفث من منخريها ريحاً قوية في الخدين فآنذاك فقط كان يلاحظ انه ليس في منتصف السطر ، وانما في منتصف الشارع وكان اذا أتى الى البيت ، يجلس حالاً الى المنضدة ، ليحتسي حساء الكرنب او ليتناول قطعة من لحم البقر مع البصل ، غير ملاحظ طعمها على أية حال ، كل ذلك سوية مع الذباب ، ومع كل شيء يجود به الله في تلك اللحظة وحين يلحظ معدته ابتدأت تنتفخ ، كان ينهض من وراء المائدة ويتناول محبرة ، ويشرع في استنساخ الاوراق التي يكون قد جلبها إلى البيت فان لم يقع ذلك فانه كان يستنسخ لنفسه ، عمداً ، ولمتعته الخاصة ليس إلا ، نسخةً لنفسه ، خصوصاً اذا كانت الورقة رائعة ليس لجمال لغتها وإنما لتعلقها بشخصية ما جديدة او هامة

وحتى في تلك الساعات التي كانت تنطفىء فيها تماماً سماء بطَرسبورغ الرمادية ، فينهدّ الموظفون يُشبعون أجوافهم ويترعونها كل بما يستطيع ، انسجاماً مع الراتب المستلم انصياعاً للنزوة الخاصة — حين يكون كل شيء قد استراح بعد صرير الاقلام في الدوائر والركض طول اليوم ، والاشتغال بالاشغال الخاصة أو

بأشغال الغير ، وبعد كل شيء يمنحه الانسان المتين الرصين لنفسه ، متطوعاً بل وحتى اكثر مما هو لازم وضروري ، — حين يسرع الموظفون بتخصيص الوقت المتبقي للمتعة فيمضي من هو أثرى الى المسرح ، ويمضي آخرون الى الشارع ليتفرّج على بعض القبعات ، ويمضي البعض لقضاء الامسية في مغازلة فتاة وسيمة نجمة وسط موظفين غير كبير ؛ — ويمضي بعض آخر — وهذا ما يحدث غالباً — ببساطة الى أخ له في الطابق الرابع او الثالث ، إلى غرفتين غير كبيرتين مع دهليز ومطبخ وبعض ما هو عصرى ، مثل مصباح او حاجة اخرى تكلّف كثيراً من التضحيات ، والحرمانات من غداء او نزهة او متعة ، وبكلمة حتى في ذلك الوقت ، الذي يكون فيه كافة الموظفين قد اتخذوا مقاعدهم في شقق اصدقائهم الصغيرة يلعبون الورق ، ويحتسون أقداح الشاي مع قطع الخبز الجفّف الرخيص ، نافثين الدخان من غلايينهم الطويلة ، متحدثين في وقت تفريق ورق اللعب بنميمة ما ، واردة من المجتمع الراقي ، الذي لا يرفضه قط ولا يستطيع بحال ان يرفضه الانسان الروسي ، او حتى حين لا يتحدثون بأي شيء آخر ، مكرّرين نكتة أبدية عن القومندات ، الذي

جاؤوا اليه يبلغونه ان ذيل فرس تمثال فالكونيتون مقطوع ، ـ وبكلمة حتى في ذلك الوقت ، الذي يكون كل ، قد مضى قاصداً المتعة والتسلية ؛ فان آكاكي آكاكيفيتش لم يكن يتمتع بأية تسلية ولايستطيع أحد القول انه قد رآه في أمسية ما وكان يرقد للنوم ، بعد ان يكون قد شبع كتابة ، وينام مبتسماً مقدماً لفكرة ان الله سيبعث بشيء لاستنساخه غداً هكذا جرت الحياة السلمية لانسان ، كان يحسن براتبه ذي الاربعمائة روبل القناعة بنصيبه ، وكان يمكن ان تواصل جريانها على هذا النسق حتى خرق الشيخوخة ، لو لم تكن شتى الكوارث التي تنصب في طريق الحياة ليس بالنسبة لمساعد المستشار فقط ، بل وحتى بالنسبة لكافة الموظفين، بل وحتى اولئك الذين لا يعطون نصيحة لاحد ، كما انهم انفسهم لا يسألونها عند أحد

يوجد في بطرسبورغ عدو قويّ لكافة اولئك الذين يتسلمون راتب الاربعمائة روبل أو ما يقارب ذلك في العام ان هذا العدو لا يعدو ان يكون صقيعنا الشمالي ، ولو انه يقال عنه على كل حال ، انه صحي جداً ففي الساعة التاسعة صباحاً ، بالذات في تلك الساعة ، حين تغصّ الشوارع بالماضين الى المديرية ،

يبدأ الصقيع بتوجيه نقرات قوية وخازة دون تمييز الى كافة الانوف ، بحيث ان الموظفين المساكين لا يعرفون ، على وجه الدقة ، بم يحتمون وفي ذلك الوقت ، حين ينتاب الجباه حتى لدى الموظفين ذوي المناصب العالية الوجع بسبب الصقيع ، وحين تنثال الدموع من المآقي فان موظّفي الدرجة التاسعة يكونون أحياناً دون حماية وينحصر الانقاذ كله في الجري بمعطف رثّ ، باسرع ما يمكن اجتياز خمسة ــ ستة شوارع ، والدبك بعدئذ بالاقدام جيداً عند المشالح ، ريثما تعود الى حيويتها كافة الامكانيات والمواهب في العمل والابداع المتجمدة في الطريق وابتدأ آكاكي آكاكيفيتش يحسّ ، منذ بعض الوقت ، انه قد ابتدأ ظهره وكتفاه يتحسسّان بوطأة البرد ولفحه ، رغم انه كان يحاول العدو بأسرع مايمكن واجتياز المسافة اللازمة وفكر ، اخيراً ، أفلا تكمن في معطفه بعض الذنوب واذ نظر اليه جيداً في بيته ، اكتشف انه في مكانين أو ثلاثة ، وقد استحال ذلك الجزء من المعطف الممتد على الظهر والكتفين بالذات الى شبه غلالة رقيقة فالجوخ قد بلي بحيث صار مثقباً ، وكذلك فان بطانة المعطف

قد نسلت   وينبغي ان نعرف ان معطف آكاكي آكاكيفيتش كان موضوعاً لسخرية الموظفين ايضاً حتى انهم سلبوه اسم المعطف الكريم وأسموه رداء وفي الواقع ، فقد كان له تركيب وهيئة غريبة   فياقته كانت تتضاءل كثيراً   باطراد   من عام الى آخر وذلك لأنها كانت تستعمل لرتق اجزائه الاخرى ولم يكشف الرتق فنّ الخياط   بل كان المعطف يبدو كالكيس   وغير جميل اطلاقاً   واذ فطن آكاكي آكاكيفيتش لسرّ المسألة وبيت القصيد ، قرر لزوم تقديم المعطف الى بتروفيتش   الخياط الذي كان يعيش في مكان ما في الطابق الرابع   فوق السلم العتيق   والذي كان برغم عينه الحولاء والبثور في وجهه كله ، يعمل بنجاح في اصلاح بنطلونات وفراكات الموظفين والآخرين ، وذلك طبعاً حين يكون صاحياً ، ولم يملأ رأسه بمشروع ما آخر   وبالطبع ، فعن هذا الخياط   لا يلزم سوق الكثير من الكلام ، ولكن ما دام العرف يقضي بان تكون صورة شخصية في القصة محددة تماماً ، ومرسومة بدقة فليس ثمة خيار ، فدعونا ، اذن ، نستقدم هذا البتروفيتش أيضاً إلى هنا . كان يُدعى ، في البداية ، غريغوري ،

وكان رقيقاً لدى أحد السادة وقد تلقىّ اسم بتروفيتش منذ ذلك الوقت الذي تسلّم فيه الاجازة ، وجعل يفرط في الشراب في كافة الاعياد ، في البداية في الاعياد الكبيرة ، وبعدئذ في كافة الاعياد الكنسية ، دونما تمييز ، اي حيثما كان يوجد في التقويم علامة صليب ومن هذه الناحية كان هو أميناً لعادات الأجداد ، فكان كلما تناقش مع زوجته أسماها امرأة معادية للدين والمانية وبما اننا أشرنا الى الزوجة ، فانه سيلزمنا ان نقول عنها كلمتين ولكن لسوء الحظ كان المعروف عنها قليلاً ، اللهم فقط كونها زوجة بتروفيتش ، وكونها تحمل قلنسوة نسائية خفيفة وليس منديلاً ؛ اما الجمال فلم تستطع ، فيما يبدو ، التباهي به ؛ فعلى الاقل عند الالتقاء بها لم يكن سوى جنود الحرس ينظرون اليها وهي تحت القلنسوة ، ويغمزون بشواربهم ، مطلقين صوتاً ما خاصاً

وعند ارتقاء السلم ، المؤدي الى بتروفيتش الذي كان اذا انصفنا القول ، مدهوناً بالماء ، والغسالات ، ومشبعاً تماماً برائحة السبرتو ، التي تأكل العيون ، والتي ، كما هو معلوم ، توجد دوماً في كافة سلالم المداخل الاحتياطية لبيوت بطرسبورغ ، — عند ارتقاء

السلم ، كان آكاكي آكاكيفيتش قد أفلح في التفكير كم سيطلب بتروفيتش ، وقرّر ، في فكره ، ان لا يعطيه اكثر من روبلين كان الباب مفتوحاً وذلك لأن ربـّة البيت قد أطلقت ، وهي تعدّ صنفاً من السمك ، قدراً من الدخان في المطبخ ، استحالت معه رؤية حتى الصراصر ذاتها واجتاز آكاكي آكاكيفيتش المطبخ ، دون ان تلاحظه حتى ربـّة البيت نفسها ودخل الغرفة ، أخيراً ، حيث رأى بتروفيتش جالساً على منضدة خشبية واسعة غير مصبوغة ، متربعاً مثل باشا تركي كانت قدماه ، وفقاً لعادة الخياطين المنخرطين في العمل ، عاريتين وقبل كل شيء كان يطالع العين الابهام ، المعروف جيداً لآكاكي آكاكيفيتش ، الابهام ذو الظفر المشوّه ، الضخم والقوي ، مثل صدفة السلحفاة وعلى رقبة بتروفيتش كانت شلة الخيوط والابريسم ، اما على ركبتيه فكانت ثياب بالية وقبل حوالي ثلاث دقائق حاول ادخال الخيط في خرم الابرة ، ولكنه لم يفلح في ذلك ، ولهذا كان ساخطاً على الظلمة ، بل حتى على الخيط نفسه ، مدمدماً بصوت خافت « الخيط لا يدخل ، ياله من بربرى ، لقد انهكتنى ، ايها الخبيث ! »

ولم يكن مريحاً لآكاكي آكاكيفيتش، أنه جاء بالذات في تلك الدقيقة ، حين كان بتروفيتش غاضباً كان يودّ ان يحجز لدى بتروفيتش ، حين يكون هذا خاضعاً لسلطان الخمر ، او كما كانت تعبر زوجته « أفرط الشيطان الاعور في السكر » ، وفي مثل هذه الحالة فان بتروفيتش كان ، عادة ، يتنازل ويوافق بكل ود وطوعية وكان ينحني ويشكر في كل مرة صحيح ان الزوجة كانت تأتي وبعد ذلك باكية شاكية ان الزوج كان سكرانا ، ولذلك عين آبالسعر الرخيص ، ولكن ما ان تضف لها عشرة كوبيكات حتى تعدّ القضية منتهية والآن فان بتروفيتش كان يبدو صاحياً ولذلك فانه كان حاداً ، لايتناقش ، ويحب ان يطرح الشيطان يعرف اي ثمن خيالي وفطن آكاكي آكاكيفيتش لهذا، وكاد ، كما يقال ، ان يعود القهقرى ، غير ان القضية كانت قد بُدئت وسمّر بتروفيتش ، بقوة عينه الوحيدة عليه ، وقال آكاكي آكاكيفيتش ، دون ارادته

— مرحباً ، يا بتروفيتش !

— مرحباً بك ، ياصاحبي — قال بتروفيتش ،

والقى بعينه نظرة على يدي آ كاكي آ كاكيفيتش ، راغباً ان يرى اي نوع من الغنيمة كان لديه

ـ ها اني جئتك ، يا بتروفيتش ، بخصوص ذلك

وينبغي ان نعرف ان آ كاكي آ كاكيفيتش كان يوضح أغلب كلامه بالحروف ، والظروف ، وأخيراً بتلك الادوات المساعدة ، التي ليس لها اي معنى قطعاً واذا كانت القضية بالغة الصعوبة ، فانه حتى كانت لديه عادة ان لاينهي تماماً عبارته ، وهكذا فغالباً ما كان يبتدئ حديثه بالكلمات « إنه لحق تماماً ذلك ، ولا يكون شيء بعد ذلك وكان هو نفسه ينسى هذا معتقداً انه قد قال كل شيء

ـ ما هذا ؟ ـ قال بتروفيتش وتفحّص في الوقت نفسه ، بعينه الوحيدة كل سترته ، من الياقة حتى الأكمام ، والظهر ، والطرف الجانبي والابازيم ، بحيث ان كل شيء كان لديه معروفاً ، لأن ذلك كان صنع يديه هكذا كانت عادة الخياطين فقد كان هذا أول ما يصنعونه عند اللقاء

ـ اما انا فقد جئتك يا بتروفيتش بذلك بالمعطف بالذات ، بالجوخ . ها أنت تراه ،

وهو في كل الامكنة متين جداً ، إنما هو تعفّر بعض الشيء ويبدو كما لو انه قديم ، ولكنه جديد ، فقط في مكان واحد ، اهترأ بعض الشيء وفي الظهر واحدى الكتفين بلي بالحكّ ثم على هذا الكتف قليلاً ترى ان هذا كل شيء ، ولا يكلف الا عملاً بسيطاً

أخذ بتروفيتش الرداء وبسطه في البداية على المنضدة ونظر اليه طويلاً وهز رأسه ونقب بيده في الشباك باحثاً عن المسعط ، المستدير الشكل ، والذي يحمل صورة جنرال ما ، غير معلوم من هو بالذات ، وذلك لأن المكان ، حيث كان الوجه موجوداً ، كان قد نكش بالاصبع والصقت فيما بعد ، مكانه ، قصاصة من الورق مربعة الشكل واذ تنشق بتروفيتش نشوقه وبسط الرداء على يديه ، ونظر اليه في الضوء ، وهزّ رأسه من جديد ، وبعدئذ قلب بطانته الى الأعلى ، وهزّ رأسه ومن جديد نزع الغطاء بصورة الجنرال ، الملصق بالورقة ، ودسّ التبغ في انفه ، وأغلقه وأخفى المسعط ، وقال أخيراً

كلا لايمكن إصلاحه ان هذا مجرد نفاية .

وعندما سمع آكاكي آكاكيفيتش هذه الكلمات خفق قلبه بشدة

ـ لماذا لا يمكن اصلاحه يا بتروفيتش ؟

ـ قال هو بصوت يكاد يكون صوت طفل متوسّل

ـ فان كل ما في الامر لا يتعدّى ان في الكتفين بلي ، ولديك قصاصات ما

ـ أجل يمكن ايجاد قصاصات ما ، القصاصات نجدها ، ـ قال بتروفيتش ، ـ ولكن خياطتها أمر غير ممكن فالقضية مهترئة تماماً ، ما ان تمسّه بأبرة حتى يتهرأ كل شيء في يديك

ـ هَبه يتهرأ ، اما انت فارقعه برقعة في الحال

ـ لكن لا يمكن وضع الرقع في اي مكان ولا يمكن تقويتها بشيء لقد استعمل أمداً طويلاً جداً كل مجده انه جوخ ولكن ما ان تهبّ الريح حتى يتطاير

ـ لكن قوِّه انت كيف يمكن ان يكون ذلك في الواقع !

ـ كلا ، ـ قال بتروفيتش بحزم ، ـ لايمكن عمل أي شيء ان القضية بالغة السوء الأفضل لك ، اذا ما حلّ الشتاء البارد ان تصنع منه لنفسك

لفافات لقدميك ، فبالجورب وحده لن تتدفأ   انهم الألمان ابتدعوا هذا لاجل ان يحتازوا قدراً اكبر من النقود (كان بتروفيتش يحب   عند اللزوم ، ان يغمز الالمان)   اما بخصوص المعطف ، فكما هو واضح لك   يلزَم ان تصنع معطفاً جديداً

وعند كلمة « جديد » اعتكرت عينا آكاكي آكاكيفيتش ، وتشوش لديه منظر كل شيء ، مما كان موجوداً في الغرفة   لقد رأى بوضوح الجنرال وحده فقط ، بالوجه الملصقة مكانه الورقة ، الموجودة على غطاء مِسعَط بتروفيتش

– كيف ، جديد ؟ – قال هو ، كما لو انه لا زال في حلم ، – فانه لا توجد لدّي نقود لذلك

– أجل ، جديد ، – قالها بتروفيتش بهدوء يحطم الأعصاب

– حسناً ، اذا ما تطلب الامر معطفاً جديداً ، فكيف يكون ذلك

– تقصد – كم سيكلف ؟

أجل

– ينبغي انفاق مائة وخمسين روبلا في الاقصى ، – قالها بتروفيتش ، وزمّ عند ذلك ، شفتيه بحزم

إذ كان يحب جداً التأثيرات القوية ، والنظر بعد ذلك بطرف عينه ، كيف ستكون سيماء الوجه بعد هذه الكلمات

ـ مائة وخمسين روبلا عن معطف ! ـ صرخ آكاكي آكاكيفيتش المسكين صرخ ، لعله ، للمرة الاولى منذ طفولته وذلك لأنه تميز دائماً بهدوء الصوت

ـ أجل ـ ل ! ـ قال بتروفيتش ، ـ والقضية بعد ذلك قضية اي معطف يلزم اذ اننا اذا وضعنا على الياقة فرو الدلق ، وجهّزنا قلنسوة المعطف ببطانة حريرية ، فآنذاك سيبلغ الأمر مائتي روبل

ـ بتروفيتش ، من فضلك ، ـ قالها آكاكي آكاكيفيتش بصوت متوسّل دون ان يسمع او يحاول ان يسمع كلمات بتروفيتش المقولة وكافة تأثيراته ، ـ أصلحه بأيما طريقة ، كيما يفيد ولو بايما درجة

ـ كلا ، ان هذا سيعني كالتالي العمل بلاجدوى من ناحية ومن ناحية اخرى اهدار النقود عبثاً ـ قال بتروفيتش ، وخرج آكاكى اكاكيفيتش ، بعد هذه الكلمات محطوماً تماماً اما بتروفيتش فقد وقف طويلاً بعد خروجه ، زاماً شفتيه ، بهيئة الحازم

دون ان يباشر عمله ، وذلك لانه كان راضياً ، مغتبطاً فهو من ناحية لم يحطّ من قدره ، ومن ناحية اخرى لم يخن فنّ الخياطة

خرج آكاكي آكاكيفيتش الى الشارع ، كما لو انه في الحلم «اذن هكذا الأمر – انه لبالغ السوء» – قالها هو لنفسه ، – أنا ، في الحقيقة ، لم أعتقد الامر سيكون كذلك . – ثم اضاف بعد صمت قصير ، – هكذا اذن ! هكذا أصبح الأمر ، أما أنا فحتى لم استطع ان أفترض مقدماً ان القضية كذلك» وتبع هذا صمت طويل ، نطق هو بعده «هكذا إذن ، هكذا اذن بالضبط غير متوقع لم اتصور قطعاً أن يكون الأمر كذلك هكذا هي الظروف ! واذ قال هذا ، فهو بدلاً من ان يمضي الى البيت ، مضى الى الجانب المغاير تماماً ، دون ان يفطن هو نفسه لذلك وفي الطريق كان قد اصطدم به منظف المداخن ، بكل جانبه الوسخ ، ولطّخ بالسخام كل كتفه ، وانثال عليه ماملأ قبعته من النورة إنصبّ من سطح بيت يتم بناؤه ولم يلاحظ هو اي شيء من ذلك ، فقط فيما بعد ، حين اصطدم بالحارس ، الذي كان قد وضع سلاحه بجنبه ، ونثر من كيس

على القبضة ذي الجسآت تبغاً ، فقط آنذاك صحا على نفسه بعض الشيء وحتى هذا حصل لأن الحارس قال « لماذا تدسّ وجهك في وجهي ، أفحقاً لا يوجد لك رصيف ؟ » وقد أرغمه هذا على الالتفات ، والعودة الى البيت وهنا فقط ابتدأ هو جمع شتات أفكاره ، وتبيّن وضعه بوضوح وعلى ما هو عليه فعلاً ، وجعل يحادث نفسه ليس باقتضاب ، وانما بحصافة وصراحة كما لو انه كان يحادث صديقاً عاقلاً ، واعياً ، يستطيع ان يكلّمه في أخصّ الاشياء وأخطرها « كلا ، كلا ، — قالها آكاكي آكاكيفيتش ، — لا يمكن مجادلة بتروفيتش الآن ؛ انه الآن غيره ان الزوجة ، فيما يبدو ، قد أوجعت ضربه ولكن الأفضل ان آتيه صباح يوم الأحد فهو بعد سكرة السبت ، يبدو عبوساً ذا نظرة شزراء ، واذ يستيقظ بعد نوم طويل فانه ليلزمه جداً ان يشرب ليصحو ، لكن الزوجة لن تعطيه نقوداً ، فاذا جئته في مثل هذا الوقت ودسست بعشرة كوبكات في يده ، فسيميل إذ ذلك الى الكلام ، والمساومة دون مماحكة ، وسيكون المعطف آنذلك أفضل حالاً هكذا ناقش آكاكي اكاكيفيتش نفسه، وقوى معنويّاته ، وانتظر

أول أحد واذ لاحظ من بعيد ان زوجة بتروفيتش قد غادرت البيت لناحية ما توجه هو اليه مباشرة وكان بتروفيتش بعد يوم السبت حقاً مغلق العينين منحرف المزاج وقد أطرق برأسه الثقيل الى الأرض ، وكان تماماً ، قد تأخر في نومه ولكنه مع كل هذا ، ما إن عرف سر المسألة ، حتى لكأن الشيطان بالذات لزّه لزّا «غير ممكن ، — قال ، — تفضل بان توصي لك على معطف جديد» وهنا بالذات دسّ له آكاكي آكاكيفيتش العشرة كوبكات «اشكرك ، ايها السيد ، سأشرب شيئاً في صحتك ، — قال بتروفيتش ، — ولكن بخصوص المعطف لا تسمح لنفسك بالقلق ، فانه لا يصلح لشيء البتة ، انني سأخيط لك معطفاً جديداً مجيداً ، ولنتوقف عند هذا الحد»

وحاول آكاكي آكاكيفيتش ، كرة أخرى ، بخصوص التصليح ، غير ان بتروفيتش لم يسمع وقال «سأخيط لك معطفاً جديداً ، ما في ذلك شك ، اسمح لي ان نؤمل على هذا وسنبذل الجهود بل حتى ليمكن ، وفقاً لما جرت عليه الموضة ، تزرير الياقة بازرار بشكل براثين ، مفضّضة

وهنا بالذات تحقق آكاكي آكاكيفيتش أنه

من دون معطف جديد لا يمكن تدبير الأمر ، وتدهورت معنوياته تماماً كيف في الواقع باى شيء بأية نقود يمكن صنعه ؟ بالطبع يمكن الاعتماد جزئياً على المكافأة المستقبلة قبيل العيد ولكن هذه النقود قد أرصدها هو لاغراض معينة منذ زمن ، وهكذا فقد وُزعت مقدماً فقد كان الأمر يتطلبه ان يأتي ببنطلون جديد ، وان يدفع للحذّاء ديناً قديماً عن تركيبه وجوهاً جديدة لاحذية طويلة قديمة ، وكان ينبغي التوصية على ثلاثة قمصان عند خيّاطة وكذلك قطعتين من الملابس الداخلية ، التي من غير اللائق تسميتها في اللغة المطبوعة والنقود كلها ينبغي ان تصرف ، وحتى اذا كان المدير من اللطف بحيث يخصص له ، بدلاً من أربعين روبلا الجائزة ، خمسة وأربعين او خمسين ، فان المتبقّي هو على كل حال شيء طفيف جداً ، هو من التفاهة بحيث يكون كقطرة في بحر بالنسبة لكلفة المعطف وبالرغم من انه عرف طبعاً ان كانت من عادة بتروفيتش ومن نزواته ان يحدد ، فجأة سعراً باهظاً شيطانيا لدرجة ان الزوجة لم تكن تستطيع احيانا ضبط نفسها كيلا تصرخ قائلة : « هل فقدت رشدك أيها الاحمق !

إنك في احيان اخرى تعمل بدون مقابل فما الذي سلبك عقلك الآن لتطلب مثل هذا الثمن ، الذي يربو على قيمتك أنت نفسك» وبالرغم من انه عرف ، طبعاً ان بتروفيتش يوافق على العمل لقاء ثمانين روبلا ايضاً ، غير انه ، على أية حال ، من أين يمكنه أخذ هذه الثمانين روبلاً ؟ يمكن ايجاد نصفها أجل يمكن ايجاد النصف ، بل لعلّه حتى اكبر من النصف بقليل ، ولكن أين يجد النصف الآخر ؟ غير انه ينبغي على القارئ ان يعرف أين كان ممكناً تدبير النصف الاول لقد كان لآكاكي آكاكيفيتش عادة أن يقتصد من كل روبل قرشا واحداً ، يلقيه في صندوق صغير ، مقفول بمفتاح ، وفي غطائه ثقب صغير ليرمي النقود عبره وكان عند انصرام كل عام ، يعدّ المبلغ المجمّع بالعملة النحاسية ويستبدله بنقود فضية صغيرة وعلى هذا المنوال استمر أمداً طويلاً ، وتبيّن ان المبلغ المدخر ، لمدى عدة اعوام ، كان يفوق الاربعين روبلاً وهكذا فان النصف كان جاهزاً ، ولكن من أين تدبير النصف الآخر ؟ أين يجد الاربعين روبلاً الاخرى ؟ فكرّ آكاكي آكاكيفيتش، وقرّر انه سيلزمه تقليل المصاريف

الاعتيادية ، ولو لمدة عام على الأقل استبعاد تناول الشاي مساء وعدم اشعال الشموع ليلاً واذا ما تطلبه الأمر عمل شيء فالمضي الى غرفة ربّة البيت والعمل على ضوء شمعتها ، والوطء بأخف ما يمكن وباكبر ما يمكن من الحذر على الاحجار والطابوق ، على أصابع القدمين وذلك كي لايبلى قبل الأوان نعل الحذاء وتقليل مرات اعطاء الملابس للغسيل ولكي لا تهترىء فانه في كل مرة ، حين يأتي الى البيت ، يرميها ويبقى في مجرد روب قطني قديم جداً ، ادخره حتى الزمن ذاته ورأف به وينبغي قول الحقيقة ، انه كان صعباً عليه ، في البداية التعوّد على مثل هذا التقشّف ، ولكنه تعوّد ، بعدئذ ، بشكل ما ، وجرت أموره على ما يرام ، بل حتى انه تعوّد تماماً على الصيام في الأماسي ولكنه ، في مقابل ذلك تغذّى روحياً ، حاملاً في ذهنه الفكرة الأبدية لمعطف المستقبل ومنذ ذلك الوقت بدا كما لو ان مجرد وجوده اصبح اكثر امتلاء ، كما لو انه تزوج كما لو ان انساناً آخر عاش معه كما لو انه لم يكن وحيداً ، وانما وافقت صديقة طيبة على ان تسلك معه سوية طريق الحياة ، ـ وكانت هذه الصديقة لاتعدو

ان تكون ذلك المعطف المضرب بالقطن السميك البطانة التي لا تهتريء وقد اصبح بشكل ما أشدّ حيوية ، وحتى اكثر ثباتاً في الطبيعة ، كانسان قد حدّد ووضع لنفسه هدفاً ومن وجهه وتصرّفاته اختفت شكوكه في نفسه ، وعدم ثقته بها ، وتردده — وبكلمة كل ملامح التردد وعدم الحزم وكانت النار تتألق أحياناً في عينيه ، وفي رأسه كانت تطوف أجرأ الافكار وأشجعها لماذا لايضع على الياقة بالذات فرو الدلق وكادت التأملات في هذا الأمر ان تضفي عليه الذهول وشرود البال. فمرة كاد ان يخطئ ، وهو يستنسخ ورقة وهكذا صاح جهراً تقريباً « أوه ! ورسم علامة الصليب عدة مرات وكان يعرج كل شهر ، ولو مرة واحدة ، على بتروفيتش ، ليتحدث عن المعطف — أين الأفضل شراء الجوخ ، وأي لون ، وبأي سعر ، ورغم كونه قلقاً بعض الشيء ، الا انه كان دائماً يعود الى البيت راضياً متصوراً انه سيأتي في النهاية ذلك الوقت ، حين سيشتري كل هذا ، وحين سيكون المعطف جاهزاً ومضى الأمر بأسرع مما كان يتوقّع وعلى عكس كل ما أمل هو ، فان المدير خصّص لآكاكي آكاكيفيتش لا أربعين أو خمسة واربعين ،

بل ستين روبلا كاملة أفهل أحسّ مقدماً ان آكاكي آكاكيفيتش كان يلزمه المعطف ، أم ان الأمر حصل هكذا من تلقاء نفسه غير انه بهذا الشكل وحده ظهرت لديه عشرون روبلاً اضافية وقد سرّع هذا الظرف من مجرى القضية لا زال يلزم شهران — ثلاثة اشهر من الصيام غير الكبير — ويكون قد تجمّع لدى آكاكي آكاكيفيتش الثمانون روبلاً بالضبط وابتدأ قلبه الهادئ تماماً بالخفقان وفي اليوم الأول توجه هو ، سوية مع بتروفيتش الى الحانوت فاشتريا جوخاً فاخراً ولم يكن ذلك عسيراً عليهما لأنهما فكّرا وتهيئا لذلك قبل نصف عام وقلما كانا لا يمضيان مرة في الشهر الى الحانوت ليتعرفا على الاسعار وفي المقابل قال بتروفيتش نفسه انه لن يكون أفضل من الجوخ واختارا للبطانة نسيجاً قطنياً متيناً وبالذات ذلك النوع السميك ، المتين الذي هو أفضل ، وفقاً لكلمات بتروفيتش ، من الحرير ، بل وهو من حيث مظهره أجود ويخلف انطباعاً أفضل وأشد ألقاً ولم يبتاعا فرو الدلق لأنه كان باهظ الثمن ، وبدلاً منه اختارا أفضل نوع من فرو القطط ، الذي كان موجوداً في الحانوت وقتها

وهو نوع من فراء القطط كان يمكن أن يحسبه الرائي من بعيد فرو الدلق وكان كل ما أنفقه بتروفيتش من الوقت في العمل اسبوعين ليس الا ، وذلك لأنه كان كثير من تضريب القطن وبخلاف ذلك كان يمكن ان يكون المعطف جاهزاً قبل ذلك وتسلّم بتروفيتش عن العمل ، ١٢ روبلاً — فأقل من هذا ماكان ممكناً بحال فكل شيء كان مخيطاً باحكام بالحرير ، بدرز ناعم مزدوج ، وعلى كل درز كان بتروفيتش يمر ، فيما بعد ، باسنانه صانعا من ذلك مختلف الهيئات والاشكال لقد كان هذا من الصعب القول في أي يوم بالذات ولكن على الأرجح في اكثر الايام احتفالاً في حياة آكاكي آكاكيفيتش جاب بتروفيتش المعطف في النهاية لقد جلبه صباحاً ، قبيل ذلك الوقت الذي كان ينبغي على آكاكي آكاكيفيتش المضي الى المديرية ولم يكن ممكناً في وقت آخر ان يحتاج الى المعطف بهذا الشكل وذلك لانه كانت قد ابتدأت ايام الصقيع والزمهرير ، وبدا كما لو انها تهدّد بمزيد من الاشتداد ظهر بتروفيتش مع المعطف كما ينبغي لخياط جيد . وفي وجهه كان يلوح تعبير من الجد

والاهمية ، مما لم يره لديه آكاكي آكاكيفيتش يوماً من الايام وبدا كما لو انه كان يتمتع بأقوى المعنويات وذلك لأنه قام بعمل غير صغير وانه قد كشف فجأة في نفسه عن الهوّة التي تفصل الخياطين الذين يضعون البطانات فقط ويصلحون ويرتقون الملابس القديمة عن اولئك الذين يخيطون الملابس الجديدة واخرج المعطف من منديل الأنف الذي جلبه فيه وكان قد أتي بالمنديل تواً من الغسيل ، وبعد ذلك طواه ووضعه في جيبه للاستعمال واذ أخرج المعطف ، نظر اليه بمنتهى الاعتزاز وألقاه ببالغ الخفة والمهارة على كتفي آكاكي آكاكيفيتش ، ممسكاً به بكلتا يديه ، وبعد ذلك مدّه وجرّه الى الاسفل بيده من الخلف ، ثم نجده على آكاكي آكاكيفيتش مفتوح الازرار بعض الشيء وباعتبار آكاكي آكاكيفيتش انساناً متوسط العمر ، فانه أراد ان يجرّب المعطف ملبوساً بالاكمام فساعده بتروفيتش في ان يلبسه بالأكمام ــ فظهر انه جيد في الاكمام ايضاً وبكلمة ، تبيّن ان المعطف جاء على القدّ تماماً ولم ينس بتروفيتش في هذه الفرصة ان يقول ، انه لكونه يعيش ، في شارع غير كبير بدون يافطة ،

والى ذلك يعرف منذ وقت طويل آكاكي آكاكيفيتش ، لذلك اضطلع بالعمل بهذا الرخص، اما لو كان العمل قد تم في شارع نيفسكي ، اذن لاخذوا منه عن مجرد العمل، خمسة وسبعين روبلا. ولم يرد آكاكي آكاكيفيتش ان يناقش بتروفيتش في هذا ، ثم انه كان يخشى كافة المبالغ الضخمة ، التي كان بتروفيتش يحب ان يذّر بها الرماد في العيون وقد دفع له أجره ، وشكره وخرج لتوّه في المعطف الجديد الى المديرية وخرج بتروفيتش في أثره ، ونظر ، باقياً في الشارع ، أمداً طويلا من بعيد الى المعطف ، وانعطف بعد ذلك جانباً خصيصا ليرى لافّا في زقاق متعرج منحن ليجري من جديد الى الشارع ، فيرى على هذا النحو ، مرة اخرى ، معطفه من الجانب الاخر اي من جانبه الامامي وفي هذه الاثناء كان آكاكي آكاكيفيتش يسير في اشد مشاعره ابتهاجا واحتفالاً وكان يحس في كل ثانية من الدقيقة ، ان على كتفيه معطفه الجديد ، وضحك بسخرية عدة مرات خلسة ، من فرط سروره الداخلي ففي الواقع ، فائدتان الاولى كونه دافئاً ، والاخرى كونه جيداً ولم يلاحظ الطريق بتاتاً ، وتكشف من جديد في المديرية ، ونزع معطفه في

المشلح ، وتفحصه من كل جوانبه ، وعهد به للعناية الخاصة لعامل المشلح ولم يُعرف بأي صورة علم الجميع في المديرية ، فجأة ، ان لدى آكاكي آكاكيفيتش معطفاً جديداً ، وان الرداء القديم لم يعد في قيد الوجود وهرع الجميع في هذه الدقيقة الى المشلح ليطالعوا بعيونهم المعطف الجديد لآكاكي آكاكيفيتش وابتدأوا يهنؤنه ، ويحيونه ، بحيث ان هذا اقتصر على الابتسام في البداية ، اما بعدئذ فقد صار يستشعر الخجل وحين جعل الجميع وقد اقتربوا منه وأحاطوه ، يقولون بانه ينبغي عليه احياء حفل شرب بمناسبة المعطف ، وانه على الاقل ينبغي ان يدعوهم الى امسية ، فان آكاكي آكاكيفيتش ذهل ، وارتبك غاية الارتباك ولم يدر ما العمل ، وبم يجيب ، وكيف التعلّل والاعتذار وليس الا بعد بضع دقائق ، ابتدأ يؤكد متضرجا ، وبقدر كبير من بساطة القلب والاخلاص ان هذا ليس بالمعطف الجديد قطعاً ، وانه معطف عادي ، وانه هو المعطف القديم ذاته وأخيراً قال أحد الموظفين ، بل هو مساعد رئيس القسم ، وذلك على الأرجح لكي يظهر انه قطعاً ليس بالمتكبر وانه يخالط حتى الأدنين ، قال « ستكون

المسألة هكذا ، سأقيم أنا بدلاً من آكاكي آكاكيفيتش ، الأمسية وأدعوكم إلي اليوم في حفلة شاي ، ذلك اني اليوم ، وكما لو ان الامر عمد ، احتفل بعيد ميلادي » وتلقائياً هنأوا في الحال مساعد رئيس القسم وتقبلوا الدعوة بسرور وأبتدأ آكاكي آكاكيفيتش يتعلّل غير انهم جميعاً جعلوا يقولون ان هذا قلة أدب منه ، وان هذا محضى خزي وعار ، وانه ما كان عليه ان يعتذر عن حضور دعوتهم ، بحال وعلى أية حال ، سر هو فيما بعد حين تذكر انه ستكون لديه بهذه المناسبة ، امكانية المجئ حتى إلى أمسية في المعطف الجديد وكان هذا اليوم كله بالذات بالنسبة لآكاكي آكاكيفيتش، اكبر عيد احتفالي لقد عاد الى البيت في أبهج وضع وأقوى معنويات ، ونزع المعطف ، وعلّقه بعناية على الحائط ، ممعناً النظر مرة اخرى في الجوخ والبطانة واخرج بعد ذلك ، خصيصاً للمقارنة ، رداءه القديم الناسل المهترئ نظر اليه وضحك هونفسه فأي فرق كبير كان ! وظل يضحك طويلاً اثناء الغداء كلما كان يخطر على باله الوضع الذي وُجد فيه الرداء . وتناول غداءه مرحاً ، مبتهجاً ، ولم

يكتب شيئاً بعد الغداء ، ولا حتى ورقة واحدة ، وانما تمدد شيئاً للراحة على الفراش ، ريثما اظلم الجو وبعد ذلك ، ودون ان يتأخر ارتدى ملابسه ، ثم ارتدى معطفه على كتفيه وخرج الى الشارع اين بالذات عاش الموظف الذي دعى زملاءه — ان هذا الامر لا نستطيع ان نحدده ، مع الاسف فان الذاكرة ابتدأت تخوننا بقوة ، واختلط كل شيء مما هو موجود في بطرسبورغ والتحمت كل الشوارع والبيوت واختلطت في الذهن لدرجة صعب معها جداً تصور شيء ما بشكل طبيعي ومهما كان الأمر ، ولكنه أكيد على الاقل ، فان الموظف كان يعيش في أفضل قسم بالمدينة ، واذن ، في مكان في غاية البعد عن آكاكي آكاكيفيتش وفي البداية كان على آكاكي آكاكيفيتش ان يجتاز شوارع مقفرة ذات إضاءة كليلة ، ولكن كلما ازداد الاقتراب الى شقة الموظف كلما كانت الشوارع تصبح اشد حيوية ، وآهلة بالسكان ، ومنارة لحد كبير جداً وجعل المشاة يتخاطفون غالباً ، وابتدأت السيدات ايضاً ترد ، في هندام جميل وظهرت على الرجال ياقات من فرو القندس ، ونادراً ما كانت تلاحظ زلاقات الفقراء

البائسة الخشبية المشبكة ، المزخرفة بالمسامير الصفراء ، — بل على العكس ، كان اكثر ما تصادفه العين حوذية أفضل حالاً في قبعات قرمزية من المخمل ، ومزالق ملمعة ، بأغطية من فرو الدب ، وكانت تطير في الشارع زاعقة بعجلاتها في الثلج وكذلك عربات فخمة ذات مقاعد مفروشة لسائقيها ونظر آكاكي آكاكيفيتش الى كل هذا، كما لوكان ينظر الى شيء جديد فهو لم يخرج مساء الى الشارع منذ بضعة اعوام كان يتوقف بفضول امام فترينة مضاءة لمخزن لينظر الى لوحة ما حيث كانت قد صُوِّرت امرأة جميلة كانت تنزع خفيها ، معرية بهذا الشكل ساقها كله وكان ذلك رائعاً على أية حال أما وراء ظهرها فمن باب غرفة اخرى كان قد أطل رأسه رجل بفودين ولحية صغيرة جميلة تحت شفته وهز آكاكي آكاكيفيتش رأسه وضحك ساخراً ، ثم مضى مواصلاً طريقه لماذا ضحك هو ، ألأنه قابل شيئاً غير معروف له تماماً ، يظل كل واحد محتفظاً على أية حال ، بشيء من اللطف ورهافة الذوق . ام انه فكر مثل كثيرين من الموظفين الاخرين، على النحو التالي « للّه درهم هؤلاء الفرنسيون ! ما

الذي يمكن قوله هنا ، فانهم اذا ما أرادوا شيئاً ما ، فانهم يجعلونه بالضبط كذلك ام لعله لم يفكر حتى بهذا — فان من غير الممكن الانسلال الى روح الانسان ، ومعرفة كل شيء يفكر فيه وأخيراً بلغ هو البيت ، الذي كانت تقع فيه شقة مساعد رئيس القسم وكان هذا يعيش ميسور الحال فقد كان مصباح يضيء السلم وكانت شقته في الطابق الثاني واذ دلف آكاكي آكاكيفيتش الى غرفة الانتظار رأى صفوفاً كاملة من الكالوشات على الأرض وكان ينهض بينها في وسط الغرفة ، سماور ، ضاجاً ومطلقاً أعمدة البخار وعلى الحائط علقت معاطف ومماطر كان من بينها معاطف بياقات من فرو القندس او قلبات مخملية ووراء الحائط كان يُسمع ضجيج ولغط ، اشتد وضوحاً ودوياً ، فجأة ، اذ انفتحت الباب وخرج الخادم بصينية فيها اقداح فارغة ، وآنية الزبد ، وسلة من الخبز المجفف . وكان واضحاً ان الموظفين قد اجتمعوا منذ أمد بعيد ، وشربوا القدح الأول من الشاي ودخل آكاكي آكيفيتش ، الذي كان قد علق بنفسه معطفه ، دخل الغرفة ومضت امامه في وقت واحد الشموع والموظفون والغلايين وموائد

الورق ، وعكرت سمعه على نحو مشوش الحديث الخاطف الثائر من كافة الجوانب ، وضجيج الكراسي المحرّكة وتوقف هو محرجاً تماماً في وسط الغرفة ، باحثاً ومحاولاً التفكير فيما ينبغي عليه عمله ولكنهم ، وقد لاحظوه ، دعوه مع الصراخ ، ومضى الجميع في الحال الى غرفة الانتظار ونظروا من جديد الى معطفه وبالرغم من ان آكاكي آكاكيفيتش كان يرتبك أحياناً ، ولكن لكونه شخصاً سليم الطوية لم يستطع عدم الابتهاج وهو يرى الجميع يمتدحون معطفه وبالطبع فبعد ذلك ، كان الجميع قد اطرحوه هو ومعطفه ظهرياً ، فقد توجهوا كما هو العرف عادة ، الى موائد الورق وكان الضجيج واللغط وحشد الناس ، كان كل هذا غريباً ، على نحو ما على آكاكي آكاكيفيتش فانه لم يعرف ببساطة ما ينبغي عليه عمله ، والى أين يوجّه يديه ، وقدميه وكامل جسده ، وأخيراً جلس هو الى اللاعبين ، ونظر الى الورق وتطلع الى هذا الشخص وذاك وبعد بضعة من الوقت ابتدأ هو يتثاءب واحس بالضجر خصوصاً وانه قد حان ، منذ زمن طويل ، الوقت الذي يضطجع فيه للنوم ، جرياً على عادته وأراد ان يودع رب البيت

ويمضي لحاله ، لكنهم لم يفلتوه قائلين انه ينبغي الشرب على شرف المعطف الجديد ، بمعدل قدح من الشمبانيا وبعد ساعة قدموا العشاء الذي كان يتألف من سلطة الخضار ومعاجين اللحم ولحم العجول البارد ، والفطائر المسكرة والشمبانيا.

والزموا آ كا كي آ كا كيفيتش بأن يشرب قدحين أحسّ بعدهما ان الغرفة استحالت اكثر مرحاً وعلى كل حال فهو لم يستطع أن ينس ان الساعة كانت الثانية عشرة وانه قد حان الحين منذ أمد طويل للمضي إلى البيت ومن أجل ان لا يبتدع رب البيت شيئاً ما لتعطيله انسل هو بهدوء من الغرفة وبحث في غرفة الانتظار عن المعطف الذي رآه ليس بدون أسف مطروحاً على الارض فنفضه وأزال عنه كل زغابة علقت فيه وألقاه على كتفيه وهبط على السلم الى الشارع وفي الشارع كان لا يزال ثمة نور وكانت بعض الحوانيت الصغيرة وتلك النوادي الدائمة للخدم وسائر الناس مفتوحة اما الاخرى التي كانت مغلقة ، فكانت تطلع على أية حال شريطاً طويلاً من النور بكل فلع الباب الموارب وكان هذا يعني انها لم تخل بعد من ناس يجلسون فيها ،

وعلى الارجح فان الخدم كانوا بسبيل انهاء نقاشاتهم واحاديثهم معرّضين بذلك اسيادهم الى حيرة شديدة لعدم معرفتهم بمكان موضعهم ومضى آكاكي آكاكيفيتش، بمعنويات عالية ، بل حتى ركض فجأة ، دون ان يعرف السبب ، وراء سيدة ما كانت قد مرقت بجانبه كالبرق ، وكان كل جزء من جسمها مفعماً بحركة غير طبيعية ولكنه على أية حال توقف في الحال ، ومضى من جديد كما في السابق ، على نحو بالغ الهدوء ، متعجباً حتى هو نفسه من الخبب الذي لا يعرف من اين مأتاه وسرعان ما امتدّت أمامه تلك الشوارع المقفرة ، التي لم تكن مرحة تماماً حتى في النهار ، فكيف بها الحال ليلاً والآن صارت اشد اقفاراً وخلواً من الناس ، واصبحت المصابيح تومض على نحو أندر ــ فالزيت ، كما هو واضح كان يتضاءل فيها ، وظهرت البيوت الخشبية ، والاسيجة ، وما من روح بشرية في أيما مكان ، ولم يكن سوى الثلج وحده يتألق في الشوارع ، واقتمت بحزن ، وبمزاليج مغلقة ، الاكواخ الواطئة الغاطّة في النوم واقترب هو الى ذلك المكان حيث يتشعب

الشارع بساحة لانهاية لها ببيوت لاتُرى الا بالكاد الشارع الذي بدا مقفراً على نحو رهيب

وفي البعيد حيث لا يعرف سوى الله كان نور يومض في كشك حارس ، كان يلوح انه يقف على طرف الكون وتضاءل مرح آكاكي آكاكييفيتش هنا الى حد كبير دلف الى الساحة ليس دونما خوف لا ارادي ، كما لو ان قلبه قد أحسّ بشيء ما غير طيب التفت هو الى الوراء والى الجانبين ، فكان يبدو ، كأنه البحر ، بالضبط ، حوله « كلا ، الافضل ان لا انظر » . ـ فكر هو ومضى مغلقاً عينيه ، وحين فتحهما ليعرف أقريبة هي نهاية الساحة ، رأى فجأة ان امام انفه تقريبا يقف اناس ما ذوو شوارب ، لم يستطع تحديد ماهيتهم . وضبضب الجو في عينيه وخفق قلبه « ان المعطف معطفي ! » ـ قال احدهم بصوت قاصف مختطفاً اياه من ياقته وأوشك آكاكي آكاكييفيتش ان يستغيث ، حتى قرّب احدهم من فمه مباشرة جمع يده ، الكبير مثل رأس موظف ، مدمدما « لو حاولت ان تصرخ فقط ! » وأحسّ آكاكي اكاكييفيتش كيف نزعا المعطف منه ووجّها اليه ركلة في ركبته ، وقع على اثرها ، على ظهره ، في الثلج ، ولم يحسّ

بشيء اكثر من هذا وبعد بضع دقائق صحا على نفسه واستوى على قدميه ، ولكن لم يعد احد موجوداً لقد أحسّ ان الجو بارد في الساحة ، وان المعطف غير موجود ، فجعل يصرخ ، ولكن بدا ان الصوت لا يبلغ اطراف الساحة فانهدّ يركض مستميتاً ، دون ان يكف عن الصراخ ، عابراً الساحة رأساً الى الكشك الذي وقف وراءه الحارس معتمداً على سلاحه والذي طفق ينظر ، بفضول ، راغباً ان يعرف باسم أي شيطان يركض اليه انسان ويصرخ من بعيد واذ وصل آكاكي آكاكيفيتش اليه ، ابتدأ يصرخ فيه بصوت لاهث ، مبهور الانفاس ، انه ينام وانه لا ينظر الى شيء ، وانه لا يرى كيف يسلبون انساناً. وأجاب الحارس انه لم يرشيئاً ، وانه رأى كيف أوقفه في وسط الساحة شخصان ، غير انه تصور انهما انما كانا صديقيه ، وان الافضل له ، بدلاً من ان ينخرط في الشتم والسباب عبثاً ، ان يتوجه غداً الى الناظر ، وسيجد هذا من سلبه المعطف وركض آكاكي آكاكيفيتش في اضطراب تام وكان الشعر الذي لا يزال ناتئاً لديه بكمية غير كبيرة على الصدغين وفي قفا الرأس قد تشعّث ، وكان جنبه وصدره وكل

بنطلونه في الثلج وسمعت العجوز صاحبة الشقة طرقاً رهيباً على الباب فوثبت من فراشها مسرعة بأحد خفيها لفتح الباب ، ممسكة على صدرها بدافع الحشمة ، قميصها بيدها ولكنها اذ فتحت الباب تراجعت الى الوراء وقد رأت آكاكي آكاكيفيتش في مثل هذا الوضع وحين حدثها هو بسرّ المسألة ، ضربت كفاً بكف ، وقالت ان عليه المضي رأساً الى رئيس قسم البوليس ، وليس الى رجل البوليس لانه يظل يعد ، ويماطل ، ويغش اما أفضل كل شيء فالمضيّ مباشرة الى الرئيس ، وانها تعرفه وذلك لأن آنا ، الفنلندية ، التي خدمت سابقاً لديها في المطبخ ، قد تعيّنت حاضنة الآن لدى الرئيس وانها غالباً ما تراه هو بنفسه ، حين يرتحل ماراً بجانب بيتها ، وانه يحضر الى الكنيسة كل أحد ، ويصلي ، وينظر الى الجميع بسرور في ذات الوقت ، واذن ، فهو ، قياساً على كل شيء ، ينبغي ان يكون انساناً طيباً ومضى آكاكي آكاكيفيتش ، وقد استمع الى مثل هذا القرار ، حزيناً الى غرفته اما كيف أمضى الليل هناك فالحكم لمن يستطيع ان يصوّر لنفسه ، ولو بدرجة ما ، وضع انسان آخر وفي صبح الغد

مضى هو الى رئيس قسم البوليس في الحي ، ولكن قالوا له انه نائم فجاء في الساعة العاشرة ، فقالوا له ثانية ، انه ينام فجاء في الحادية عشرة فقالوا انه لا يوجد في البيت ، فجاء فى وقت غدائه غير ان الكتّاب في الممر لم يريدوا بحال ، ان يسمحوا له بالدخول ، وأرادوا معرفة في أي أمر ، وأي لزوم جاء به وما الذي حدث وهكذا فأخيراً اراد آكاكي آكاكيفيتش ان يظهر مزاجه مرة واحدة في الحياة فقال بصورة جازمة ، انه تلزمه شخصياً رؤية الرئيس نفسه وانه ليس لهم الحق في عدم السماح له وانه جاء من المديرية في قضية حكومية ، وما ان يشكوهم حتى يروا هم بأنفسهم وخامة العاقبة ومقابل هذا لم يجرؤ الكتاب أن يقولوا شيئاً ، ومضى احدهم ليدعو الرئيس وتلقى هذا قصة سلب المعطف بمنتهى الغرابة فبدلاً من أن يوجه اهتمامه الى النقطة الرئيسية في الأمر ، جعل هو يستجوب آكاكي آكاكيفيتش لماذا عاد متأخراً بهذا الشكل او لم يكن في بيت مشبوه بحيث ان آكاكي آكاكيفيتش تحيّر تماماً وخرج من عنده غير عارف هو نفسه أسيتابع هو مجرى الدعوى بخصوص المعطف أم لا ولم يحضر

هو الى الدائرة طوال اليوم (وهذا هو الحادث الوحيد في حياته بهذا الخصوص) وفي اليوم التالي جاء شاحباً بكليته ، وفي ردائه القديم ، الذي أصبح أشد حزنا ، وبعثاً على الأشفاق وأثرت حكاية سلب المعطف في الكثير من الموظفين ، رغم انه قد وجد اولئك الذين لم يفلتوا حتى هنا الضحك من آكاكي آكاكيفيتش وقرر الموظفون في الحال ان يقوموا له باكتتاب ، ولكنهم جمعوا مبلغاً تافهاً ، وذلك لأن الموظفين قد أنفقوا ، من دون ذلك الكثير ، مسجلين اسماءهم لشراء صورة المدير ولشراء كتاب ما باقتراح من رئيس القسم الذي كان صديقاً للمؤلف — وهكذا فان المبلغ كان بالغ التفاهة وقرر أحدهم مدفوعاً بدافع التعطف ، مساعدة آكاكي آكاكيفيتش بنصيحة ثمينة قائلاً له بعدم المضي الى رجل البوليس ، وذلك لانه ربما يحدث ان رجل البوليس رغبةً منه في ان ينال حظوة الرئيس ، يعثر بشكل ما على المعطف ولكن المعطف يبقى مع ذلك في البوليس ، ان لم يقدّم هو الادلة القانونية على انه يعود اليه اما الافضل فهو ان يتوجّه الى إحدى « الشخصيات الهامة » ، وان هذا « الشخصية الهامة »

يتصل بمن ينبغي الاتصال به ، ويستحثّ معارفه كما ينبغي ، فيستطيع التأثير بجعل القضية تمضي بنجاح   لا خيار في الامر   فقد قرر آكاكي آكاكيفيتش المضي الى « الشخصية الهامة »   من هو « الشخصية الهامة » ، ما وظيفته — ان هذا الأمر بقي طيّ الخفاء   وينبغي معرفة ان هذا « الشخصية الهامة » قد أصبح منذ وقت ليس بالبعيد كذلك   اما قبل هذا فهو لم يكن كذلك   وعلى أية حال ، فان منصبه لا يعد الآن أيضاً مهماً ، بالمقارنة مع الشخصيات الأخرى الاهم بكثير   ولكن دائماً يوجد ذلك الوسط من الناس   الذين يصبح هاماً في عيونهم غير الهام في عيون الآخرين   وعلى أية حال   فقد حاول هو تشديد الاهمية بكثير من الوسائل الاخرى ، وبالذات جعل الموظفين الأدنين يستقبلونه على السلم   حين كان يأتى الى محل عمله   وفرض نظاماً لم يكن معه بمكنة أحد المجيء اليه ، وبحيث سار كل شيء باصرم نظام   المسجل يدلي بتقريره الى سكرتير المحافظ   وسكرتير المحافظ الى مساعد المستشار أو أي واحد آخر ، الى ان تصل القضية اليه   وهكذا كان كل شيء في روسيا المقدسة قد سرت اليه عدوى

التقليد فكل كان يريد تقليد رئيسه ومنافسته بل يقال ان مساعد المستشار حين عُيّن رئيساً لدائرة خاصة غير كبيرة فانه في الحال حجز لنفسه غرفة خاصة ، فصلها عن البقية ، مسمياً اياها «غرفة الادارة» ، ووضع عند الابواب بعضاً من الحجّاب بياقات حمراء مقصّبة كانوا يمسكون بمقبض الباب وكانوا يفتحونها لكل آت ولو انه بالكاد كان يمكن ان توضع في «غرفة الادارة» منضدة كتابة عادية فقط وكانت مقابلات وعادات «الشخصية الهامة» رصنة ومهيبة ولكنها ليست بالغة التعقيد وكانت القاعدة الرئيسية لنظامه هي الصرامة «الصرامة الصرامة ومن ثم الصرامة» — كان يقول هو عادة وعند الكلمة الاخيرة كان ينظر عادة ، على نحو معبر ، في وجه محدّثه وعلى أية حال بالرغم من انه لم يكن لذلك أيما سبب وذلك لأن عشرات الموظفين ، الذين يؤلفون كامل جهاز هذه الدائرة الحكومية كانوا أصلاً في رعب دائم فما إن يراه الموظف من بعيد حتى يترك عمله وينتظر واقفاً منتصباً ريثما يمرّ الرئيس عبر الغرفة وكان حديثه الاعتيادي مع الأدنين يتردد بالصرامة ، ويتألف

تقريباً من ثلاث عبارات كيف تجرؤ ؟ أتعرف مع من تتكلم ؟ أتفهم من يقف أمامك ؟ » وعلى اية حال فقد كان ، من حيث الروح ، انساناً طيباً ، طيباً مع الرفقاء لطيفاً متفضلاً غير ان منصب جنرال قد حيره ، وأتلفه فحين تسلّم هذا المنصب ، ضلّ عن الطريق ولم يعرف قطعاً كيف ينبغي له التصرّف فان حدث له أن كان مع أقرانه ، فانه كان انساناً كما ينبغي انساناً شريفاً ليس بالغبي بكثير من المعاني والاعتبارات ولكن ما إن يكن في مجتمع يحضره موظفون أصغر منه ولو بدرجة واحدة في الوظيفة فانه هناك فقط يكون بالغ العجرفة والسوء كان يصمت وكان وضعه يثير الشفقة خصوصاً وانه حتى هو نفسه كان يحسّ بانه كان يستطيع امضاء الوقت على نحو أفضل بما لا يقاس ، وكانت ترى في عينيه الرغبة القوية في الاندماج بحديث ما ممتع ، وفي حلقة ، ولكن كانت توقفه فكرة ألن يكون هذا كثيراً جداً من ناحيته ألن يكون هذا رفعاً للكلفة ، ألن يحطّ هذا من قدره بهذا الشكل ! وبنتيجة هذه الاجتهادات ، كان يظل على نحو مستمر في وضع صمت لا يتغير ، ناطقاً ، على

نحو نادر ، بكلمات غاية في الايجاز ، وبهذا الشكل حصل على لقب الانسان الأشد اضجاراً الى مثل هذه « الشخصية الهامة » جاء صاحبنا آكاكي آكاكيفيتش ، وقد وصل في الوقت الاسوأ ، الوقت غير المناسب تماماً له ، بالرغم من كونه مناسبا بالنسبة للشخصية الهامة كان الشخصية الهامة في غرفته ، مستغرقاً في الحديث على نحو غاية في المرح مع احد معارفه القدماء ، الذي قدم منذ وقت ليس بالبعيد ، وهو من رفاق طفولته ، ولم يره لمدى بضع سنوات وفي هذا الوقت أبلغوه بأنه جاء اليه احدهم بلقب باشماجكين وسأل هو ، على نحو مقتضب جاف « من هذا ؟ » فأجابوه « موظف ما » — « آ يستطيع ان ينتظر ، فالآن ليس بالوقت المناسب » — قال الشخصية الهامة وهنا يلزم القول ان الشخصية الهامة قد كذب تمام الكذب فقد كان لديه الوقت للمقابلة ، اذ أنهى ، منذ زمن ، الحديث مع الصديق عن كل شيء ، ومنذ أمد بعيد صارت تتخلل الحديث فترات صمت متطاولة ، لا شيء سوى انهما جعلا يثرثران الواحد مع الآخر بشكل متقطع ، وبين الفينة والفينة ، رابتاً كل منهما على فخذي الآخر : « اذن هكذا

يا ايفان آبراموفيتش ! — « هكذا ، يا ستيبان فارلاموفيتش ! » ولكن مع كل هذا فانه أمر الموظف القادم اليه بالانتظار ، كي يظهر للصديق ، الذي لم يخدم منذ أمد بعيد ، والعائش طول عمره في البيت ، في القرية ، كي يظهر له كم من الوقت ينتظره الموظفون في قاعة الانتظار وأخيراً ، بعد ان شبع ، حديثاً وشبع اكثر من ذلك ، صمتاً ، وبعد ان دخن سيجاراً ، في اكثر الكراسي ذات المساند راحة ، ذات الظهور المتحركة ، فانه ، اخيراً كما لو انه تذكر ذلك فجأة ، قال للسكرتير ، الواقف لدى الباب بالاوراق للتقرير « ان هناك موظفاً ما يقف في الانتظار ، قل له انه يستطيع الدخول » واذ اجتلى ببصره المظهر الوديع لآكاكي آكاكيفيتش وسترته الرسمية العتيقة خاطبه فجأة قائلاً « ما الذي تريد ؟ » — قالها بصوت قوي مقتضب ، جاف وهو الذي تعلمه خصيصاً ، ومقدماً في غرفته ، لوحده على انفراد امام مرآة قبل تسلّمه منصبه ووظيفة الجنرال باسبوع وكان آكاكي آكاكيفيتش قد استشعر قبل ذلك بوقت مناسب ، بتهيب وخشية فارتبك بعض الشيء وشرح بقدر ما استطاع وبمقدار ما مكّنته حرية لسانه ، شرح

بل وحتى مضيفاً بعض الحروف والكلمات المساعدة بشكل اكثر من ذي قبل ، انه كان لديه معطف جديد تماماً ، وانه الآن مستلب بشكل لا انساني للغاية، وانه يتوجه اليه كي يتوسط له بنفسه او يكتب رسالة الى رئيس البوليس أو أي شخص آخر ، للعثور على المعطف ولاح للجنرال لسبب غير مفهوم ان مثل هذه المخاطبة قد رفعت الكلفة « ماذا ، ايها السيد الكريم ، ــ واصل هو ، بشكل مقتضب ، ــ الى أين جئت ؟ ألا تعرف كيف تدار الأمور ؟ كان عليكم ان تقدموا بخصوص هذا الامر التماساً الى المكاتب وكان هذا الالتماس سيصل الى رئيس الدائرة ، ثم الى رئيس القسم ثم الى السكرتير والسكرتير يوصلها لي

ــ لكن، يا صاحب الفخامة ، ــ قال آكاكي آكاكيفيتش لاماً كل ما تبقى لديه من شجاعة وحيل محساً في ذات الوقت ، أنه قد عرق بشكل فظيع ، ــ أنا يا صاحب الفخامة، تجرأت على تجشيمكم العناء ، وذلك لأن امناء السر قوم ليسوا بالمعتمدين

ــ ماذا ماذا ؟ ــ قال الشخصية الهامة ، ــ من اين منحت هذه الشجاعة وهذه الروح ؟ من أين

استوردت هذه الافكار ؟ اي تمرّد يعم بين الشباب ضد الرؤساء والأعلين ! ــ والظاهر ان الشخصية الهامة لم يلاحظ ان آكاكي آكاكيفيتش صار يناهز الخمسين اذن لو امكن ان يسمى هو شاباً ، فاللهم بصورة نسبية ، أي بالمقارنة مع من بلغ السبعين . ــ أتعرف مع مَن تتكلم ؟ أتفهم من يقف أمامك ؟ أتفهم أنت هذا ، أتفهم هذا ؟ اني اسألك . ــ وهنا دبك هو بقدميه ، رافعاً صوته الى تلك النبرة الحادة العنيفة بحيث ان أياً كان ، وليس آكاكي آكاكيفيتش وحده ، كان يرتجف رعباً اما آكاكي آكاكيفيتش فهو بهذا الشكل قد مات رعباً ، فعلا فقد ترنّح وتمايل ، واهتزّ بكامل جسمه ولم يستطع الوقوف بحال ولولا ان الحراس قد خفوا لأسناده ، لكان قد تهاوى على الارض وقد حملوه دونما حراك تقريباً اما الشخصية الهامة فنظر مسروراً من كون التأثير قد فاق المتوقّع ، وثمل تماماً بفكرة ان كلمته تستطيع تجريد الانسان من حواسه ، نظر شزرا الى الصديق ، ليعرف كيف ينظر هو الى هذا ، وقد لحظ ، ليس من دون متعة ان الصديق كان في حالة يصعب جداً تحديدها ، بل وبدأ من ناحيته يحسّ بالرعب هو أيضاً .

كيف هبط هو السلم كيف خرج الى الشارع ، لم يعد آكاكي آكاكيفيتش يتذكر شيئاً من هذا لم يكن يحسّ لا بيديه ، ولا بقدميه ولم يكن هو قد وُبخ بمثل هذه الشدة من قبل جنرال ، والى ذلك فجنرال لايمت اليه بصلة سار هو في العاصفة الصافرة في الشوارع ، فاغراً فاه منحرفاً عن الارصفة ، وكانت الريح ، وفقاً لعادات بطرسبورغ تعصف به من كافة الجهات الأربع ، من كافة الأزقة وفي لحظة التهبت لديه الغلاصم في البلعوم ، ووصل هو البيت لا يقوى على ان يفوه بكلمة واحدة ، وتورّم كله ورقد في الفراش بمثل هذه القوة يكون أحياناً التوبيخ اللازم وفي اليوم التالي ظهرت لديه حمى قوية وبفضل الاعانات الكبيرة لمناخ بطرسبورغ ، تطوّر المرض اسرع من المتوقّع ، وحين ظهر الدكتور فانه ، وقد تحسّس النبض ، لم يجد بوسعه شيئاً يعمله ما خلا كتابة وصفة بلبخة ، لا شيء الا لأجل ان لايبقى المريض من دون مساعدة الطب الخيّرة ، ومع ذلك فقد أعلن موته المحتم بعد يوم ونصف. وتوجه بعد ذلك الى ربة البيت وقال « وأنت يا أماه ، لا تضيعي الوقت عبثاً ، أوصي له على تابوت من

خشب الصفصاف   وذلك لأن التابوت من خشب البلّوط غال بالنسبة له»   أو سمع آ كاكي آ كاكيفيتش هذه الكلمات المميتة المقولة ، ولكن حتى ولو سمع ، أكان لهذه الكلمات فعل مؤثّر عليه ، أكان هو قد أشفق على حياته المحتضرة ـ لا شيء من هذا معلوم لنا   لأنه كان قد وُجد طوال الوقت في الحمى والهذيان كانت الاشباح والطيوف ، واحدها أغرب من الآخر ، تطوف به دون انقطاع   فتارة كان يرى بتروفيتش ويوحيه بأن يصنع له معطفاً يقيه شرّ اللصوص ، الذين تراءوا له ، دون انقطاع ، تحت السرير ، وكان يدعو صاحبة البيت كل دقيقة لتطرد أحد اللصوص من تحت الغطاء ، وتارة كان يسأل لماذا يتعلق فوقه رداؤه القديم ، فان لديه معطفاً جديداً ، وتارة اخرى كان يلوح له انه كان يقف أمام الجنرال مستمعاً الى توبيخه العنيف ، وقائلاً   «عفواً يا صاحب الفخامة» ولافظاً أخيراً بأقذر الكلمات ، بحيث ان ربة البيت العجوز صارت ترسم علامة الصليب ، وهي التي لم تسمع منه ، منذ اسحق الازمان شيئاً مماثلاً لذلك ، خصوصاً وان هذه الكلمات كانت تعقب مباشرة كلمة «يا صاحب الفخامة   وفيما بعد كان

يتكلم هراءاً محضا بحيث انه لم يمكن قطّ فهم شيء منه ، فقط كان ممكناً ملاحظة ان الكلمات غير المترابطة والافكار غير المتصلة بعضاً ببعض كانت تحوم أبداً حول معطف واحد لا غير وأخيراً أسلم آكاكي آكاكييفيتش الروح ولم يُختم لا على غرفته ولا على حاجياته وذلك لأنه أولا لم يكن له ورثة وثانياً لانه ترك شيئاً ضئيلاً من الارث ، وهو بالذات حزمة من ريش الاوز ودزينتين من الورق الحكومي الأبيض وثلاثة ازواج من الجوارب ، وزرين او ثلاثة مقتطعة من البنطلون ، والرداء القديم الذي بات معروفاً للقارئ ان الله وحده يعلم مَن الذي حصل على هذا واني لأعترف بانه حتى راوي الحكاية لم يهتم بذلك وحمل نعش آكاكي آكاكييفيتش ودفن وبقت بطرسبورغ من دون آكاكي آكاكييفيتش، كما لو انه لم يكن فيها قط وتلاشى واختفى كائن لم يكن أحد يحميه لم يكن عزيزاً على احد ، ولم يهتمّ به احد ، بل حتى لم يجتذب اهتمام دارس الطبيعة ، الذي لا يفلت ذبابة عادية فيغرزها بدبوس وينظر اليها في المكروسكوب كائن كان يتحمل خانعاً سخريات الموظفين في

المكاتب وقد هبط القبر دون ذنب جناه ، كائن استضاف ولو قبيل نهاية الحياة نفسها ضيفاً عزيزاً ، بشكل معطف ، أحيا للحظة حياته التاعسة ، التي انقضّ عليها الشقاء ، مثلما انقضّ على السلاطين وحكام العالم وبعد عدة أيام من وفاته بالذات بُعث اليه في الشقة حارس من المديرية ، بأمر ان يحضر على الفور فالرئيس بالذات يطلب ذلك ، غير ان الحارس كان مضطراً لأن يعود خاوي الوفاض ، وهو يقدم جوابه بانه لم يَعد قادراً على المجيء اليه وأجاب عن سؤال « لماذا ؟ » بكلمات « هكذا لأنه مات وقد مرت أربعة أيام على دفنه » وعلى هذه الشاكلة عرفت المديرية بوفاة آكاكي آكاكيفيتش وفي اليوم التالي حل في مكانه موظف جديد أطول منه بكثير كان يخطّ الحروف ليس بذلك النسق المستقيم الواضح وإنما بشكل جد مائل ومنحرف

ولكن مَن الذي كان يستطيع ان يتخيّل انه هنا ليس كل شيء عن آكاكي آكاكيفيتش ، وانه كان مقدراً عليه ان يعيش على نحو ضاجّ عدة ايام بعد وفاته كما لو ان ذلك كان ثواباً عن الحياة التي لم يلاحظها أحد ؟ ولكن هكذا حدث ، وهكذا

تكتسب الحكاية المسكينة ، دون توقع ، نهاية خيالية ففي بطرسبورغ سرت فجأة اشاعات تقول ، بان عند جسر كالينكين، وأبعد منه ، جعل يظهر في الليل ميت بشكل موظف ، يبحث عن معطف مختطف ، وباسم المعطف المختطف كان يجرّد الاكتاف جميعاً ، دون تمييز في المناصب والالقاب ، من المعاطف بفرو القط ، بفرو القندس ، بالقطن ، بفرو الراكون ، بفرو الثعلب ، وفرو الدببة ، وبكلمة ــ المعاطف من كل فرو وكل جلد ، من أيما نوع كان يبتكره الناس لتغطية أنفسهم ورأى أحد موظّفي المديرية الميت بأم عينيه ، وعرَف فيه في الحال آكاكي آكاكيفيتش ، ولكن هذا أوحى له ، على كل حال ، بذلك الرعب ، الذي انهد يركض جرّاءه ، بكل قواه ، وبسبب ذلك لم يستطع ان يجتلي ببصره شيئاً ، لا شيء سوى انه رأى ، كيف هدده ذاك من بعيد باصبعه وردت من كافة الانحاء شكاوى مفادها بأن الظهور والاكتاف ليس فقط لدى مساعدي المستشار وانما حتى لدى موظفي الدرجات الاخرى كانت تتعرض للبرد الكلي بسبب اختطاف المعاطف وقد حُرر في البوليس أمر بالقبض على الميت مهما كلّف

الثمن ، حياً كان ام ميتاً ، ومعاقبته ، كمثال للآخرين ، بأقسى شكل ممكن ، وحتى في هذا لم يفلحوا الا بالكاد. فبالذات كاد حارس احد الأحياء في زقاق كيريوشكين ان يقبض تماما على الميت من ياقته في ذات مكان الجريمة ، وهو يحاول تجريد موسيقار متقاعد من معطفه المصنوع من الجوخ ، كان يعزف في وقته على مزمار واذ اختطفه من ياقته ، استدعى بصراخه اثنين من رفقائه في الحراسة ، عهد اليهما بحجزه ، اما هو نفسه فقد دس يده لدقيقة واحدة ليس الا في طيات حذائه الطويل ومن اجل ان يختطف من هناك مسعطه ، وانعاش انفه المتجمّد طوال حياته ست مرات ، ولكن التبغ كان من ذلك النوع الذي لم يستطع تحمله حتى الميت وما إن أفلح الحارس في ان يأخذ نصف حفنة بيسراه ، فيما اغلق باصبعه منخره الايمن ، حتى كان الميت قد عطس بتلك القوة ، بحيث انه قد رشهم هم الثلاثة في عيونهم جميعاً حتى اذا رفعوا قبضات ايديهم يمسحون عيونهم ، كان الميت قد ضاع أثره ، بحيث انهم لم يعرفوا أكان هو بالضبط في أيديهم ومنذ ذلك الوقت تلقّى الحراس من الاموات ذلك الرعب ،

الذي جعلوا معه يتوجسون خيفة من ان يمسكوا الأحياء أيضاً ، وصاروا يكتفون بالصراخ من بعيد «ايه انت ، امضى في طريقك ! » — وجعل الميت — الموظف يظهر وراء جسر كالينكين ، ملقياً غير قليل من الرعب في قلوب كافة الناس الهيّابين ولكننا ، على أية حال قد تركنا تماماً «الشخصية الهامة» ، الذي كاد ان يكون ، في الواقع ، سبب الاتجاه الخيالي ، لحكاية واقعية تماماً وقبل كل شيء فان الانصاف يتطلبنا ان نقول ان «الشخصية الهامة» أحسّ بشيء ما من قبيل الأسف ، بعد خروج الموبَّخ آكاكي آكاكيفيتش . ان التعاطف لم يكن غريباً عليه: فان قلبه كان وراء كثير من الأعمال الطيبة ، بالرغم من ان المنصب كان كثيراً ما يعرقل ظهورها وما إن غادره الصديق القادم حتى فكر هو بالمسكين آكاكي آكاكيفيتش ومنذ هذا الوقت فكل يوم تقريباً كان يظهر له آكاكي آكاكيفيتش الشاحب ، الذي لم يحتمل التوبيخ اللازم وقد أقلقه التفكير فيه وأقض مضجعه ، بحيث انه قرر بعد اسبوع ، ان يرسل اليه موظفاً ليعرف حاله وليستفهم أليس ممكناً في الواقع مساعدته بشيء وحين أبلغوه ان

آكاكي آكاكيفيتش قد مات بالحمى فانه بقي مذهولاً وجعل ضميره يبكته ، وظل طوال اليوم معتكر المزاج ورغبةً منه في ان يتسلّى قليلاً ، وينسى الانطباع غير السار ، فانه توجه في المساء الى احد أصدقائه ، الذي كان يتواجد لديه مجتمع لا غبار عليه ، وأفضل كل شيء كان هناك ــ هو ان الموظفين المجتمعين كانوا من رتبة واحدة ، وهكذا فانه لم يكن يتقيد بشيء ، وكان متحرراً في تصرفه وكان لهذا مفعول السحر على وضعه الروحي كان ينبسط ، ويصبح مقبولاً ، لطيفاً في الحديث ، وبكلمة كان يقضي المساء كله مسروراً جدا وشرب بعد العشاء قدحين من الشمبانيا ، وهي الوسيلة التي ، كما هو معلوم ، تؤثر بشكل فعال في المرء وتجعله مرحاً وأبلغته الشمبانيا الى مستوى القرارات العاجلة ، وبالذات قرر هو عدم الرحيل الى البيت ، وانما الى سيدة يعرفها هى كارولين ايفانوفنا ، سيدة يبدو انها من أصل الماني كان يكنّ لها مشاعر الود والصداقة وينبغي القول ان الشخصية الهامة لم يعد شاباً ، وكان زوجاً طيباً وأبا بارّا لعائلة كان لديه ابنان كان احدهما يخدم في الدائرة ، وله بنت رائعة لطيفة المظهر

لها ستة عشر ربيعاً ، وانف مقوس بعض الشيء ، ولكنه جميل ، كانوا يأتون كل يوم لتقبيل يده قائلين «Bonjour papa!» اما زوجته ، المرأة التي كانت لا تزال نضرة وجميلة ، فكانت أولاً تمنحه فرصة تقبيل يدها ، وبعد ذلك كانت تقلبها على الوجه الآخر ، وتقبل يده غير ان الشخصية الهامة ، الراضي المسرور ، على أية حال ، بالالطاف العائلية البيتية ، وجد من المناسب ان تكون له ، لأجل العلاقات الصداقية ، صديقة في الشطر الآخر من المدينة ولم تكن هذه الصديقة أفضل بحال ولا أفتى قطّ من زوجته ، ولكن مثل هذه الأمور تقع في الكون ، وليس الحكم عليها من شغلنا واختصاصنا وهكذا ، فان الشخصية الهامة هبط من السلم وجلس في الزلاّقة ، وقال للحوذي « الى كارولين ايفانوفنا » ، اما هو نفسه فقد ظل ، متدثراً بشكل باذخ في معطف دافىء في ذلك الوضع المريح ، الذي لن تبتكر أفضل منه للانسان الروسي ، اي حين لا تفكر أنت نفسك في أيما شيء ، وفي اثناء ذلك تكون الافكار نفسها ترد الى الذهن ، واحدها ألذ من الآخر ، دون ان تكلفك عناء السعي وراءها والبحث عنها وتذكّر ، وهو المفعم

سروراً تذكر ، الى حد ما ، كافة اللحظات المرحة فى هذه الامسية ، وكافة الكلمات التي تحمل الوسط الصغير على القهقهة ؛ بل انه كرر الكثير منها بملء صوته ، ووجد انها ، مع ذلك ، مضحكة ، كما قيلت سابقاً ، وقتها ، ولذلك فلا غرو ، انه هو نفسه يضحك من القلب وقلّما كانت الريح العاصفة ، المتقحمة تضائقه على كل حال ، غير انها اشتدّت فجأة ، لا يعرف سوى الله من أين مأتاها ، فكانت تلسع وجهه رامية عليه بكتل الثلج الوخّاز ، رافعةً مثل صارية ياقة معطفه ، او منقضة فجأة ، بقوة خارقة ، غير طبيعية على رأسه ومسببة له بهذا الشكل ، الكثير من الجهود الشاقة المستمرة للتخلص من أذاها وعلى حين غرة أحس الشخصية الهامة بأن أحدهم قد اختطف ياقته ممسكاً بها بقوة بالغة ولاحظ ، مستديراً ، شخصاً قصير القامة ، في سترة رسمية عتيقة مهلهلة ، وعرف فيه ، ليس من دون رعب ، آكاكي آكاكيفيتش كان وجه الموظف شاحباً كالثلج ، ويلوح ميتاً تماماً غير ان ارتعاب الشخصية الهامة فاق كل الحدود ، حين رأى فم الميت قد التوى ، مطلقاً عليه رائحة القبر ، لينطق بمثل هذه

العبارات «آ ها انت اذن في النهاية أخيراً أمسكت بك من ياقتك ! ان معطفك هو الذي يلزمني ! لم تهتم بمعطفي واكثر من ذلك وبّخت وقرعت ، اذن فاعطني الآن معطفك ! » وكاد « الشخصية الهامة » ، المسكين يموت رعباً ومهما كانت قوة طبعه وشخصيته في الدائرة ، وعموما امام من هو أدنى منه منزلة ، وبالرغم من ان كل أحد اذا طالع بنظره مظهره الرجولي وهيئته الصلبة كان يقول « اوه أية شخصية ! بالرغم من كل هذا كان هو هنا ، مثل الكثيرين من ذوي المظهر الخارجي الباذخ المحترم ، يحس برعب بالغ ، جعله يتخوف ليس من دون سبب من أيما نوبة مرضية وسرعان ما رمى بنفسه عن كتفيه معطفه ، وصرخ بالحوذي بصوت لا يشابه صوته المألوف « الى البيت بمنتهى السرعة ! وأخفى الحوذي ، إذ تسمع الصوت الذي كانت نبرته مما يُنطق عادة في اللحظات الحاسمة ، بل حتى يشفع بشيء ما اكثر عملية ، أخفى ، تحوطاً لكل طارئ ، رأسه بين كتفيه وأهوى بالسوط ، ومرق مثل سهم وفي ست دقائق ونيف كان الشخصية الهامة أمام مدخل بيته وصل بيته شاحباً ، مفعماً بالرعب دون معطف ، وبدلاً

من أن يتوجّه الى كارولين ايفانوفنا ، بلغ غرفته بشكل ما وامضى الليل في قلق واضطراب بالغ بحيث ان بنته قالت له وقت شاى الصباح في اليوم التالي « انك اليوم شاحب جداً يا بابا ! » غير ان بابا صمت ، ولم يقل لأحد كلمة عما وقع له وأين كان والى أين أراد الرحيل وقد تركت هذه الواقعة انطباعاً قوياً عليه بل انه صار قلما يكلم مرؤوسيه بمثل ما كان يقول سابقاً كيف تجروئ أتفهم من هو أمامك ؟ » وحتى اذا نطق بمثل هذا فهو ليس قبل ان يسمع أولاً صلب المسألة ، واين السر ولكن الاكثر من ذلك أهمية ، هو انه منذ ذلك الوقت اختفت تماماً ظاهرة الموظف — الميت والظاهر ان معطف الجنرال قد لاءم كتفيه وكان على قده، او على الاقل لم تسمع بعد ذلك ، في أيما مكان ، بتلك الوقائع التي تقول بانه نزع معطف ما من فلان ومع ذلك فان كثيرين من الناس العاملين الحريصين لم يريدوا ان يهدأوا وجعلوا يقولون انه في الاطراف القصية من المدينة لا زال يظهر الموظف — الميت وبالضبط ، كان أحد الحراس من كولومنا قد رأى بأم عينيه كيف ظهر شبح من وراء أحد البيوت ، ولكنه ، لكونه بطبيعته

هياباً وجلاً بحيث انه ذات مرة كان خنزير عادي مسن ، قد أسقطه بصدمة في ساقه طالعاً من بيت خاص ، الامر الذي أثار الضحك الطويل للحوذية الواقفين حوله ، والذين سألهم هو قرشاً من كل منهم لشراء التبغ مقابل هذا الاستهزاء ، — وهكذا لكونه هياباً ، فانه لم يجرؤ على ايقافه ، وإنما مضى وراءه في الظلمة ريثما استدار الشبح فجأة ، وتوقف ، سائلاً اياه «ما الذي تريد ؟» — واراه قبضة يده ، مما لا يُرى حتى عند الأحياء وقال الحارس «لا شيء» ، وقفل راجعاً لتوّه غير ان الشبح كان أطول قامة بكثير ، وكان يحمل شاربين ضخمين ، وبدا أنه اختفى ، مقوماً خطوته ، عند جسر اوبوخوف ، وضاع أثره تماماً في ظلمة الليل المبهم

عام ١٨٤٢

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان زوبوفسكي بولفار ٢١
موسكو — الاتحاد السوفييتي